عـزيـز شـراج

رحلة بجواز سفر داغشي

رواية

منشورات سوتيميديا

عزيز شراج

رحلة بجواز سفر داغشي

منشورات سوتيميديا

عـزيـز شـراج



رحلة بجواز سفر داغشي

رواية

الثمن: 23 د.ت - 100 درهم



9 789938 918304

رحلة بجواز سفر داغشي

العائدون فقط من ذاك الجحيم، من تلك الغابة التي ينطبق عليها المثل القديم الجديد، الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود، هؤلاء فقط هم المولودُون الجُدد دون عقل أو بنصف عقل، وحدهم يستطيعون أن ينقلوا إلينا بعض ما يدُور هناك، بعض ما يدور فقط، لا عقولهم المُدمّرة ولا النظام السّائد يُمكّنهم من رؤية كاملة.

كلّ الذين تُنصب لهم الشِّراك في هذه الحياة بُغية اصطيادهم كالأسماك، حيث تُرمى الصنّارات كل يوم بالملايين في بحر الحياة لتصطاد الأغبياء وذوي الحظ السيء.

هُم يمتلكون فرصة للهروب، للنجاة، ولكنَّهم لا يرونها. تكون عقولهم، قلوبهم، كلّها مشلولة، مُنوّمُون لا يَرَوْن أي شيء سوى الطُّعم، يتسارعون للإمساك به في حين هو من يُمسك بهم ليسحبهم إلى حيث لا يتصوّرون، إلى حيث لم يُعودوا يملكون من أمر أنفُسهم شيئًا، إلى سلَّة الصيّاد الذي لن يُفكّر أبدا في أن يُعيدهم إلى الماء، وإن حدث وعادوا وهذا نادر جدا، يكونون في الغالب جُثثًا تطفو لا غير.



منشورات سوتيميديا

رحلة بجواز سفر داغشي

رواية

المؤلّف

عزيز شراج

الطبعة الأولى : تونس جانفي - 2018

الناشر والموزع

سوتيميديا للنشر والتوزيع

العنوان : ص ب 570 تونس - حشاد 1049 تونس

الهاتف : 00216 31400756 **الجوال :** 00216 97126757

الفاكس : 00216 32400756

@ contact@sotumedias.tn

www.facebook.com/sotumedias

ر.د.م.ك

978-9938-918-30-4

منشورات سوتيميديا

الطباعة

المغاربية للطباعة واشهار الكتاب - تونس

لحساب سوتيميديا للنشر والتوزيع

عزيز شراج

رحلة بجواز سفر داغشي

رواية

منشورات سوتيميديا

مقدّمة

العائدون فقط من ذاك الجحيم، من تلك الغابة التي ينطبق عليها المثل القديم الجديد، الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود، هؤلاء فقط هم المولودون الجُدد دون عقل أو بنصف عقل، يستطيعون وحدهم أن ينقلوا إلينا بعض ما يدور هناك، بعض ما يدور فقط، لا عقولهم المُدمرة ولا النظام السائد يُمكّنهم من رؤية كاملة، سيقولون:

إنهم وجدوا كلّ شيء. وجدوا المال، وجدوا النساء، القنابل، وكل آلات الدمار، سيقولون: إنّهم لم يجدوا تعاليم آدم، لم يجدوا شيئا من سفينة نوح وروحه، لم يجدوا تسامح بوذا، لم يجدوا توراة موسى، لم يجدوا إنجيل عيسى، لم يجدوا قرآن محمد. وجدوا فقط الحضارة الغربية مُتجردةً بشكل كامل من عُطورها ومساحيقها.. وَجدوها امرأة عجوزا، تفوح منها رائحة دماء الأطفال وسائر الأبرياء وروائح دخان أسوار المدن ومنازلها التي هُدت ابتداء من الحروب الاستعمارية الأولى إلى الآن، وجدوا رائحة دماء كل الشعوب وكل الأمم.

وجدوا هذه الحضارة مُتجردة من مساحيقها لتظهر عجوزا مُخيفة مُرعبة، هؤلاء فقط من رأى الحضارة الغربية عارية، في حين لا زلنا نحن وكل من في الخارج نراها بمساحيقها وعطورها، نراها فاتنة، جميلة بشعرها الاصطناعي الأصفر، والأكثر من ذلك نراها حنونا تدمع عيناها لتألّم قطة.

هؤلاء فقط هم من يعرفون أنّ الحضارة الغربية تصنع مساحيقها وعطورها من دماء الأطفال والأبرياء من كلّ أنحاء العالم، هؤلاء فقط من يعرفون أنّها ضاجعت الشيطان فأنجبت منه نُخبة الشياطين هذه التي تقود عالم الساعة إلى الدمار ولا شيء غير الدمار.

الفصل 1

«القونة» الأولى

«يستطيع الشيطان أن يكون ملاكا.. والقزم عملاقا.. والخفاش نسرا.. والظلمات نورا.. لكن أمام الحمقى والسذج فقط»

«حكمة»

سماء مليئة بالغيوم غير الممطرة، أرض عطشى، آفاق مستقبلية مسدودة، لتخرج من فوهة البطالة، العجز، الاحتياج، الفقر، الجهل، أنت في حاجة إلى مُعجزة.

خرج آلاف الشباب التونسي في سابقة فريدة من نوعها، آلاف الخناجر المطحونة، المتعطشة لحياة كريمة، خرجت لأنها لم تتحمل الظُّلم المُسلط عليها وعلى أبنائها، خرجت لأن أحد شبابها أحرق نفسه أمام الملأ، أمام مبنى الولاية، في إِشارة تحمل أكثر من دلالة، أحرق نفسه لأنه لم يعد يحتمل النار المشتعلة بداخله والتي أتت على كلّ ما هو جميل فيها.

خرج شباب تونس في جلّ المدن، خرجوا ضدَّ الظُّلم، خرجوا يُطالبون بأحلامهم المسروقة، المحروقة. في هذه الفترة تسرَّب الأَمل إلى النفوس هرب الجنرال، هرب البُعبع، هرب كجرذ خائف، كانت كلمة «ارحل» كافية لتجعله يختفي ويرحل.

آلاف الشباب اختاروا البحر، استغلوا الفوضى والشواطئ غير المراقبة والمحروسة، انطلقوا في رحلة تِلو الأُخرى ينشدون عالم الغرب. كنَّا مع هؤلاء الذين لم يَعقدُوا الأمل على الثورة وقرروا اغتنام الفرصة للهروب، للوصول إلى هناك، الجنة الموعودة، كانت أفواج القوارب التي تصل كلَّ يوم مُحملة بمئات الشباب على اختلاف جنسياتهم، تُلهب حماسنا، تُفقدنا توازننا، تجعلنا نُسرع الخُطى إلى حجز مكان في قوارب النَّجاة والحلم كما نُسميها نحن الهاربين، أو في قوارب الموت كما يسمّيها الإعلام العالمي.

بعد نصف يوم من الدوران من مقهى إلى آخر ومن شارع إلى آخر، في انتظار مكالمة وأوامر سمسار الهجرة أو بعبارة أدق وكيل أسفار مُعتمد من قِبل الظلم والتهميش والاستبداد.. في مدينة تونس تَقرر بل طُلب منَّا السفر إلى مدينة صفاقس.

المحطة التي استقر الرأي أن تنطلق من إحدى شواطئها رحلتنا إلى الديار الإيطالية، من محطة «المنصف باي» وسط العاصمة تونس، انطلقنا نحن الأَربعة شباب مغاربة على متن سيارة أُجرة كبيرة أَو ما يُسمى في تونس «لواج»، في اتجاه صفاقس المدينة، لم تكن المسافة المقدرة بثلاثة مائة كيلومتر تقريبا بين المدينتين لِتهُمنا، سؤال واحد ظلَّ يطرح نفسه ويُلح:

- هل سيتحقق الحلم؟
- هل سنصل عن طريق هؤلاء السماسرة إلى إيطاليا؟

- هل تكفي الألف دينار التي بحوزة كلّ واحد منا أَن تُترجم أَحلامنا إلى حقيقة؟

أثناء الطريق لم نتبادل إلاَّ النّزر القليل من الحديث، ظلَّ التوتر والخوف والترقب ممزوجا بالحلم، هو المسيطر على أحاسيسنا، كان الحلم الجميل يداعب أحيانا نفوسنا، يُغالب الرعب المسيطر عليها، سيارة، فتاة جميلة، سكن نظيف..، حلم يُجسد إِنسانيتنا بشكلها الجميل المرسوم في مخيلة كلّ واحد منا، الحلم الذي لقّنُوه لنا، رسموه على جدران مدارسنا لكنهم لم يعلِّمونا كيفية وطريقة تحقيقه، حلم يجعلنا نعتقد أن السعادة مقترنة. بفتاة شعرها أصفر وسيارة.. بالطريقة ذاتها المُلقنة، لماذا يقترن ذكر البلدان الغربية بالجمال والنظافة؟ في حين يقترن ذكر بلداننا بالفقر والأَوساخ والكبت، ويعود السؤال من جديد مقترنا بالرجاء والأمل.

- هل تكفي الألف دينار لتحقيق حلم عبور البحر؟

أصبح عبور البحر إلى الضفة الغربية حُلم الملايين من شبابنا. مبلغ العبور لم نتحصل عليه بسهولة، تَطلّب الحصول عليه نصف سنة من العمل والكد، مصحوب بأعلى درجات التقشف، أُلغيت في تلك الفترة كلّ الشهوات والمُتع، كلُّ شيء يهون في سبيل الحلم الأكبر، بلاد الغرب الجنة الموعودة.

وصلنا مدينة صفاقس، العاصمة الاقتصادية التُّونسية، حوالي الساعة السابعة مساءً، كانت الرحلة بالنسبة إليَّ على متن سيارة الأُجرة جحيما لا يُطاق، عاودتني نفس الأَعراض، أوجاع في الرأس، تجعل منه قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أيِّ وقت، مصحوبة برغبة في التقيؤ، في أوقات كهذه كلّ ما احتاجه هو النوم ولا غير النوم، لم يكن لا الوقت ولا المكان مناسبين لمتطلبات الجسد المنهك، ما إن

وطئت أقدامنا صفاقس المدينة حتى بادر «العربي» وهو شاب أَسمر، طويل القامة، قوي البنية، أصيل مدينة قرية «ولاد موسى» ضواحي مدينة سلا المغربية، امتهن لفترة طويلة صناعة الفخار في منطقة الولجة ضواحي مدينة الرباط العاصمة، بادر الاتصال بالسمسار لمعرفة الخطوة التّالية.

طُلب منا التوجه على متن سيارة أجرة صغيرة إِلى فندق «دنيا» حيث سنجد من يُرشدنا إلى مكان ما يُسمى في عُرف الهجرة السرية «القونة». انقسمنا إِلى مجموعتين لتفادي الشبهات، عاودنا الاتّصال عند وصولنا إِلى الفندق، حيث كنَّا على موعد مع مفاجأة غير سارة. طُلب منا قضاء الليلة هناك في انتظار الغد حيث سيأتي من سيُوصِلنا إِلى مكان الانطلاق.

كنت أَنا و«الطيبي» وهو شاب أصيل مدينة انزكان ضواحي مدينة أَكادير، حديث الانقطاع عن الدراسة، لم يُجرب العمل بَعد، تحصل على معلوم الرحلة من أخيه المُقيم في إيطاليا، التقينا صدفة عند صديق في تونس، حيث نصحنا الأخير بأن نترك عنده جوزات السفر وسيتكفل هو بإرسالها لنا إِن نجحنا في العبور كما فعل مع أصيل منطقتي الحسين الذي ألهب وصوله إلى الديار الإيطالية مشاعري، دفعني إلى المجيء إلى تونس لأقتفي أثره مع نفس شبكة التسفير.

رفض الفندق استقبالنا أَنا والطيبي باعتبارنا أجانب ووجود جواز السفر في حالة كهذه ضروري وإلزامي ولا يمكن تعويضه ببطاقة التعريف الوطنية التي استظهرنا بها ونحن نحاول عبثا إقناع الموظف.

في مواقف كهذه، تكتشف كذبا آخر، بهتانا آخر، تكتشف أَنَّ

ما يفعله قادتنا في اجتماعاتهم لا يعدو أَن يكون مسرحية سياسية بإخراج محكم، تونس ليست بلدا عربيًا فقط بل هي عضو فيما يُسمى اتحاد المغرب العربي الذي لم يبق منه إلاَّ الإسم بل لم يُولد حتى، كان يُفترض أن يتم التنقل بين هذه البلدان ببطاقة التعريف فقط دون الحاجة إلى جواز سفر، هذا ما كنا نسمعه منذ اتفاق مراكش، كما سمعنا عن قطار المغرب العربي وأشياء أخرى..، لم نرَ ولم يتحقق مما سمعناه شيء، مجرد خُطب خشبية جوفاء واتفاقيات على الورق ليس إلّا.

وجدنا أنفسنا أمام مشكلة حقيقية استيقظت فيها كلّ حواسنا، أن تمضي ليلة كاملة في الخارج في وقت وظرف كهذا يصبح فيه الاصطدام بدورية شرطة احتمالا واردا جدا، هذا يعني الكثير ذاك الوقت. ليبيا تعيش بوادر ثورة عنيفة، ثورة يغيب فيها العقل، مصر تغلي، شبابها يرابط بالآلاف في ميدان التحرير، أَلهمتهم الثورة التونسية وزرعت في قلوبهم الأمل بأن المستحيل ممكن، الكل مترقب، الكل يقظ، في المغرب حركة عشرين فبراير تملأ الشوارع، تصرخ، تَحثّ الناس على الاحتشاد في شوارع الرباط وهي تُطالب بالحرية والديمقراطية غير المغلفة بالوهم، تُطالب بتقسيم عادل للثروات.

عُدنا على متن سيارة أجرة أخرى إلى المدينة القديمة حيث الفنادق الرخيصة والتي يمكن أن تَقبل إيوائنا دون جواز سفر، لم يكن الأمر سهلا كما اعتقدنا، رفض الكثير من الفنادق استقبالنا، بعد بحث مُضني وجدنا فندقا أكثر من متواضع بكثير قَبِل إِيواءنا نحن الأَربعة شريطة أَن يتكفل كلّ من العربي وزيدان وهو شاب «جباس» من مدينة مكناس بضمانا باعتبارهما يحملان جوازي سفرهما.

دفعنا أُجرة الفندق. ثلاثة دنانير للشخص الواحد، أُجرة تُعبر بشكل واضح عن الحالة الأكثر من مزرية لفنادق المدينة القديمة في صفاقس، إذ تفتقر مُعظمها إلى أَبسط مقومات الفندق. روائح الإفرازات البشرية تستقبلك في الباب دون ذكر الخنافس والبق إلى غير ذلك..، ما كان يهمنا شيء من هذا. المهم إنَّنا وجدنا مكانا يَقينا برد فيفري ويُجنبنا الاصطدام بدوريات الشرطة.

لكن الأمور لم تَسر كما نحبُّ ونشتهي، دخلت دورة المياه التي تبعث على التقزز لأتوضأ صحبة الطبيبي «السوسي» بينما تكفل العربي بإحضار وجبة العشاء، بعد ذلك بقليل ما كِدنا نستلقي على أَسِّرتنا المهترئة وإذا بصاحب الفندق يطلب مني أنا والطبيبي المغادرة بأقصى سرعة دون أن يُعيد لنا أيَّ فلس.

- ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

هكذا صحت أنا والطيبي.

- صديقكم لم يعد يرغب في ضمانكما وسيغادر الآن دون أَن يسترد هو الآخر أَي مليم.

- صراحة صِرتُ أشك في أَمركما ورغم ذلك تمنعني مروءتي أَن أُبلِّغ عنكما الشرطة وأضاف:

- كان جيتو في عهد الزين راكم توا في دار خالتكم صحة ليكم هيا فزوا ازربوا رواحكم قوموا..

هرعنا إلى زيدان نستفسر منه الأمر. التزم الصمت، لم يُكلف نفسه مشقة الاعتذار أو التفسير، لاذ بالصمت وهو مُنهمك في جمع أغراضه كأننا غير موجودين، سيطرت على الطيبي رغبة في ضربه.

- ماشي راجل شماته.

- هادي هي الرجولة تفو على وجهك ماتحشمش ماشي راجل..

أصاب زيدان الصمم لم يستمع لما قيل له، لم يُكلف نفسه عناء الإجابة عن سؤالي وتصرف كأنه لم يستمع لشتائم الطيبي وتهديداته، غادر بهدوء كأن شيئا لم يقع، في حين أَلقى علينا العربي نظرة تحمل في طياتها بعض الشفقة المصحوبة بالبلاهة ولحق بزيدان «المكناسي».

غادرنا الفندق تمام الساعة التاسعة مساءً وهو وقت متأخر في مدينة كصفاقس خصوصا في الشتاء، الشوارع تقريبا كلها فارغة، كان الخوف من أَن نصطدم بأي دوريَّة شرطة هو الكابوس ، يعني ذلك أشياء كثيرة مغربيان في شوارع صفاقس ليلا دون جوازي سفر، يقود ذلك مباشرة لتهمة الهجرة السرية، وهذا يعني اقتيادنا إلى مركز إيقاف والتحقيق لمدة يومين أو أكثر، بعدها يملك الموقوف الخيار في أن يُغادر التُّراب التونسي إذا كان يتوفر على ثمن تذكرة السفر بالطائرة، أو النفي إلى ليبيا حيث يجتازون به الحدود بطريقة غير شرعية ويتركونه هناك في الصحراء. هو والحظ.

ليبيا ذاك الوقت لا تُغري أحدا بالذهاب إليها، كلّ الأَخبار تُنبئ ببوادر ثورة عنيفة، أفواج المهاجرين من كلِّ الأَجناس تُغادر كلَّ يوم بالآلاف تجاه تونس، حيث شرع التونسيين رغم الجراح والحالة الاقتصادية المزرية التي تعيشها البلاد بإقامة مخيمات للاجئين، كما فتحت أسر الجنوب التونسي أبواب بيوتها في كرم منقطع النَّظير للأسر اللِّيبية الفارة بدورها من بوادر الجحيم الليبي.

خرجنا من الفندق نترقب لا نعرف أين سنتجه، البرد قارس أكثر من المعتاد تلك السنة، أثلجت في جل مرتفعات البلاد وأمطرت بغزارة دون توقف مِمَّا دفع التونسيين إلى التعليق بسخرية على الأَمر: بأَن البلاد تتطهر طهارة كبرى لتتخلص من نجاسة النظام السابق.

لم يتخلص الطيبي من غضبه وخنقه على زيدان، لم يَكُف عن سبه بأشنع السباب ممَّا أفقده القدرة على التفكير والتركيز فيما نحن فيه، الصدفة وحدها قادتنا إلى محطة القطار التي شكلت لنا مكانا آمنا، لن يُثير تواجدنا هناك أيَّة شكوك، بالإضافة إلى كونها محطة مُكيفة تبعث على الدفء، أهَّلها هذا لتكون مأوى لبعض المتشردين في صفاقس.

منحنا مظهرنا المحترم أنا والطيبي نوعا من الحصانة جعلتنا في مأمن من ملاحقة أعوان المحطة واستفزازاتهم. شرعوا في طرد كلّ المتشردين الذين يجدونهم داخل المحطة بفظاظة تكون أحيانا مصحوبة بالضرب وشتى أنواع الكلام البذيء، المتشردون بدورهم كأني بهم اعتادوا طقوس الاستقبال الحارة تلك، لا يردون ولا يتكلمون، قد يُطرد الواحد منهم من هذا الباب ويدخل من الباب الآخر، الشيء الذي أفقد الأَعوان صبرهم وقدرتهم على التحمل.

لم يكن هناك أدنى إحساس بالآخر كإنسان، القوانين يجب أن تُطبق مهما كان الثمن ويكون الحرص على تطبيقها في ما يضر الناس أكثر وأسرع مما يكون الحرص على تطبيقها في ما ينفعهم، مهما كانت الظروف لا يهم إن كانت تُمطر في الخارج أم لا، في لحظات كهذه تكتشف معاناة أخرى لشريحة من المضطهدين والمطحونين الذين أُفقدوا كلَّ إحساس بإنسانيتهم أصبحوا يُعاملون كحيوانات ولم يعد ذلك يُشكل بالنسبة إليهم أي فرق، إنَّه الانحطاط الإنساني في أبشع صوره، لم نعد نرى أو نسمع أو نُحس آهات الاخرين الكل منغلق داخل ذاته فحسب.

لم يقترب منا الأَعوان ليس بسبب مظهرنا كما اعتقدنا أول الأمر، بل لأنهم أصبحوا يعرفون هذه الشريحة من المتشردين من

وجوههم، أحيانا يُنادونهم بأسمائهم وهم يتوعدونهم، اكتفوا فقط بتنبيهنا أَن النوم فوق الكراسي ممنوع وأَن المحطة ستُقفل أبوابها بعد مغادرة آخر قطار متجه صوب تونس ونحن بطبيعة الحال لن نكون من ركابه.

طلب منا عون المحطة المغادرة بشكل فظ مذكرا إيانا أَنَّ القطار قد غادر وهو يتوعد بكلمات نابية.

- «الا شفت ز..ور أُمكم المرة الجاية ني.. تسمع في ولا لا».

لم نلتفت إليه كل ما كان يهمنا هو ألا نصطدم بدورية شرطة، خصوصا في ذاك الوقت بالذات، لم يكن أَمامنا من حل سوى اتباع أولئك المتشردين. لحسن الحظ لم يذهبوا بعيدا، كانت هناك مقهى مفتوحة أمام المحطة مباشرة.

عند بابها كان النادل أيضا يحمل عصا، يهُش بها على المتشردين كأنَّهم قطيع أغنام، يعرفهم من وجوههم، يسمح فقط لمن يملك منهم نقودا بالدخول ويكون حريصا على أَن يُريه المتشرد المبلغ الذي بحوزته، سُمح لنا نحن بالدخول دون أن يطلب منَّا شيئا، في حين ظلَّ أولئك الذين لم يسعفهم الحظ ذاك اليوم الحصول على بعض الدنانير في الخارج، تارة يطلبون من النادل بِذُل أن يسمح لهم بالدخول واعدين إياه بأن يجلبوا معهم نقودا في الغد، أما الذين صمدوا ولم يُغادروا فكانوا يعرفون أن النادل لن يصمد في الباب لوقت طويل، كلّ مرة كنا نُشاهد أحدهم قد تسلل وانزوى في ركن من أركان المقهى يلتمس الدخان والدفء.

لم يكن المقهى كالمقاهي التي نعرفها، كان شيئا آخر يبعث على الخوف، رائحة الخمر تفوح من كلِّ ركن من أركانه، المقهى ممتلئ على الآخر، الشيء الذي يبعث على الدفء إذ تكفي رائحة الدخان

لتُضفي على الجو دافئا يخنق الأنفاس، الكل منهمك في لعب القمار، استغرب النادل طلبنا لفنجانين من القهوة فقط.

- اكهو ماكمش باش تشربوا حاجة أخرى؟

بدا رفضنا غير مقبولا بالنسبة له، أثار غضبه وسخطه، طلب منا أربعة دنانير ثمن الفنجانين بطريقة فظة، باعتبار أَنَّ الدفع مسبق في هذا المقهى، كان الثمن أكبر بكثير من ثمن الفنجانين لكن لم يكن من بُد من الدفع بصمت، بعثت فينا نظرات النَّادل الكثير من الرُّعب خوفا من أن تُسرق منَّا الألفا دينار ثمن تذكرة العبور إلى الحلم المنشود، كلّ لحظة نتحسس جيوبنا لنتأكد أن المبلغ في مكانه الصحيح.

خرجنا من المقهى حوالي الساعة الرَّابعة والنصف صباحا، حيث بدأت الحياة تدُب في الشوارع، بحثنا عن أقرب مسجد.

هنا تساءلت:

- لماذا تُوصد أبواب بيوت الله أَمام الناس؟

- لماذا لا تُفتح إلا في أوقات الصلاة؟

أَلم يكن باستطاعتها لو تم تأهيلها، لو تم السماح لأصحاب القلوب الرحيمة بالعمل داخلها، بأن تنقذ مئات المتشردين، لو تُركت مفتوحة.

- لماذا كلّ هذا الخوف من المساجد؟

في حين يُسمح للبارات والملاهي والمقاهي بالعمل ليلا وهي محاطة بجيش من رجال الأَمن لحمايتها وحماية مُرتاديها.

- لماذا لا يطبق نفس القانون على المساجد؟

بعد الصلاة بدأت الحياة تدُب في كل شوارع صفاقس المدينة، قصدنا مطعما صغيرا مُتخصصا في أُكلة «اللبلابي» التونسية، وهي عبارة عن صحن مملوء بفُتات الخبز البارد مع البيض النصف الطازج ومرق الحمص بالإضافة إلى التوابل التي تُشكل الهريسة العنصر الأساسي والبارز فيها، هي أُكلة شتوية مشهورة جدا في تونس ومُحبَّبة لدى التونسيين إذ يكفي صحن منها لإعادة الدفء للجسم، وهذا ما كنا نحتاجه أَنا وصديقي الطيبي، الذي انتابه مغص حاد بعد الأُكلة مباشرة جعلته يتقيأ كلّ ما أكله، مُستغربا كيف أمكنني التَّمتع بطبق كهذا دون أيّ شعور بحرارة الهريسة والفلفل الحار.

عُدنا إلى المدينة القديمة حيث صادفنا عند مدخلها شاب مغربي ادعى أَنه من جهة بني ملال، أخبرنا أَنَّه هنا للغرض نفسه وأَنَّنا في نفس المجموعة، هذا الشاب أعطانا تفسيرا لم يكن يخطر على البال، حيث أكد بأَننا تأخرنا كثيرا في القدوم وأَنَّ المحظوظين هم من سافروا في الأَفواج الأولى مباشرة بعد قيام ما سُميَ بالثورة، مُبديا خوفه من فشل هذه المحاولات ومستغربا في نفس الوقت كيف لا نتابع الأَخبار.

- أَلا تعرفون أن رئيس وزراء إيطاليا «برلسكوني» هنا في تونس الآن لهذا الغرض وهذا ما يبعث على الخوف، إذ من المتوقع أن تُشدد السلطات التونسية الحراسة على الشواطئ وهذا يُقلص من حظوظ نجاح هذه الرحلة.

أتم نصحه لنا بأَن لا فائدة من إِجراء المكالمة الهاتفية في الصباح لأن المهربين يقضون ليلهم في شرب الخمر ولن يستيقظوا إلاَّ مع منتصف النهار.

هذا الشاب الذي عَمّق إِحساسنا بالتعب، أضاف إلى تعبنا

الجسدي تعبا آخر أكثر إيلاما، تعبا لا تستطيع نفوسنا المدمرة تحمله، نحن الذين كنا نعتقد أنَّ وصولنا إلى الدِّيار الإيطالية مسألة وقت ليس إلا، عشرات القوارب التي نجحت في الوصول إلى هناك انطلاقا من جُلّ سواحل تونس جرجيس، قليبة، صفاقس، كلُّها نجحت، لفترة وجيزة كان وصول هذه القوارب هو الخبر الرئيسي في جلّ القنوات العربية والعالمية وهذا ما شجعنا على القدوم.

- أيمكن أن يُعاكسنا الحظ؟

الطيبي صمَّ أذنيه قائلا:

- ماتسمعش ليه غير كيخربق.

الطيبي الذي يحلم أن يستقبله أخوه هناك، يحتاج لعبور البحر المتوسط فقط، بعدها مباشرة ستتحقق كلّ أحلامه التي تنتظره هناك، هذا ما أكده له أخوه:

- توصل لهنا ماتضربش حساب حتى لشي حاجة أخرى كلشي موجود.

كان يتصرَّف وفق هذا الأساس وهو شبه متيقن من نجاح الرحلة. لم يقتصر دور صديقنا الجديد في تقديم النصح، بل أكثر من ذلك بعد أن علم بمغامرتنا الليلية، اقترح أن نأخذ قسطا من الرَّاحة في غرفته بالفندق الذي يُقيم فيه، كانت ورقة من فئة خمسة دنانير كافية لموظف الاستقبال بأن يغض الطَّرف منبها إيانا ألَا تتجاوز استراحتنا الساعة الثانية بعد الزوال حيث تنتهي مناوبته في العمل، قَدّم لنا هذا الشاب من النصح والمساعدة ونحن لم نطلب منه ذلك، ما لم يُقدمه لنا صديقنا زيدان، مفارقات عجيبة.

أيقظنا الشاب «البني ملالي» حسب ادعائه من النوم حوالي الساعة الواحدة بعد الزوال، طالبا منا أن نصحبه إلى مقهى «مُعز»

في شارع خمسة «أوت» وسط مدينة صفاقس، حيث تقرر الاجتماع بالمهربين هناك، في الطريق شكرنا له صنيعه الذي اعتبرناه صنيع رجل شهم.

هذه المرة لم يطل انتظارنا لم نمكث طويلا حتى ظهر السيد بكلّ العلامات المتفق عليها، سترة زرقاء، سروال جينز أسود، يمتطي دراجة نارية «سكوتر» مظهره يُنم على أنَّه من أصحاب السوابق، بشكل سري واحترافي طلب ثلاثة أشخاص للتحدث معهم، هنا اكتشفنا بأننا لم نكن ستة أشخاص بل أكثر من عشرين شخصا، كنا خليطا من التونسيين والمغاربة، الغريب في الأمر أنّ بين الحشد الذي ينتظر إطلالة المهرب ثلاث فتيات.

- ألهذا الحد تدهورت الأوضاع في بُلداننا؟

حتى تُفكر النساء في الهجرة في ظروف لا يتحملها حتى الرجال.

- أهي شجاعة من فتياتنا؟ أم قد بلغ السيل الزبى؟

اعتقد أنَّه لم يعد هناك مُبرر للسكوت يجب أن نفعل شيئا، ما هو؟ لا أعرف. تقرر حملنا في سيارة مُخصصة لنقل البضائع من نوع «رونو ترافيك» مُغلقة تماما بحيث لا نعرف أي مسلك تسلكه.

وقفت بعد ساعة تقريبا من انطلاقها، أمام مكان مهجور عبارة عن اسطبل يعود للحقبة الاستعمارية دون سقف، طلب منا السيد صاحب السترة الزرقاء بكل وقاحة وهو يعتذر، أن نتحمل المكوث هنا لمدة قد تصل إلى عشرة أيام لأنه ينتظر فوجا من الأفارقة الذي سيصل في أي وقت، ليكتمل بذلك العدد المطلوب لانطلاق القارب، وأنه تعذر عليهم لدواعي أمنية تأمين السكن لهذا الفوج في المكان القديم الذي أصبح مكشوفا أمام الشرطة طالبا منا أن نكون مُطمئنين لأنَّه سيزودنا بالمؤونة كلَّ يوم.

كان رفض التونسيين قاطعا بل اتهموه بالاحتيال، فهذا المكان لا يصلح للعيش في هذا الطقس يوما واحدا، فكيف بعشرة أيام. لم يكن هذا هو الاتفاق.

- اسمعوا يا جماعة هذا تمنييك رَوَّحْ بينا خويا رَوَّحْ.

أمام إصرار الشباب التونسي وتعنتهم وصمتنا نحن المغاربة بالإجماع لم يكن من بُد أمام المُهَرب إلَّا أن أذعن لرغبتهم مؤكدا أنَّ الأمر لم ينته بعد سيتصل بنا في أجل لا يتعدى الأسبوع يكون كلُّ شيء وقتها جاهز، واعتذر مُؤكدا للشباب أنَّهم على حق وأن المكان القديم أكثر راحة بكثير من هذا المكان.

انفرد العربي بالمُهرب لعشر دقائق تقريبا لم نسمع فيها إلَّا صياح الأخير وهو يطمئن العربي.

- باهي خويا باهي باهي يكون خير باهي ما قلنا باهي.

في رحلة العودة كان الطيبي واجما عاود الاتصال بأخيه في إيطاليا الذي ظلَّ مرابطا ينتظر قدومه ليؤكد له أنَّ الأَمر قد تأجل لأسبوع آخر، أما الفتيات فقد تخلصن من حرجهن وبدأن يُدخن بطريقة تنم عن سخط كبير.

في رحلة العودة إلى مدينة صفاقس، مُحمَّلين في سيارة للبضائع، نفترش أرضيتها المتسخة، لم نكن سوى بضاعة في نظر المهربين، لا بل في نظر المجتمع والعالم كله، أرقام فقط حتى عندما يتكلمون وينقلون أخبارنا على الشاشات يستهلونها بذكر الأرقام قبل الأشخاص، لم تعُد مناظر الجثث الطافية فوق البحر المتوسط تُثير في الناس أدني شعور أَو إحساس بالتضامن بل لم تعد تثير حتى الاستنكار، قد نُشاهد كلَّ يوم ملايين الصور لجثث متناثرة هنا وهناك بسبب المجاعة، الفقر، الحروب، ونحن نتناول وجبة غداء..

دون أي إحساس بالآخر، نحن من يتشارك نفس المصير في نفس عربة النقل المغلقة تلك، لم نكن نملك أدنى إحساس ببعضنا بعضا. الكل منغمس في ذاته وذاته فقط.

في رحلة العذاب تلك تحاشيت النظر إلى زيدان، الذي بدأ يتصرف كأن شيئا لم يقع، بل حاول بكل وقاحة أَن يتحاور معنا، لم يفعل ذلك عندما كان الكل يعتقد أَنَّنا سنقصد الدِّيار الإيطالية ليلتها، تصرف وقتها كأنه لا يعرفنا، كانت كلمات الطيبي النَّابية كافية بأَن تضع له حدا في حين كان نصيبه مِنّي التجاهل المطلق.

الشيء المُثير للنِّقمة في زيدان، هو أنه تَغَنّى طِوال معرفتنا به التي تمت في منزل فارس بضاحية الزهراء. فارس الذي نزلت ضيفا عنده بتوصية من أصيل منطقتي الحسين والذي سبقنا بأسبوع في رحلة موفقة إلى إيطاليا، أما الطيبي فتربطه علاقة قرابة مع فارس أصيل منطقة هوارة بأكادير.

زيدان كان ضيفا عند جار فارس «الجباس» مغربي الجنسية من ضواحي سلا تربطه علاقة قرابة بزوجة العربي «حياة». طوال فترة معرفتنا لزيدان حيث كان يُفضل المكوث معنا في منزل فارس باعتباره عازبا مُتجنبا الإِحراج في بيت صديقه المتزوج.

طِوال هذه الفترة كان يتحدث عن الرجولة والبطولات التي أَظهرها في أَكثر من مناسبة، لكنه أمام موقف بسيط ظهرت حقيقته المُرّة إِنَّه لا يعدو أن يكون جُرذا صغيرا، حتى رغبته المبتذلة في الاعتذار تؤكد أَنَّه جرذ، فهو لا يملك معلوم وثمن تذكرة العودة إلى تونس هو والعربي، إذ دفعا للسمسار في تونس معلوم السفر مُقدما وكانا شبه متأكدين أَنَّهما سيكونان في الديار الإيطالية.

لم يَخِب ظني ما إِن نزلنا من الحافلة خمس نجوم وإذا بالعربي

يطلب منا بأسلوب أقرب إلى التسول، سُلفة بمبلغ ثلاثين دينارا لأنَّهُما لن يغادرا إلى تونس ويفضلان البقاء هنا لربما وصل الأفارقة غدا أو بعد غد، تحصنت بالصَّمت بينما انطلق لسان الطيبي بوابل من السب والشتم دالا على رفض قاطع لأية مساعدة مهما كانت من طرفه أو من طرفي وليقول مالم أستطع قوله.

- سير تح..ى يا الزامل والله لاعطاك فرنك لا هو لا أنا.

- يا الشماتة ماشي راجل.

الفصل 2

العربي البُوهالي

«النساء هنّ الدواهِي والدواهن
لا طيب للعيش بلا هنّ والبلا هنّ»
من أقوال العرب

شاب في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، قمحي اللون، قوي البنية، أصيل قرية ولاد موسى ضواحي مدينة سلا، متزوج وأب لطفلين، هو الأكبر في أسرته المتكونة من أخ وأُختين، إحداهما مُطلقة وهي سبب محِنته. مات أبوه الجندي في حرب الصحراء مُدافعا عن الوحدة الترابية للمغرب في حرب استنزاف بين ميلشيات «البوليساريو» المُدعمة من الجزائر واسبانيا ومجموعة من البلدان الأخرى. هذه الحرب التي دامت أكثر من عشر سنوات راح ضحيتها الكثير من الجنود المغاربة، الذين لم يُسلّط الضوء إلى حد الآن على تضحياتهم بأرواحهم في سبيل الوطن، التعويضات المادية الهزيلة أُعطيت بصمت كبير في حين ظل التكريم والتعويض المعنوي غائبا إلى حد الساعة.

- ألا يستحق هؤلاء رمزا تذكاريا يخلّد أسماءهم؟

تكتب فيه كل أسمائهم بحروف من حبر وليس من ذهب، حبر فقط ألا يستحقون أن تكون هناك شوارع بأسماء أبطال هذه المعارك؟ أم أننا نُسمي بعض شوارعنا بأسماء من استعمرونا ونستكثر ذلك على أبناء هذا الوطن الذين ضحوا من أجله بأرواحهم.

مات الجندي المجهول تاركا ابنه العربي ابن العشر سنوات، لم يكن أَمام الأم المسكينة، التي اقتنت بمبلغ التعويض منزلا صغيرا في نفس القرية المدينة، والتي اصطدمت بعد ذلك بالحقيقة المُرة التي يصطدم بها كل الجنود الذين أفنوا عمرهم في خدمة الوطن في المناطق الجنوبية للمملكة. اكتشفت أن العيش يكاد يكون مستحيلا بالمعاش التقاعدي الذي يُخصم منه نصف الراتب لأي عسكري كان يعمل في الصحراء المغربية، المشكلة أن هذا القانون لازال ساريا إلى يومنا هذا، إذ مباشرة بعد التقاعد يكتشف أي عسكري كان يعمل في المناطق الصحراوية المغربية أنه لا يستطيع العيش براتب يخصم نصفه، باعتبار النصف المخصُوم كان امتيازا ومنحة.

يُخصم من الجندي نصف راتبه الهزيل باعتباره امتيازا وهو الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة من عمره حارسا للوطن، وفي المقابل تُمنح الأراضي والمباني بالدرهم الرمزي ويُمنح البرلماني والسياسي راتبا تقاعديا مُجزيا وهو الذي قضى أكثر من أربع سنوات يتمتع بالامتيازات وخيرات البلاد، أمام معادلة كهذه.

- هل يحق لنا أن نتبجح بمغرب العدالة الاجتماعية؟

لم يكن من حلّ أَمام الأُم إلا أن تُقحم ابنها البكر في ميدان العمل، شأنها في ذلك شأن الكثيرات من النساء الأرامل والمطلقات والفقيرات في المغرب العميق، ليُحرم من حقِّه في التعليم، لتُغتصب

أَحلامه، يُضحي بها من أجل لقمة الخبز الحافي.

في الولجة بين الرباط وسلا بين العُدوتين، قضى العربي جزءا كبيرا من طفولته وشبابه، هناك لم يكن يعرف إلا المْعَلم وليس المُعلم في المدرسة الذي كان يُمثل بالنسبة إليه كلَّ شيء، كان هو المعلم والأب في نفس الوقت، لا يغضب منه العربي أبدا، حتى عندما يَروي قصص ضربه وتعنيفه له، لا يشعر بأي حرج في ذلك. في المنزل كانت الأم، لم يكن العربي يعرف شيئا لأنّه لم يكن مسموحا له أَن يعرف، اغتُصب حقه في المعرفة مُبكرا شأنه في ذلك شأن الكثير من أطفال مغربنا الجميل.

اكتسب العربي مع مرور الوقت والتكرار بلاهة مُميزة، بلاهة جعلته قادرا على التأقلم مع أيّ وضع مهما كان، جعلته لا يُحس ولا يشعر مثل الآخرين، ما نراه نحن إهانة أو إحراجا كان العربي يراه أمرا عاديا بل ربما رأى فيه من الإيجابي ما لم نره ونُدركه نحن. اكتسب بلاهة جعلته يسرد قصة حياته وحبه لزوجته وتفاصيل معاشرته لها أمام كل من يُقابله، يكفي أن تجلس مع العربي وتُشعل له سيجارة وتطلب له فنجان قهوة حتى يبدأ بسرد قصته دون كلل أو ملل كأنه بذلك يرغب في توثيقها وهي فعلا تستحق التوثيق لأنّها لا تمثل فقط قصة العربي « البوهالي الفخار» بل هي قصة ملايين الشباب في العالم وإن اختلفت التفاصيل.

مات أبي في حرب الصحراء وأنا ابن عشر سنين، انتزعتني أمي من صفوف المدرسة سنة ثالثة ابتدائي، وأَودعتني عند المْعلم مبارك في الولجة حيث كان عليّ تعلم صناعة الفخار، كانت أجرتي الأسبوعية أول الأَمر خمسون درهما، لكن بفضل ذكائي ومثابرتي في العمل وصبري، إِذ لم أكن أغادر الورشة إِلَّا بأمر من عمي مبارك،

حيث أصبح بإمكاني العمل في كل مراحل إنتاج الأواني الفخارية من تخليط الطين إلى نقشه.. أصبحت أجرتي الأسبوعية تتضاعف باستمرار.

كنت أُعطيها بالكامل لأمي وهي تُعطيني مصروفي الأسبوعي، لم تكن عندي مُتطلبات كثيرة، «فعم مبارك» أصبح مع مرور الوقت يعتبرني أحد أبنائِه، إذ يحرص على اقتناء كسوتي كلّ عيد..، كان قاسيا معي صحيح كم مرة امتدت اليَ يده لتصفعني وتنال منّي، لكن هذا لا ينفي رحابة صدره و رِقة قلبه، لم أكن أغضب منه أبدا اعتبره بمثابة أبي، إذ لم يتسنَّ لي العيش مع أبي الذي أتذكر فقط كيف كان يأتي إلى المنزل من الصحراء مرة كلّ ستة أشهر، في عطلة تدوم خمسا وعشرين يوما، كانت العطلة عبارة عن عيد يشتري لنا فيها كل ما نحبه، مع ذلك كان لا يهتم بنا كثيرا، دائم الالتصاق بأمي، بل كانت غرفتها طوال مدة العطلة شبه مسدودة في وجوهنا بشكل يصل أحيانا إلى الصرامة.

يُغادر أبي كأنه لم يمر من هناك، لم يسمعنا كما يجب، لم يحضنّا كما يجب، عندما كبرت التمست له العذر فهو كان مشغولا بالتّزود بأحضان أمي.

لم أكن أَعرف في الحياة إلا ما ترسمه لي أمي وعم مبارك، يوم السبت أُعطي لأمي أجرتي الأسبوعية بالكامل، أتناول وجبة الغذاء، أخلد للنوم، استيقظ تمام السادسة مساءً، تُعطيني أُمي مصروفي الأسبوعي الذي لم يتجاوز لسنوات عدة ثلاثون درهما، أَصرفها في شرب القهوة والدخان رفقة زملائي في العمل.

استمرت الحياة على هذه الوتيرة مُنغمسا في عالمي راضيا به، مع مرور السنين أَضفت إلى متعتي الأسبوعية مرافقة زميلي إلى دور

البِغاء، مما استوجب عليَّ البحث عن موارد مالية جديدة لتغطية تكاليف المتعة الجديدة.

أمي كانت حريصة كل الحرص على أن تمُدني بنفس المصروف كأنني طفل صغير لم تراعِ أبدا احتياجاتي كشاب ورغم ذلك لم أكن أجرؤ على أن أَطلب منها المزيد. في العمل عرفت كيف أُثير وأكسب عطف الزبائن، حيث غدوت أحصل على مقابل لأي خدمة خارج الورشة مهما كانت بسيطة، حمل الأكياس، جلب القهوة، الغذاء، غسل السيارات..، كنت أَختار زبائني بعناية فائقة بنظرة أعرف أَنني سأحصل من هذا الحريف على مبلغ معين، يكفي أَن أُقدم خدمة بسيطة مصحوبة بموَّالي المعتاد.

- أَنا يتيم والظروف صعيبة، لتُفتح الجيوب.

لم يقتصر الأَمر على عطف الزبائِن الذي أمّن كل مُتعي الأسبوعية، بل أكثر من ذلك أصبحت أُجرتي الأسبوعية خمسمائة درهم، لكن عم مبارك كان يحرص أن يُعلم أمي بكلِّ زيادة في أجرتي الأسبوعية وكانت هي الأخرى حريصة على الاستحواذ عليها بشكل كامل، أخي الأصغر سنّا مني لم يكن يعمل كثيرا، يشتغل شهرا ليركن إلى البطالة ثلاثة أشهر أخرى، يحلم بالسفر إلى الخارج، كيف؟ لا أعرف لم يُوفق هو الآخر في دراسته ومع ذلك تتعامل معه أمي كمُفكر للعائلة، أُختاي تزوجتا، الأولى من جندي يسكن في حينا والثانية لم يدم زواجها أكثر من عام وطُلقت لأسباب لا أَعرفها إلى اليوم، لم أكن أُزعج أحدا ولا أَتدخل في عالم أحد، كنت راضيا تماما بما أنا فيه.

كان يمكن للحياة أن تستمر على هذا المنوال ولا يلتفت إِليَّ أحد لولا ذلك المرض، عدت يوم السبت من دار البِغاء لاكتشف

أن قضيبي يتقيح. أصابني الرعب. لا أعرف، ماذا أفعل؟ لم يعد بحوزتي نقود كافية للذهاب إلى الطَّبيب، والأكثر من ذلك بدأت أعراض أُخرى مثل انتفاخ القضيب والشعور بألم حاد عند التَّبول تنتابني، استشرت زميلي في العمل اقترح عليَّ زيارة الطبيب في أسرع وقت ممكن كي لا يتطور المرض إلى ما لا تحمد عقباه.

- إنَّه مرض السيلان البرد ديال «القـ..ب» سير للطبيب دابة.

حاولت أن اقترض لكنني لم أُوفق، والأكثر من ذلك كيف يمكن أَن أبرر غيابي من العمل؟ استحييت من أمي كثيرا لم يكن من حل أمامي سوى مفاتحة عم مبارك بالأمر، بعد أن رفض زميلي رفضا قاطعا أَن يُفاتحه نيابة عني. دخلت مكتبه قبلت يده من الجهتين كما جرت العادة وكما تجري في بلادي.

- با مبارك باغي نهدر معاك.

- اشباغي عوتاني في هاد الصباح؟

- أنا مريض باغيك تهزني للطبيب.

- باش مريض أنا نشوف فيك كي البغل لاباس عليك وزيدون علاش نهزك أنا سير بوحدك.

- ماعنديش فلوس.

- قول لأُمك ولا كتسطى علي مع هاد الصباح.

- نحشم با مبارك.

- علاش؟ المرض فيه حشوم؟

- مريض بالمرض ديال العيالات حاشاك.

للحظة ظل المعلم مبارك فاغرا فاه، غير مصدق ما يسمع، بعد

ذلك قام من مكتبه بدأ يتفحصني قبل أَن ينهال عليَّ صفعا وشتما.

- ولد الحرام ماتحشمش وجاي تقولها بوجهك أحمر.

- انت العربي البوهالي الحمق يطلع منك هاد شي كتمشي للقـ...اب.

- ولد الحرام والله تنوريك اجي لهنا عطيني وجهك تفو تفو..

لم تعد صفعات با مبارك بنفس القوة التي عَهدتها من قبل، إذ يكفي أن أُغطي وجهي ليستسلم من الصفعة الرابعة خائر القوى وهو يلهث كأنه هو من تلقى الضرب وليس أنا، أما لسانه فمازال محتفظا بكل قوته وسلاطته.

بعد أن هدأ وهو يُحوقل ويُبسمل، شرب كأسا من الماء وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم. اصطحبني بنفسه إلى الطبيب، لم يتوقف عن السب والشتم حتى في حجرة الطبيب، شتم كلّ شباب هذا الجيل ناعتا إياهم بالتَّخنث وأنهم لا يملكون حس الرجولة أبدا متحسرا على أيام زمان حيث كانت الرجولة الحقيقية حسب رأيه والتي خلفت هذا التَّخنث، حتى الطبيب لم يتمالك نفسه من الضحك.

لم يكتف با مبارك باصطحابي إلى الطبيب فقط بل حرص على أن يُوصلني بسيارته إلى المنزل بعد أن اشترى لي الأدوية اللازمة من الصيدلية، هناك انفرد بأمي لعشر دقائق وغادر.

أرهفت السمع لاستطلع جلية الأمر وعما يدور الحديث لكنني لم التقط إلَّا كلام أمي في الأخير.

- واخة سي مبارك ما يكون غير خاطرك لي درتيه مبروك.

- الله يجازيك بيخير نعرف راه ولدك يرحم والديك سي مبارك.

اقتحمت عليَّ أمي الغرفة، كنت واجما، العرق يتصبب على جبيني من شدة الخجل، لم تقل شيئا. بدأت تتأملني كأنَّها تراني لأول مرة أو كأنَّها تُعيد اكتشافي من جديد، ربما لم يخطر في بالها أبدا أنَّني كبُرت وأنَّ هناك نارا تشتعل بداخلي، لم تكن تنظر إلَّا إلى الرَّاتب الأسبوعي فقط مادام الراتب الأسبوعي يكبر فهذا كان كافيا أمَّا صاحبه فلا يهم.

– العربي هدا لي كنقولو عليه مول العقل يطلع منو هاد شي تفو عليك.

في المساء على العشاء. الكل كان ينظر إليَّ بشكل مختلف، كأن ما فعلته لا يجب أن يُفعل كأنني أتيت جُرما شنيعا، أنا لم أزعج أحدا كلُّ ما في الأمر أني لو كنت مُحتفظا بنقودي لما سمع أحد بالخبر، لكن على ما أظن ينظرون إلي كالبغل لا أصلح إلَّا للعمل، البغل يقومون بخصيه لينتج أكثر ربما هم يُفكرون الآن في ذلك وإلَّا بماذا أُفسر هذه النظرات المُنمَّة على الاستهجان والاحتقار، سيطرت عليَّ هذه الصورة وبدأت أتخيل نفسي مُمدَّدا و«الطهار» بدل أن يقوم بختاني يُخصيني جفلت مذعورا وأنا أتحسس خصيتي، هل هما في مكانهما؟ أم أنا بالفعل مخصي.

لم أصدق عندما انفردت بي أمي بعد وجبة العشاء لتُخبرني، بأنَّ المعلم مبارك قد قرَّر تزويجي، وقد اختار لي العروس، وأنَّه ابتداء من الغد سيتكفل بإضافة غرفة لي فوق سطح منزلنا على نفقته الخاصة وأنَّني في عطلة لمدة أسبوع لمساعدة البناء الذي سيُباشر العمل ابتداءً من الغد.

تم كلُّ شيء بسرعة فائقة، اكتمل بناء الغرفة والمطبخ الصغير بالإضافة إلى بيت راحة عادي في ظرف قياسي، والأكثر من ذلك قام

كل مُعلّمي صناعة الفخار في الولجة بتأمين كل مستلزمات العرس من أثاث، خروف..، حتى معلوم عدل الإشهاد دفعه با مبارك.

تضامن كهذا لا يمكن أن تجده إلَّا في الدول العربية والإسلامية بشكل كبير، لكن للأسف لا نملك الرغبة في استخدام كاميرات لنُصوِّر بها هذا الكم الهائل من الأَحاسيس الجياشة والتضامن في أرقي صوره الإنسانية، لنعرضه على وسائل الاعلام ونظهر بصورة الأُمة الحنون.

الآخرون يقتلون آلاف النَّاس يغتصبون خيراتهم ويبعثون بنسائهم يُصورونهن وهن يُرضعن، ويُقبلن أطفال الشعوب المسروقة، لتصبح تلك الصُّور على كلِّ الشاشات العالمية وعلى أَغلفة المجلات. شعب حنون، يصورون الطائرات وهي ترمي بأكياس الدقيق على المناطق المنكوبة لكنهم لا يصورون الطائرات الحربية وهي تقصف تلك المناطق لتجعلها منكوبة.

لم أُصدق أصبحت لي امرأة لي وحدي آوي اليها متى أشاء، كأنني في حلم ولا أُريد أن استيقظ منه، كان هذا أقصى ما أتمنى وأحلم به، زُفت إلَيَ حياة لتمنحني حياة أخرى، بل لأَكتشف في عيناها وابتسامتها معنى الحياة لأكتشف في حضنها الدافئ أَنني إنسان، أنني أعيش، لأوَّل مرة أشعر وأُحسُّ أنَّ هناك من ينتظرني بلهفة ويُقبلني، عشت دون قُبَل أعوامي السابقة، من يسأل عن أحوالي، من يُخفف عني مشقة العمل بقبلات حارة، مَنحني وجود حياة في حياتي رغبة أكثر وإصرارا أكثر على الحياة، أَيَّة مخلوقات هنَّ هؤلاء النساء؟ يستطعن أن يُحولن حياتك بابتسامة، بقبلة، باحتكاك جسدي إلى نعيم، إلى جنة، ويستطعن أيضا بوسائل أخرى، أَن يحولنها إلى جحيم لا يُطاق، لم أَعد استغرب الحروب التي اشتعلت

من أَجل امرأة، في لحظة ما، قد يُمثل هذا المخلوق الجميل كلَّ شيء، تكون مُستعدا لكل التضحيات لتظفر بلحظة قرب ووصال.

وقتها اعتقدت أَنني أسعد مخلوق على وجه الأرض، لم أكن لأَطلب أكثر مما أنا فيه، غدوت أُفكر في العمل وحياة، مباشرة بعد العمل أعود إِلى المنزل، كعادتي أعرج بسرعة على أُمي مُقبلا يديها طالبا بركاتها ودُعاءها. عندما أَدخل جنتي لا أَخرج منها أبدا، إلا في الصباح، إِلى العمل، كانت هناك حياة بمعنى الكلمة داخل تلك الغرفة. كانت تملؤها بأنفاسها الزكية، بعطرها الطبيعي، بضحكاتها، برَقصها البريء الجميل، لم أفكر في السفر لقضاء شهر العسل على شاطئ من الشواطئ، لم أفكر في التمتع بجمال الطبيعة، كان جمال حياة وعيناها كافيا لأسافر عبرهما إلى كل القارات، كان قربها مني وأنا أَشعر بأنفاسها تتمازج مع أَنفاسي أقصى ما أطلبه وأريد الاحتفاظ به.

بدأت المشاكل من الأسبوع الموالي لعودتي للعمل، عُدت من العمل يوم السبت لأجد أمي تنتظرني على أحرٍّ من الجمر، أَخذتني من كتفي كأنني طفل صغير.

- أَش درنا؟

- فاش؟ أُمي لاباس.

- داير راسك مافخبارك والو.

- لا والله ما فخباري أمي حتى حاجة. أَش وقع؟

- واش غتسطيني أَهاد البوهالي ولا اشنو مابقيتيش كتعطيني والو قلنا السيمانة الأولى عريس ودابة.

أَحسستُ بأَن الأرض تدور من حولي، لم أكن أتصور أن تطلب

مني أمي هذا الطلب اعتقدت أَنني تحررت أصبحت لي أُسرة، أمي هي من قال ذلك لكنها لم تكن تعني ربما ما تقول، أمّا أَن تُعيد طلبها وأَن تُسمعني هذه الكلمة بالذات فهذا مالم أتوقعه بتاتا.

بُوهالي..

كلمة كانت تستفزني إِلى أَبعد الحدود إِذ كلما سمعتها تغاضيت وتجاهلت الأمر كأنني لم أسمعه، لكن المصيبة أن هذه الكلمة التي يسبب لي سماعها جُرحا عميقا، كنت أسمعها من أقرب الناس إِلي. أُمي وأخواتي وأحيانا با مبارك، لكنني الآن بعد أَن ارتبطت بحياة كلُّ ما أَخافه أن يُعيّرني أحد بهذا الاسم على مسمع منها.

كان مجرد التفكير في ذلك يجعل جبهتي تتصبب عرقا، لم أتوقع البتَّة أنّه لازالت لأُمي مطامع في راتبي الأسبوعي فهو بالكاد يكفي، وأكثر من ذلك أليس من حق حياة أَن أُدللها؟ هي عروس جديدة لم تطلب شهر عسل، ألا تستحق أن أُلبي طلباتها التّافهة والطفولية؟ لم أجد جوابا أُجيب به أُمي اكتفيت بالقول:

- أُمي راك عارفة دابة كنطيبو الفوق والمصاريف وحياة وأنت في العرس قلتي يا ولدي بركة عليك مبقيتش ناخذ منك والو.

- أَجيو كولو معانا علاش كطيبو الفوق؟

- حياة بغات.

- اه من دابة ولات كتحكم فيك ظاهر لي أنت ماشي راجل.

- أَمي ما كتحكم والو أنا باغي هكا عاوتاني لاقي راحتي.

- شوف شوف العربي ولا باغي هكا قولي شحال غتعطي وبركة من الصداع الخاوي.

بعد مفاوضات عسيرة واستعطاف مصحوب بتقبيل الأيادي

والرأس، قَبلت بمبلغ مائتي درهم كل أسبوع معتبرة أَنَّ قبولها بهذا المبلغ الزهيد مِنَّة منها علي، مما يعني أن أتدبر أمري في الباقي. ثلاثمائة درهم المتبقية، الغريب في الأَمر ما قبلته أُمي لم يقبله أخي وأختي المطلقة، حيث أصبحت هواية أُختي الجديدة التحرش بحياة زوجتي ومضايقتها وأحيانا الاستهزاء منها، أعود من العمل أجدها مُنهكة خائرة القُوى. وعندما أسالها.

- أُختك طلعت لي الصابون ديال الدار الكل قالت لي غسليه بالفراكة.

لم أَمتلك الجرأة لفعل أيَّ شيء، لم أَقوَ حتى على مناقشة الأَمر مع أُمي وأختي، كل ما استطعت فعله هو مواساة حياة محاولا أن أُخفف عنها بكلمات جوفاء لا تحمل أي معنى، كانت حياة في نظر عائلتي بغلة جديدة في المنزل، ويجب أن تُعامل على هذا الأساس، لم ترتكب أي جُرم كل يوم تُستفز لتُجبَر على رد الفعل، بلغت الوقاحة بأختي أن نادت زوجتي يوم الأحد وأنا موجود في المنزل، طالبة منها أن تنزل لتنظف المنزل نيابة عنها هي المرتبطة بموعد هام ونيابة عن أُمي المريضة حسب زعمها. كانت تلك أول مرة أُجيب فيها:

- حياة حتى هي مريضة ماتقدرش تهبط.
- مالها اش عندها؟
- حاملة تتوحم.

نزل خبر حمل زوجتي على أمي وأختي كالصاعقة، في المقابل منح لحياة مبررا لتقول: لا. لم تعد تقوم بأي خدمة لصالحها، في حين كان عليّ أنا أن أتحمل المتطلبات الجديدة للوضع الجديد، حياة تتوحم على أشياء غريبة، أمي أبدت تعصبا مبالغا فيه كلما طالبتها بأَن تُعفيني من الضريبة الأسبوعية. لم تكتفِ بالرفض، كل مرة

أجدها تنتظرني وفاتورة الكهرباء والماء في يديها طالبة مني أن أُسدد، أنا لا أملك من متاع الدنيا ما يكفي لمتطلبات كهذه، ثلاثمائة درهم المتبقية أُعطيها لحياة التي بدورها كثُرت متطلباتها فهي تتوحم على ما لا يخطر على البال، أحيانا تُفاجئني بطلبات غريبة بداعي الوحم تكاد تكون مستحيلة، تصور أن أبحث عن العنب في فصل الشتاء.

في فترة الوحم تلك تفننت في تحطيم كل دفاعتي. لم أعد قادرا على أن أرفض لها طلب، كل مرة أفعل فيها ذلك أعود إلى المنزل أجدها في أبهى حُلة، قد ارتدت من الملابس القليلة الموجودة عندها، أحسنها والمثير منها، بحيث تكون تضاريس جسدها كلها بارزة، ومع ذلك تأبى أن تُمكنني من نفسها، أحيانا تتمادى أكثر لا ترتدي تبانا في السهرة ونحن نشاهد التلفاز تترك ساقيها عن عمد منفرجتان قليلا ليتنقل بصري دون شعور مني وإرادة في البداية بين التلفاز وبينهما، ليستقر في الأخير هناك، عندما تتأكد أنني ابتلعت الطعم اللذيذ ولم أعد أُشاهد قط التلفاز تقوم بتغيير وضع جلستها.

- حياة عافاك خليني نشوف.
- اش باش تشوف يا راجل التلفزة قدامك.
- لا ماشي التلفزة، باغي نشوف..

تُغير جلستها مرة أخرى، بوضع آخر يكون أكثر إثارة ساق فوق الأخرى. هذه الوضعية التي تزيد من إثارة جنوني بحيث تتيح لي رؤية نصفه فقط من الأسفل وهو يبتسم في خُبث طالبا مني أن أغزوه. حليقا، لامعا، مُعطرا، طريا هو.

- شوف ومن غير ما تمس واخة حبيبة ديالي هههههه
- إلا بغيتي تمس ماشي مشكل أما راك عارف..

اقترب زاحفا على أربعة ولعاب فمي يسيل، تنهار دفاعاتي أعِدها بكل ما تطلب، وأنا أُقسم كل الإيمانات الغليظة أن في الغد سيكون كل ما طلبته بين يديها، كيف؟ لا أعرف. غدا سأتصرف سأتسول أمام المركز التجاري «مرجان» لأشتري لحبيبتي أغراضها التافهة، لا يمكن أن أقاوم سلاحا نوويا كهذا السلاح الغير متكافئ أقبل عليها بكل نهم. الحرب أو الصراع بين المرأة والرجل يحسم فيه المنتصر على السرير والباقي كُله هُراء.

- بشوية واخة واخة خلي نحيد حوايجي طفي الضوء آ العربي نحشم والله نحشم.

- لا دابة دابة حبيبة ديالي كنموت عليك كنتسطى، لي تقوليه لِيَ نديرو أنت حياتي أنت عمري حلي حلي..

عندما تنتهي اللذة وينتهي الحب، عندما تخرج النار المشتعلة داخلي أقذف بها لتستقر في أحشائها. حياة تتذكر كل ما وعدتها به، وتُصر على أن أفي بوعدي، حيث أكون مُجبرا في الغد في الورشة وأمام المركز التجاري أن أعمل حمالا، خادما، أغسل السيارات.. لأوفر بعض ما يُطلب مني توفيره.

ورغم ذلك فالكل غير راض ومائتي درهم الأخرى أُعطيها لأمي والتي تُطالب بالمزيد هي الأخرى، دوما بالمزيد، بينما أصبحت عاجزا عن تلبية احتياجاتي اليومية من نقل ودخان وقهوة.

جاء المخاض لأتفاجأ في المستشفى بأشياء لا تخطر على البال. لم أفكر فيها من قبل بتاتا.

سألني موظف الاستقبال في المستشفى:

- عندك الكارني ولا لا؟

- ديالاش اسيدي؟

- التغطية الاجتماعية CNSS

- لا ماعنديش.

- عندك شهادة الفقر؟

- ماعنديش.

- غتخلص.

رُزقت بتوأم لست أدري وقتها أفرح أم أبكي، لا أملك شيئا اليد قصيرة والعين بصيرة، تكفل كالعادة با مبارك بمصاريف المستشفى، هذه المرة لم أعتبرها مِنّة وفضلا منه أبدا، اعتبرته يُسدد جزءا بسيطا من دين على ذمته، وتأكدت أنني لا أعدو أن أكون بغلا في مجتمع لا يعترف بحقوق البغال أَمثالي، تغاضى رئيسي في العمل عن حقوقي وتغاضت الدولة عن متابعة جلّ أرباب العمل أمثاله كلما تعلق الأَمر بحقوق العمال والضرائب، لست وحيدا، ملايين الشباب أمثالي يعيشون هذا الإقصاء المتعمد، يعيشونه الآن، اليوم، وربما غدا.

- متى يعرفون أننا بشر ونعيش هنا وأننا نستحق أن نُعامل على هذا الأساس؟

زاد الثقل على كاهلي أُضيفت مصاريف أخرى، في قمة النشوة لم تكن أَبدا في الحسبان، الحفاظات، الحليب الصيدلي..، أصبح ذكرهما فقط يُسبب لي الدوران، حليب ثدي حياة لا يكفي للتوأم مما يعني أني سأُعلن إفلاسي عجزي، أنا على شفا حفرة من الهاوية والجنون، حياة رفضت أن تأخذ المبلغ ذلك الأسبوع قالت لي بالحرف:

- خليه عندك وشري لي الحليب والكوش ديال الدراري وقضية الأسبوع.

الحفاظات والحليب أتت على المبلغ لم يتبق منه إلَّا مائة درهم، أدركت ما كانت تعيشه حياة وما كانت تُعانيه، لم أستطع أن أَلومها وأحقد عليها، أبواب أُمي موصدة بالحديد. رغم ذلك قررت أن أُعلن الحرب، كفى. الآن أنا أب أَحتاج لكلِّ مليم لأنفقه على أُسرتي، لحظتئذ تولدت لديَّ قناعة بأنه لم يكن من حق أمثالي أن تكون لهم أحلام وليس من حقهم التفكير حتى في إنشاء أسرة وتكوينها، استغرب من نشرة الأخبار كيف يتكلمون على المغاربة ورفاهتهم مقارنة بالشعوب الآخرى كأنني لا أسكن هنا:

- بلادنا أصبحت مَقصد الباحثين عن العمل، بلادنا لم تَعُد محطة عبور بل أصبحت مكانا جيدا للاستقرار، التقارير تكون مصحوبة بصور الأفارقة وهم ينتظرون أمام المكاتب للحصول على تراخيص إقامة. في حين تعمل شريحة كبيرة من شبابنا دون تغطية اجتماعية، يكفي بأن تُلقي نظرة على القانون المنظم للعمل والأجر الأدنى للعمال لتعرف أنَّه يتوجب عليك أن تعمل كالبغل لتُغطي جزءا من احتياجاتك فقط.

هذا الراتب الذي تُقره الحكومة وتتبجح به لا يكفي ليُعيل شخصا في هذا العصر فكيف بأسرة، عن أي مغرب يتحدثون؟ ربما أنا لا أسكن هنا، اكتشفت أنني جنيت على نفسي وعلى حياة بل على الحياة بصفة عامة التي لا يحق لنا أن نعيشها كبشر، كان يجب عليهم أن يُقوموا بخصينا، نعم هذا هو الحل الذي يجعل منا عمالا من الدرجة الأولى كما يريدون لو قاموا بذلك لما أَنجبت يحي وسعيدا.

- أَية حياة أُقدمها لهما؟
- أَية سعادة تنتظرهما؟

من أول يوم لهما في هذه الحياة بكيا من الجوع والوسخ، كانت

حياة ترفض بِداعي التقشُّف أَن تستبدل الحفاظات بمجرد أن يتغوط فيها أحد التوائم، لا يجد الصغير أمامه إلا البكاء، يبكي لنعرف أنه جائع، نعرف. لكنَّنا نقتصد، نتقشف ونتقاسم الجوع، لا تعرف بطوننا الشبع، يبكيان من أول يوم، يطالبان فيه بغذاء كافٍ ونظافة، وأنا أبكي وأمثالي في صمت منذ أمد بعيد منذ عصور، بكاؤُنا امتداد لبكاء أجيال وأَجيال بكت من القهر والجوع والظُّلم وها أنا ذا أُورِّث هذا البكاء لأبنائي.

- هل سيأتي يوما من يمسح هذه الدموع بصدق ودون أن تُصوره الكاميرات؟
- هل سأعيش لأرى هذا اليوم؟

أم أنني سأُدفن بكبْتِي هُنا تحت هذه الأرض كما دُفن أبي دون أن نعرف له قبرا. سعيد ويحيا هكذا أسميتُهما أريد لهما الحياة والسعادة، لكنني ربما أقذف بهما إلى الجحيم، لا أستطيع حتى إطعامهما وتربيتهما كما يجب عاجز أنا عن توفير الحليب.. كيف أستطيع تعليمهما وتربيتهما إذن؟ ليس لأنني لا أريد. لقد حلُمت دوما بأن أُقدم لأبنائي مالم يُقدَّم لي، لكنني لا أستطيع، أقف عاجزا مكتوف الأيدي، صُودرت إرادتي صُودرت أحلامي.

أنا مجرم يجب أن أُحاكم وأُشنق. لكن قبل ذلك سأطلب طلبا وحيدا سأطلب: أَن يقوموا بِخصي كل العمال الذين يتمتعون بالأجر الأدنى، عفوا الذين يتعذَّبون بالأجر الأدنى، كي لا يقترفوا نفس جُرمي سأطلب أن يقوموا بخصيهم، سأطلب في رسالة مطولة أَن يستبدلوا طقس الختان بالخصي، كي لا يقذفوا بأبناء أبرياء كما أَفعل أنا الآن إِلى هذا الجحيم الذي لا يُؤمن بالإنسان هذا العالم الذي يُؤمن فقط بالآلة وإذا حدث واعتبرك كائنا موجودا فإنه يتصورك

في صورة بغل ليس إلَّا.

لم أجد غير با مبارك. انتظرت خروج عمال الورشة ودخلت مكتبه قبلت يديه كالعادة هذه المرة لم أستطع الكلام كل ما استطعت فعله هو البكاء، بكيت كطفل صغير، بكيت عجزي، بكيت فقري، بكيت.،، كل ما فعلته أنَّني بكيت، كانت الدموع كافية ليفهم با مبارك.

نفس الدموع المصحوبة بتقبيل الرأس والجبين والقدمين لم تكن كافية لتفهم أمي وتُحس، لكن با مبارك فهم، ألأنّه رجل؟ ولا يفهم دموع الرجال إلَّا الرجال، با مبارك الذي يحرص دائما أن يظهر في صورة القاسي لكن هذه القساوة تُخفي داخلها قلبا مليئا بالحب مليئا بالحنان، في حين كانت أمي حريصة على أن تظهر بمظهر الحنونة لكنها تُخفي داخلها قلبا قاسيا قلبا لا يعرف الحب، هذا ما اعتقدته حينها، يتحدثون عن عطاء الأم، عن حب الأم، عن تضحية الأم.

أيها الناس ليست كل الأمهات حنونات ولا تُوجد الجنة تحت أقدام كل الأمهات، توجد أمهات عاهرات، توجد أمهات قلوبهن أقسى من الحجر، توجد وتوجد.. وتوجد النار تحت أقدام الكثير من الأمهات أيضا.. ومع ذلك لا يمكن أن أنكر وجود أمهات حنونات جميلات أرق من النسيم. منحوس أنا أينما حللت وارتحلت، يتيم الأب والأم لا، بل يتيم البلد، يتيم العالم.

- مالك أَولدي نعل الشيطان راك راجل بركة من البكا.

- عييت با مبارك مبقيتش قاد الحمل ثقل علي.

- علاش أمك ما كتعونكش؟

- لا با مبارك أمي مازال كتخذ مني.

اتسعت عيناه للحظة بدا كأنه مصعوق لا يصدق ما يسمع، لكنه كان يعرف بل كان متأكدا أن تلك هي الحقيقة.

- شحال كتعطيها؟

- مائتي درهم كل سيمنة.

- اه اه لا حول ولا قوة إلا بالله. والباقي؟

- كنعطيه لحياة.

- علاش أَولدي هكا؟ يا أمك يا حياة أَنت راك راجل دابة ماشي دري صغير.

- ماعلمني حتى واحد با مبارك كيفاش نكون راجل تعلمت نخدم ونعطي كي البغل.

- حاشاك ولدي أَنت أعز الناس سمح لينا كلنا ظلمناك سمح لي أنا ابعدا.

شجعني هذا الاعتراف من با مبارك، لا لم يشجعني فقط، داوى جراحي أول مرة يُقر فيها مخلوق أنني مُضطهد، ويطلب الاعتذار، كان إحساس آخر عرفه قلبي، شجعني هذا على الكلام على قول ما عندي، ما يجول في خاطري ولم أكن أحسن التَّعبير عنه، لكن عندما يشتد الضغط تخرج الكلمات وحدها مصحوبة بالدموع والآهات.

- ياك با مبارك أَنا بشر ماشي بغل من حقي نعيش؟

- لا ولدي أَنت راجل مزيان بحالك قلال ف هاد العالم لا ما بقاوش.

- قولي با مبارك أَنا عمري ما تعديت على حد. علاش هكا؟

- ربي يهدي ولدي ربي يهدي هيا باش نوصلك أَنا للدار ونهدر مع أمك.

في سيارة با مبارك تمنيت لو كان لي أب، تمنيت لو كان با مبارك أبي، يومها أشعرني أنني بمثابة ابنه أحسست بذلك، تفاعل معي أحس بآلامي وهذا وحده كان كافيا وقتها، رغم أنه لم يكتفِ بذلك فقط.

– اسمع العربي أَنا غنزيدك مائتي درهم في السيمنة مابغيش الجن الأزرق يسمع بيهم لا الخدامة لا ولادي لا مرتك حتى واحد. تسمع فيَّ ولدي؟

من ذلك اليوم حتى مماته حرص با مبارك أن يُناديني بولدي لم يعد قط يُهينني أو يُسمعني كلاما جارحا. دائما. «يا ولدي» كم أثلج ذلك صدري، في المنزل انفرد بأمي طويلا تحدث معها لكن بدل أن تفهم، أن تُحس بمأساتي عَادتْني، تبرأَت مني، لم تغفر لي قولي ل با مبارك إنها تأخذ من راتبي بعد أن تزوجت، اعتبرت ذلك إفشاء لأسرار المنزل.

– ماشي كتشكي كي الدري الصغير لمبارك ماشي راجل دابة ينفعك متبقاش تهدر معايا لا أَنا أُمك ولا أَنت ولدي.

استمر السلام الذي صنعه با مبارك ستة أشهر فقط، اعتقدت بأن أمي رغم الجفاء الظاهر، اقتنعت بكلامه. حياة كادت أن تطير فرحا عندما أَعلمتها بالزيادة وتنازل أُمي عن الضريبة الأُسبوعية، قرَّرت أن تدَّخر كل هذه الزيادات وتعتبرها كأنها غير موجودة، وحسنا فعلت.

– من اليوم سأستعمل الحفاظات في الليل فقط وكذلك الحليب لا داعي لشراء حليب الصيدلية سأستبدله بحليب البقرة.

عادت الحياة إِلى غرفتي عادت البسمة، عاد التحرش اللذيذ. في الأسابيع الأولى كانت أمي تتحاشى رؤيتي لكنني كنت أُصر كل

يوم على أن أعرج عليها مُقبلا يدها ورأسها، كلَّ مرة أفعل فيها ذلك لا تتكلم تكتفي بزم شفتيها فقط، لا يهم مادام هناك سلام هذا يكفي إلى حد الآن لم أكن أتخيل أنه السكون الذي يسبق العاصفة.

لم يكن من عادة أمي أن تقتحم علينا غرفتنا ولم تكن حريصة حتى على زيارتنا فيها، كانت عندما تريدنا في أَمر أو لتناول وجبة «الكسكسو» تطلب منا المجيء إليها، حتى التوائم عندما بدا قلبها يلين، تطلب من حياة أن تجلبهما إليها إلى منزلها. لكن ليلتها فعلت، كنت مستلقيا، مُنتشي حياة ترقص على أُغنية «الستاتي» وأنا أُصفق. فجأة دون استئذان دخلت أمي.

– كنت نعرفك شيخة بنت الزنقة أَما العيب ماشي فيك ف هاد الشماتة لي قْبل بيك. مْخليني أَنا وخوتك بالجوع، والضوء ما خالصش، وأَنت والشيخة ديالك كتشطحوا. أَنا جيت نعلمكم خرجوا عليَّ من داري.

كان واضحا أن أمي قد تلقت ذاك اليوم شُحنة كبيرة من التحريض، تكفلت به أُختي رفقة صويحبات السوء، لتقتحم علينا الغرفة بهذا الشكل، تظاهرت أن الأمر ليس كذلك وحاولت جاهدا أن أمتص غضبها.

– أمي الله يهديك، مادرنا والو، سمحيلنا على الصداع إلا صدعناك أما مغنعودوهاش.

– أنت تسكت. الهدرة ماشي معاك مع هاد الشيخة لي جبتيها لينا.

لست أدري أي جن ركب يومها حياة، لم تعد التي أعرفها أو التي عرفتها في تلك المدة، فجأة تحولت إلى شخص آخر، مخلوق آخر لا أعرفه بل لم أعرفه البتة، لست أدرى من أين استمدت تلك القوة

أو بعبارة أصح تلك الوقاحة التي عمقت مأساتي؟

– أنا يا لالة مولاتي ماشي شيخة. بنتك هي الشيخة وهي الق..ة إلا بغيتي نسمعلك الهدرة لي خصك تسمعيها من شحال هادي ولي كدور في الزنقة وكيشربوا بيها الناس أتاي.

– كتسمع مرتك يا رويجل آش كتقول على أختك، مالك ما كتهدرش، هرس ليها فمها دابة إلا كنت راجل ولا أنا غنوريها.

فجأة ظهرت أُختي، وأجزم أنها كانت مختبئة في مكان آخر تنتظر بفارغ الصبر مثل هذه الفرصة، ولأتأكد بدوري أنه أمر دُبر بليل كما تقول العرب.

– كتسبيني العروبية الق..ة، أنا غنوريك.

أمسكت أُختي حياة من يديها راغبة في سحبها بينما همت أمي بصفعها، لكن حياة انقضت عليها كلبؤة، أمسكت أُختي من شعرها وطرحتها أرضا وهي تكيل لها الصفعات المصاحبة بأقذع الشتائم التي حرصت على أن تُضمنها كل ما عرفته عن تاريخ أختي الجسدي ومن اعتلاه من الذكور ذاكرة أسماء بعضهم، أُمي كانت تُحاول عبثا أن تفك الخناق عن ابنتها وفي نفس الوقت تحاول تسديد بعض الضربات لحياة التي أمسكتها من يدها وبحركة خفيفة كانتا الاثنتين تحتها. هنا بدأت أمي في الصياح طالبة النجدة.

– اعباد الله عتقو الروح، عتقوا الروح، يا الشماتة د الرجال كتشوف فينا كتصوتنا مرتك وساكت يا شماتة الرجال.

بفعل الصدمة وتسابق الأحداث بسرعة فائقة لم استفق إلا على الصياح. أذهلني كل ما رأيت، كيف تحول فجأة إلى عراك هكذا؟ أمام استنجاد أمي قمت برفع حياة عنها دون أن أنبس بكلمة في حين انسحبتا الاثنتان وهما تُهددان.

– غدا يا المسخوط سير دبر على دار فين تسكن أنت والعروبية ديالك.

– الدار ماشي ديالك يا عيفة الرجال الدار ديال راجلي وعندو الحق فيها كيما أنت.

– الدار ديال أمي آ العروبية وبسميتها والله تنخرجك ولا زد فيها ضربة ولا ليلة دابة تشوفي.

عراك كهذا بالصياح والشعور المتناثرة والكلمات التي يُذكر فيها ما كان معروفا ومسكوتا عنه أو ما كان يُقال في السر، أن يُنشر هكذا على العلن شيء يجذب الفرجة، جل الجيران هبوا لمشاهدة الحدث منهم من أصبح جزءا منه إذ سرعان ما انقسم المتفرجون بين مُؤيد لأمي وأُختي، وبين مُؤيد لحياة، لم يتدخل أحد بالحسنى لحل المشكلة كل طرف يُؤكد للآخر أنه على صواب، مما جعل كِلا الطرفين مُتشبثان بموقفهما، الكل يزيد الحطب في النار المشتعلة في النفوس، الكل يدلي بدلوه وأمي تُشهد الجمع الغفير مذكرة إياهم بأن المنزل منزلها وأنها ستقوم بطردنا.

صرت أنا المُتهم رقم واحد من كِلا الطرفين، في عُرف أُمي لست رجلا ولا أرقى لهذا المستوى، لأنني لم أقم بنُصرتها حسب مفهومها المتمثل في ضرب حياة وطردها وتطليقها أيضا لأشفي غليلها. هذه هي معايير الرجولة بالنسبة لأغلب الأُمهات في حَيّنا.

حياة اعتبرت موقفي سلبيا إلى أبعد الحدود لا يرقى إلى الرجولة أيضا، هي ترى حسب مفهومها للرجولة أنه يَتحتَّم عليَّ حمايتها من أمي وأختي، وأنهما لا يحترماني كأخ كبير في المنزل، أنا رجل المنزل، كيف رضيت أن تُطعن زوجتي في شرفها أمام الملأ، ومِمَّن لَمْ تصُن شرفها، هي حديث الجيران بعلاقتها المريبة، مُستغربة عدم غيرتي

على شرف العائلة المُنتهك. الكل خرج منتصرا إلا أنا، أنا المنهزم الوحيد في تلك المعركة.

لم أنم تلك الليلة كما تمنيت أَن أَنام، لم أَنم في حضن حياة. أَدارت لي بظهرها كما هددت أن تُغادر غدا إِلى بيت أبيها إِذ لم أَقُم بحمايتها ورد اعتبارها، طالبة مني عدم الذهاب للعمل خشية أن يُهاجموها رفقة أخي الذي كان لحسن الحظ غائبا ليلتها.

في الصباح الكل ينتظر ويترقب موقفي، أخيرا أصبح لي موقف يُنتظر، لكن ليس كما أشاء وأفكِّر الكل ينتظر مني موقفا وفق إِملاءاته، أُمي تنتظر أَن أَقوم بِطرد حياة من حياتي، وحياة تطلب مني تبني موقفا يُعيد لها كرامتها ويحميها مستقبلا من أي اعتداء، تركتها في الغرفة تُلملم أَغراضها مُهددة بهجراني، لم تنفع كل توسلاتي أمام إصرارها.

في منزلنا وجدت أخي يُهدد ويشتم بأقدح الشتائم مُتحسرا على غيابه أمس، هو لم يكن غائبا عن المنزل فقط بل كان غائبا عن العالم بأسره فسهرته تبدأ بتعاطي كل الأشياء الكفيلة بقطع كل التذاكر إِلى عالم آخر غير عالمنا، كل ما يجده أمامه، مخدرات، حبوب مهلوسة، خمر.. لا يهم لا النوعية ولا الصنف المهم أَن يغيب.

ما يخيفني هو أن يُهاجم حياة في حالة غياب تامة عن الوعي بسكين أو بأي شيء آخر، يكفي أَن يحصل على ثمن أَية تذكرة ليقوم بكل ما يُطلب منه، لم يكن من حل أمامي إلا التعامل معه بحزم شديد.

- إلا قربت لحياة ندفنك وأَنت واقف كتسمعني.

- أَنت العربي تدفني أَنا، العربي البوهالي كيهدر.

لم يكد يُتم كلمة بوهالي حتى انهلت عليه صفعا وركلا حملت ضرباتي كلّ غِل السنين التي سمعت فيها هذه الكلمة ولم أَقم بردة فعل، الآن ستدفع أَنت يا أَخي الصغير هذا الثمن الباهظ نيابة عن كل من شتمني بهذه الكلمة اللعينة، سأُريك من هو «البوهالي» أصبحت كالمجنون لم أستمع لتوسلات أمي وأختي وصراخهما وهما تَطلبان النجدة من جديد.

- عتقوا الروح اعباد الله عتقوا الروح اعباد الله. خلي خوك غتقتلو ا المسخوط.

كانت هذه الكلمة كافية لتُوقظ كل الشياطين النائمة بداخلي، لولا تدخل الرجال من الحي لقتلته ذلك اليوم، تركته كتلة من الدم لم يكن شيئا آخر غير الدم لا يُرى فيه إِلا الدم، استغربت أنا الذي لم اعتدِ على أَحد من قبل، أَول ما استعملت عضلاتي كانت ضد أَخي، كنت سأقتله لولا تدخل الجيران، رأيت علامة الفرحة على وجه حياة أَرضى ذلك غرورها، مما يعني أَنني اتخذت فعلا موقفا يلبي إملاءات طرف، وهذا الطرف أَكيد ليس أنا.

في الأخير أَنا الذي لم أَعش قط لنفسي أَنا العربي البغل أَعيش فقط للآخرين، أُقاتل من أَجلهم أَعمل لِصالحهم بوعي مني أَو دونه، خيراتي كلّها لهم وإِن حدث وتمتعت ففي متعتي متعتهم، لولا ذلك ما تمتعت ولا عرفت للمتعة سبيلا، أَنا العربي هكذا أعيش. فهل كل العرب مثلي؟ وإن حدث وغضبوا فإِنهم يغضبون على إِخوتهم يُقاتلونهم ويتفننون في إِلحاق الأَذى بهم، أَنا العربي هل كل العرب مثلي؟ في الأَخير لم أَسمع إِلا عبارات الاستهجان من كل الحاضرين.

- كان غيقتل خوه هذا العربي مول العقل يطلع منو هاد الشيء

كلو. سبحان مبدل الأَحوال.

– العيالات. تلقى المرة حرشتو، هي لي حرشتو على خوه.

في حين كانت كلّ من أمي وأختي تُولولان كأَن أَخي مات بالفعل، تطلبان من الجمع المُحتشد أَن يكونوا شهودا، على عقوقي شهودا على سُخطها عليَّ. وهي تعلن أمام الملأ قرار طردي من المنزل.

يومها حضر الجميع، شيخ البلدية وكل ما يُمكن أَن نسميهم بوجهاء زنقة عين زورة في قرية ولاد موسى، أَقنع الرجال أَمي عِدم التبليغ ضدي للشرطة، في حين طلبوا مني المغادرة فورا رفقة زوجتي وأَولادي.

– قال عمر السوسي مول الحانوت:

– خويا خرج كري ولا غيموت شي واحد فيكم واحد في القبر والآخر في الحبس ماشي معقول هاد الشيء.

يومها بعد نصف يوم من الدوران في جل أَزقة قرية ولاد موسى في ضواحي الرباط العاصمة، بحثا عن مسكن ملائم لميزانيتي الهشة، تاركا حياة عند إحدى حليفتها من الجيران، وجدت أخيرا غرفة مع مطبخ ومرحاض بمبلغ خمسمائة درهم للشهر، في حي «الجْبِلي» في الطرف العلوي من مدينة قرية ولاد موسى، ليلتها أَقْسَمت حياة وهي تغمُرني بقبلاتها لتُغريني على أنها ستعيش معي على الخبز والشاي إِن لزم الأَمر، هذا الشعار المغربي الذي يعادل شعار الثورة التونسية.

– خبز وماء وبن علي لا.

ليلتها قالت حياة كما يقول جل المغاربة في لحظة نشوة:

– خبز وأتاي وأَنا معاك على الحلوة والمرة.

لكن هذا الشعار لم يصمد طويلا، كان ذلك أَكبر دليل على أَنَّنا في أَغلب الأَوقات نقول أَشياء كبيرة ونقطع وعودا أكبر دون أَن نعني ما نقول، ربما لسد الفراغ أَو للكذب على الذات بعيدا عن أَي تحليل منطقي، نقول أَشياء لا تتوافق مع المعطيات المتوفرة لدينا، ولا تتوافق مع قدرتنا وإِمكانيتنا، والأَغرب من ذلك أَنَّنا لحظتها نُصدق ما نقول، في لحظات كهذه نصدق أَنَّا نملك أَكبر جيش في العالم، قادر على دحر المارينز مثلا، نكذب ونصدق، نكذب ونصدق..

ليلتها وأَنا أَتذكر وجه أَخي المغطى بالدماء ونساء الحي يحاولن إِيقاظه. مُستشعرا ندما وحزنا حقيقين على ما فعلت، كانت حياة تحاول إِيقاظ غرائزي الجنسية لتقتل بذلك بذرة الندم في داخلي، تساءلت متجاهلا إِغراءها ومستفسرا:

– ماشي كان عطينا لأمي الفلوس هادو ديال الكراء وبقينا ساكنين تما ماشي خير لينا آحياة. الله ينعل الشيطان وصافي؟

– أَنا دابة ناشطة آ العربي، متخلينش يطلع لي الدم عليك، أَنا ماشي خدامة ديالهم.

– مابقاوش كيطلبوا منك حتى حاجة، شنو فيها إِلا عاونتهم بشوية فلوس غيمشيو دابة للبراني في الكراء.

– أنا نعيش على الخبز وأتاي ونيفي الفوق، مانرضاش بالذُّل، إِلا أَنت راضي بيه حاجة أُخرى. نعس خليني عليك.

كان عليَّ قطع مسافة أطول على قدمي من منزلي الجديد إِلى محطة التاكسي الكبير المقابلة لملعب قرية ولاد موسى، لأَستقلها إِلى الوجلة بمبلغ ثمانين ريالا للسفرة.

استقبلني با مبارك غير مبال تماما بغيابي ولم يكلف نفسه عناء سؤالي.

المصائب لا تأتي فُرادى بدا عم مبارك مُستاءً من الوعد الذي قطعه لي بزيادة مائتي درهم إلى راتبي الأسبوعي، كان يُعطيني أسبوعا ويتغاضى أسبوعا آخر، عندما استفسرته اعتذر بتراجع مردود الورشة وباعتلال صحته، لم يكن با مبارك الوحيد الذي تراجع عن وعده وإن كانت أسباب تراجعه تبدو إلى حد كبير منطقية.

زوجتي حياة بدورها لم تعد راضية بالحرية والاستقلالية المقترنة بحياة التقشف، إذ سرعان ما ظهر الوجه الآخر المُنم عن التذمر وعدم القبول، لم أجد ما أقوله بل ما أفعله استنفذنا كلَّ مُدخراتنا البسيطة وغدوت عاجزا تماما أمام أي طارئ، يكفي أن يُصاب أحد الأطفال بحُمى لأجد نفسي عاجزا تماما عن حمله إلى الطبيب فضلا عن شراء الأدوية، في الأعياد كان منظرنا يُثير الشفقة ما أتقاضاه لا يكفي للعيش، فكيف سيكفي ويغطي الأشياء الأُخرى؟

المصائب لا تأتي فُرادى. مرض با مبارك لتتعمق مأساتي أكثر، تعكرت حالته الصحية أكثر مما استدعى دخوله إلى المستشفى، بعدها بأسبوع أُغلقت الورشة إلى إشعار آخر.

لم يخرج با مبارك من المستشفى ليُعيد فتح الورشة كما كنت آمل وأعتقد، بل خرج من المستشفى ليُفتح له قبر، بكيته بكاء الابن لأبيه، بل بكيت أثناء مراسم دفنه أبي، نفسي، حزني، عجزي...، وجدتها فرصة لأبكي، أبكي فقط.

لم تُفتح الورشة مما استوجب البحث عن عمل جديد، كل الأُجور التي عُرضت علي في منطقة الولجة الصغيرة للفخار لم تتجاوز أحيانا نصف ما كنت أتقاضاه في ورشة با مبارك، والذي لا يكفي بطبعه، الكل في الولجة يُعطيني الوعود طالبا مني الصبر،

لست أدرى كيف؟ شهران جربت خلالهما كل الأعمال. كل ما يخطر على البال، كل الاقتراحات. حمال في السوق، عامل بناء.. كل ذلك لم ينفع تزداد الحياة صعوبة يوما بعد يوم ويزداد عجزي ويزداد جفاء حياة وسخطها.

في الأخير أعلنت عجزي التام رفعت الراية البيضاء، لم أعد قادرا على تسديد كلفة الكراء، فاتورة الكهرباء.. عجزت عن تسديد جميع الديون الكثيرة عند الجميع، ابتداء من الصيدلي، مرورا بالبقال والخضار والجزار، أصبح من الصعب عليّ الخروج والتجول في الحي دون حرج، دون أن أُصادف من يُطالبني بتسديد ما عليَّ من دين.

رفضت حياة العودة للسكن في منزلنا هذه المرة، ليس في غرفتنا التي احتلتها أختي المتزوجة رُفقة زوجها ريثما يستكملان بناء قصرهما الذي سيستغرق بنائه ربما نفس فترة بناء سور الصين العظيم، هذه المرة قبلت أُمي أمام توسلاتي ومنظري المثير للشفقة أن نسكن معها في منزلها، لكن حياة رفضت بشكل قاطع هذه الفكرة غير القابلة بتاتا للمناقشة، كلما هممت بطرحها تصيبها نوبة هستيرية غريبة.

- تعرف ا العربي نطلق وما نرجعش نسكن مع أُمك وأُختك.

- شهر ولا شهرين حبيبة ديالي وصافي.

- من بعد شهر غتولي وزير غيعطيوك فيلا، والو خدام حزام تبقى حياتك كلها خدام حزام.

- نعلي الشيطان حبيبة ربي كبير.

- اسمع العربي هزني لدارنا الوقت كي تولي قادر تصرف عليَّ وعلى ولادك الدار كتعرفها.

جمعت ما تبقى من أغراض بيتي «الافتراضي» بعد أَن بِعت ما يستحق البيع لتسديد معلوم الكراء والبقال، عُدت خائبا إلى منزل أُمي بينما رفضت حياة الدخول حتى من باب المجاملة لإلقاء التحية، مُفضلة انتظاري بالخارج ريثما أُعطي الأَغراض المتبقية لأمي وأُمكنها من تقبيل يحيي وسعيد.

في الطريق إلى قرية عين الجوهرة التابعة لسيدي علال البحراوي بعيدا عن العاصمة بحوالي ثلاثين كيلومترا فقط، كانت تسكن أُسرة زوجتي في مناطق المغرب المنسي، بعيدا عن كل ما يُذاع في الإعلام، كَان علينا لنصل إلى المنزل أن نمشي تقريبا خمس كيلومترات على الأقدام ما لم يكن بانتظارك على الطريق ركوبة، بغل أو حمار أو تتوفر على وسيلة نقل خاصة بك، في هذه المنطقة التي تسكن فيها عائلة حياة الخارجة عن التغطية، تتشارك آلاف بل ملايين الأُسر هذه الوضعية المزرية في مغرب الاستثمارات الخارجية بملايير الدولارات في كل من أَفريقيا وأَمريكا وأُوروبا.

هذه الاستثمارات لا تعود بالنفع لترفع جزءا بسيطا من الظُلم والإقصاء المُسلط على هذه الأُسر التي لازالت في هذا العصر تسكن بيوتا من طين، لم أَتمعن في الصورة جيدا عندما تزوجت حياة وزرت قريتهم لأَول مرة، في الأَول يبدو الأَمر كأَنَّك أَمام مساكن أَلف ليلة وليلة تُسحرك بساطتها المقترنة بكرم الضيافة والابتسامة النابعة من قلوب طيبة، يُسحرك منظر الطين والدجاج والحيوانات ونباح الكلاب، تجعلك تتخيل أَنك أَمام لوحة فنية فريدة أَو أَمام فيلم سينمائي جميل من العهد القديم، لكن أَن تعيش هذه الحياة كلّ يوم هنا فقط يُمكنك أَن تختبر قسوتها، أَن تخرج كل صباح وفي كل الفصول تبحث عن مكان تقضي فيه حاجتك البيولوجية، أن يمشي ابنك أكثر من ستة كيلومترات مشيا على الأقدام ليصل إلى

المدرسة، أن تنتظر إلى الصباح وأنت تهذي إذا باغتتك في الليل حمى مفاجئة.. اعتقد أَنَّ هذا وحده يكفي لتعرف عمق المأساة لن أَتكلم عن المدرسة الحاضرة الغائبة البعيدة، لن أَتكلم عن المستشفى، لن أَتكلم عن المشاركة، عن التكنولوجيا، عن المجتمع الرقمي..

ملايين من المغاربة يعيشون هكذا يتوزعون بين المدن والقرى، يُعانون الفقر والإقصاء يُشكلون كتلة من الصلصال البشري يستطيع كل من يملك آليات الإنتاج أن يصنع منهم ما يريد. شيوخا، طلبة متفوقين، مجرمين، إِرهابين.. كل ما تريد أن تصنعه عندنا من الصلصال البشري ما يكفي، تفضل فأَنت مُرحب بك في أَي وقت.

في مغرب المليارات مغرب موازيين وأَحياء الصفيح والطين، في مغرب القطار السريع بين طنجة والدار البيضاء والحمار والبغل بين القرى في مغرب المتناقضات مغرب الحشيش والمسجد، عن أي مغرب سأَتحدث؟

من يا تُرى يملك آليات الإنتاج في هذا العصر المُقرف؟

هؤلاء فقط هم من يجب أن تُوجه إِليهم أصابع الاتهام في كل الكوارث التي تتعرض لها الكرة الأرضية، جشعهم لم يسلم منه أحد، أي كائن مهما كان، الأرض نفسها لم تسلم، تئن تحت أَقدامهم، السماء لم تسلم أَحدثوا فيها ثُقبا بغازاتهم، لن أَتكلم عن البشر والحيوانات والأَشجار. الكل يُعاني في ظل حكم هذه الطغمة العالمية العاهرة التي أَصبحت تتحكم في العقول قبل البطون تُوجهها حيث تشاء تُريها ما تراه وتجعل أَغلب سكان الأَرض يُصدقون كل الأَكاذيب التي تنتجها وسائل إِعلامهم المسمومة بالآلاف كل يوم لتبثها والتي تعمل وفق خط تحريري موحد يتّحدِ في المعنى والهدف

ويختلف في الطريقة حسب كل شعب وإمكانية استيعابه وثقافته، لتُحدَّد الصورة في الأَخير مُشكلة المشهد الذي يبحثون عنه ومحققة في نفس الوقت الهدف منه.

الفصل 3

إلى تونس

«الفقر في الوطن غربة والغِنى في الغربة وطن»

علي بن ابي طالب

لست أَدرى هل كنت أَمشي بقوة الدفع؟ أَم أَنّ هناك قوة أُخرى تُحدد مصيرنا أَم الصدفة وحدها كانت وراء كلّ الأَحداث التي تتالت بعد ذلك بشكل لا يخطر على بال، لم أُفكر يوما في السفر، بل لسنوات عديدة كنت أَعتقد أَنّنا الجنس البشري الوحيد الذي يسكن الأرض، لم أَكن أَعرف من جغرافية العالم إلا قرية ولاد موسى والولجة والمركز التجاري «مرجان» بعد أَن أفتُتح بالقرب من مكان عملي.

كانت زيارة هذا المركز التجاري هي متعتي الوحيدة بعد زواجي كلما توفر لي فائض من المال كنت أَزوره للتسوق رفقة حياة، كان منظر العربة وأنا أَتجول بها بين أَروقة المركز المكيفة في كل الفصول تثيرني، كم تمنيت لو امتلكت سيارة لأَضع فيها الأَغراض بعد أَن

أَخرج من المركز وأكون قد دفعت ثمن مشترياتي بالبطاقة البنكية، كان هذا أَقصى طموحي وأَقصى ما أَحلم به كنت أتصور كل من يستطيع القيام بهذه الأشياء أسعد الناس.

لم أُفكر يوما في السفر بل لم يخطر لحظة في بالي ولم يكن ليَستهوِيني. الحقيقة أنني لم أكن أفكر وأخطط أبدا شأني في ذلك شأن الكثير من الناس نعيش بقوة الدفع لأن هناك من يفكر دوما بالنيابة عنا، كان عليّ أن استخدم عقلي فقط في تطبيق تعليمات الآخرين وتوجيهاتهم، في منزل حياة الطيني التقينا ليلتها صُدفةً أحد أقربائها القادم من تونس. قال: إن صنعة الفخار مطلوبة بشكل كبير في هذا البلد العربي، وأنه رغم فارق العملة فبإمكاني الحصول على راتب أكثر مِمَّا أَحصل عليه هنا.

لم يمر كلامه مرور الكرام فحياة تلتقط كل شيء، تُحلله بسرعة فائقة لتُقرر بعد ذلك، ليلتها أصدرت أوامرها السامية والفورية بمباشرة استخراج جواز السفر بأَسرع وقت ممكن لأتمكن من مرافقة قريبها الذي سيعود قريبا إلى تونس، والذي سيتكفل بدفع معلوم تذكرة الطائرة دَيْنا أُسدِّدُه هناك، كما سيتكفل باستقبالي في منزله ضاحية الزهراء، إلى أَن يتمكن من إيجاد عمل لي في مدينة نابل المشهورة بصناعة الفخار حيث له أصدقاء كُثر.

في مدينة الزهراء التونسية الجميلة بمعمارها وبشوارعها وإطلالتها المتميزة على البحر الأبيض المتوسط، حيث كان يقطن سي عبد الله كما اعتدت أَن أُناديه في حي شعبي يسمى « حومة الترنني» سي عبد الله الذي أَبى أَن أُباشر العمل من أَول يوم.

– رِيّح معايا سيمانة ترتاح شوية مع راسك، تعرف ع البلاد ومن بعد يعمل الله دليل.

في هذه الفترة تعرفت على مغاربة كُثر في تونس، كانت ولا زالت هناك نسبة محترمة من مواطنينا في هذا البلد الصغير من كل جهات ومدن المملكة، يشكلون مغربا مُصغرا في كل بلد من بلدان المهجر التي يقصدونها، تساءلت:

لو لم تكن لدى الشعب المغربي رغبة في السفر مُتوارثة من عهد الرحالة المغربي «ابن بطوطة.» يبحثون عن حلول بديلة استعصت عنهم في بلدهم لانفجر الوضع هناك منذ زمن بعيد. تنازل المغاربة بطواعية منقطعة النظير عن حقهم في بلدهم وثروته، ربما هذا ما ساعد كلّ الأنظمة المتعاقبة على حكم هذا الشعب المطيع والمتزهد، على الاستمرار أَكثر في الحكم مقارنة مع بقية الشعوب العربية الاسلامية الأُخرى.

لكن أَن تصل الأَوضاع إِلى الحد الذي تفكر فيه شريحة كبيرة من هذا الشعب في الهرب والهجرة بحثا عن فرص عمل أَفضل في دول إِمكانياتها وثرواتها أَقل بكثير من المغرب، أَعتقد أَنّ هذا في حد ذاته يُشكل إِهانة ويجعلنا نقف متسائلين عن مدى مصداقية الخطاب السياسي الموجه للداخل والخارج المتحدث عن الرخاء ومسيرة التنمية.

قيل لي وقتها في بيت جار سي عبد الله فارس «الهواري»: بأن المغاربة موجودون في جميع أَنحاء العالم في بلدان لا يمكنك أَن تتصور وجودهم فيها، إثيوبيا مثلا وبعض دول الساحل الأفريقي، جل المغاربة الموجودون في تونس يمتهنون في أَغلبهم مهنة الحراسة حتى أَصبح ذكرها لصيقا بالمغاربة المقيمين في تونس ما إن تذكر هويتك حتى تسمع الكلمة التالية.

– برشة مغاربة خدمو معانا عساسة في الشركات.

بالإضافة إلى عمل آخر اقترن بذكر المغاربة هنا البحث عن الكنوز والشعوذة، لا يمكن أن يمر أي لقاء مع أي مواطن تونسي دون أن يأخذ جزءا من الحوار بطريقة آلية تكاد تكون عامة هذا المنحى.

– عندي كنز في الدار. تعرفشي شكون ينجم يطلعو؟

حتى يخال المرء أن كل مواطن تونسي يتوفر لوحده على كنز مما يجعله معتقدا أن كل ما يعيشه من ضنك العيش ومشاكله رهين لقاء مع شيخ مغربي «حر» حقيقي كما يقولون ويخرج من هذه البوتقة إلى رغد العيش ونعيمه، أسفر هذا عن استغلال عدد كبير من الدجالين المغاربة لهذه النقطة وقاموا بالنصب على عدد لا يُستهان به من التونسيين، ورغم ذلك فالتونسي في رحلة بحث دائمة عن العزام المغربي، لم يُغير هذا من نظرة التونسيين للمغاربة التي تتسم في الغالب بحب وود لا يمكن للمرء أن يجهله يلمسه من أول يوم تطأ قدمه تونس.

هناك شريحة أُخرى متوسطة من المغاربة تمتهن «الجبس» والفخار على العموم كانت هذه هي المهن السائدة التي يمتهنها المغاربة في تونس دون أن ننسى أنَّ هناك بطبيعة الحال نسبة صغيرة جدا من رجال أعمال وتجار مغاربة لكنها تبقى نسبة ضعيفة جدا وغير مُؤَثِّرة، وهناك أيضا من اعتبر تونس بلد عبور في نهاية الألفية الثانية إلى إيطاليا قبل أن تُشدّد هي الأُخرى الحراسة على شواطئها أُسوة بالمغرب.

بعد أُسبوع أكثر من رائع استطعت أن أتعافى فيه من كل الضغط النفسي الذي كنت أعيشه في المغرب، حمدت الله أنَّ هذه الرحلة قد أنقذتني من جحيم لا يُطاق كنت أَعيش فيه، كأنني كنت مطاردا من

كل قِوى الشر العالمية، لا أَسمع إلا اللوائح المطلوب مني تنفيذها والتي أَقف عاجزا عن تلبيتها.

كان النوم يُجافي مضجعي، جعلني هذا استغرب كيف يتكلم الأَغنياء عن نوم الفقراء الهنيء والعميق، كيف يتمتعون بنومهم وأَكلهم؟ من قال: هذا؟ من جعل الناس يصدقون هذا الهراء؟ كيف يتمتع الفقير بالنوم وبطنه جائع؟ كيف يتمتع بالنوم وهو يسمع صراخ أَولاده الرُّضع من الجوع والبرد والحر؟ كيف يتمتع بالجنس وهو يرى زوجته تذبل أمامه من العام الأول؟ لتتفسخ بعد ذلك تُصير كائنا آخر مخلوقا آخر لا يمت بصلة للمرأة والأنثى بصفة عامة، كيف سولت لكم ضمائركم أن تُصوروا الفقراء هكذا؟ لم تكتفوا بذلك بل سوقتمُوها كصورة تُظهرون فيها الفقراء سُعداء بفقرهم، كيف تتزاوج السعادة والاحتياج؟ هل جربتم ذلك حتى تسوقونه؟ هل جربتم ذلك على فئران بيضاء واستنتجتم أَنها سعيدة بفقرها واحتياجها؟ بل أَكثر من ذلك جعلتم هذه الصورة في مقررات تعليم أَولادنا تحثونهم على الرضا بالفقر في حين تنهشون أنتم لحومنا، تمتصون رحيق شبابنا، فتياتنا دون رحمة تُذكر.

بعد النقاهة والاهتمام اللطيف من سي عبد الله وزوجته اللذان عاملاني كضيف حقيقي، رافقني مُضيفي إلى مدينة نابل الجميلة حيث استرعى انتباهي في الطريق عدم وجود أَحياء الصفيح والطين.

في مدينة نابل قدمني سي عبد الله إِلى مُعلمي الجديد، والذي يُسمى في تونس «العْرف» اكتشفت عند وصولي بأَن سي عبد الله قد قام بتنسيق مسبق مع «العرف» وأَن الأَخير على علم مسبق بكلّ ظروفي حتى الاجتماعية منها، حيث حرص على توضيح كل متطلبات العمل أَمام سي عبد الله مُؤكدا إِنَّني سأَتقاضى راتب مْعَلّمْ

في الفخار والمقدر أُسبوعيا بمائتي دينار تونسية، كما هيأ لي غرفة تابعة للورشة للنوم بكل مستلزماتها وأثاثها. محتفظا بحقه في التراجع عن هذا الاتفاق في حالة ثبوت العكس وعدم تمكني من «الصنعة» بشكل جيد رغم ثقته في سي عبد الله واختياره، حيث حرص الأخير قبل أن يُغادر على تقديم مجموعة من النصائح المشجعة لي.

- ماتحشمنيش عيش خويا مع الراجل، خدم على روحك واعمل جهدك وإن شاء الله ما يخصك خير.

لم ألمس الطين لمدة فاقت الأربعة أشهر. كأنني عُدت إلى نفسي كأن بعضا مني كان غائبا عني، كم اشتقت إلى رائحته إلى كل شيء فيه، ذلك اليوم أقدمت على العمل كأنني أؤدي طقسا دينيا مُقدسا، لم أُصدق في البداية اشتياقي لهذا الطين الذي أصبح مع مرور الأيام جزءا مني.

في الفترة السابقة لم أنجح في أي عمل لأنني ببساطة لم أُحب أي عمل غير الطين، منذ نعومة أظافري وأنا أعجن الطين لأُشكل منه كلّ ما يمكن أن يُشكل من أواني وتماثيل للزينة ومزهريات، أُرافقه في كل مراحل نُموّه كأنه مخلوق جديد أحرص كل الحرص على أن أُوصله بسلام إلى حيث يجب أن يكون بكامل أُبّهته وزينته. الطين صناعة الرب، منه صُنع وخُلق أدم ليتفرع منه كل العالم، يومها أدهشت بأدائي في العمل ما يُسمى في تونس بالعرف وأدهشت زملائي.

في الغد عندما دخل العمال والعرف الورشة لم يُصدقوا أن هذه هي التي تركوها بالأمس كان كل شيء مُنظما ونظيفا وفي المكان الذي يجب أن يكون فيه، لم يُصدق عرفي كما سأُناديه من بعد، قام ليزُفّ البشرى لسي عبد الله شاكرا إياه على استقدامي:

- الله يرحم ولديك سي عبد الله في هاد الوليد، هايل.

الذي شجعني أكثر هو معاملته لي كمعلم، هذه الكلمة كانت كافية لتُرضي غروري أنا الذي كنت في الولجة لا أُنادي إلا بالعربي «البوهالي» أو المتعلم، أكثر من خمس عشرة سنة من العمل ولم يُناديني أحد بالمعلم العربي، هنا قال بالحرف:

- سأُعطيك راتب المعلم.

كم تكون الكلمات جميلة عندما تُلامس تطلعا بسيطا في عملك سعيت جاهدا أن تصل إليه وحققته وكم يكون الأمر مُحبطا ألّا تناله لا بشكله المادي ولا المعنوي وأنت تستحقه، حياة أثناء مكالمتي لها أعادت كلمة:

- حبيبة تهلى في راسك راني توحشتك.

إلى قاموسها أثناء الحديث معي، لا يمكن أن أنقم عليها وأن اعتبر ذلك طمعا، هو حق مهضوم نفرح بتحقيق جزء بسيط منه في حين كان يجب أن يُقدم كحق وليس مِنة من أحد، حياة أو بعبارة أدق حياتي لم تطلب سيارات وقصورا وحدائق، حياتي تطلب بطنا ممتلئا وهنداما لائقا ومسكنا دافئا ليس بالمكيفات في كل الغرف والممرات يكفي دفء أنفاسنا، تركنا لكم كل شيء لكنكم في المقابل حرمتمونا من كل شيء، كان طمعكم وجشعكم أكبر بكثير من طيبتنا، كيف استعصى هذا على أصحاب القصور وأصحاب الحدائق والأموال الطائلة؟ كيف استعصى هذا على من لا يُعاود ارتداء ما لبسه في الصباح من ملابس أبدا طول حياته؟ كيف استعصى هذا على من يُتلف أطنان المأكولات التي تُولم كلّ يوم؟ كيف استعصى هذا على كل هذه الطغمة؟ التي لو تنازلت فقط عن فتاتها لو كفّت عن إتلاف فُتاتها من الملبس والمأكل لما جاع فُقراؤنا لما تشرد أبناؤهم،

لكنهم أبخل من كل بُخلاء العصور السابقة، رغم أنيابها المُتسخة بدماء الفقراء تحرص هذه الطغمة العاهرة الفاسدة على أن تُسوق لنا صورتها مقترنة بحبها لنا.

كيف يطلبون منا أن نحبهم؟ ولكننا لجهل متجذر فينا نفعل، نحب من يُهيننا، نُعادي بعضنا في حبهم وخدمتهم. أيها الفقراء أيها المتمتعون بالأجر الأدنى في العمل أينما كنتم. لا تخرجوا من بيوتكم لا تعملوا لأن عملكم لا يعود بالنفع عليكم ولا على أولادكم ولا على شوارع أحيائكم ولا على مدارس أولادكم ولا على مستشفياتكم، عملكم يسرقونه ليبعثوا لكم به قُبلا مُزيفة وخطابات جوفاء خشبية عبر شاشات مسمُومة مفعمة بالحب الكاذب، لا تخرجوا اجعلوا غضبكم ينصب عليهم قاطعوهم في كل شيء.

في الأيام الأُولى من العمل بدا تذمر زملائي واضحا لم تعجبهم طريقة عملي أو نسق عملي المرتفع مقارنة بنسق عملهم، لكنهم في الأسبوع الثاني تغاضوا على ذلك تماما خصوصا بعد أن عرفوا ظروفي الاجتماعية، التي أَحرص دوما على سردها أَجد راحة نفسية غريبة في ذلك كأنّني أَطلب من الآخرين أن يشاركوني بعض آلامي وفعلا هذا ما يحدث في أَغلب الأَحيان، عادة لم تنقطع طوال إقامتي في تونس لكنها انقطعت كانت آخر مرة رويتها في المعسكر بعد الغارة الجوية التي استهدفت معسكر الأمير «أبو عائض» التونسي والذي لم نعرف مصيره من يومها ومصير المئات الذين قُتلوا معه تلك الليلة، طُلب مني بكل حزم أَلا اقترب من صديقي الراوي الذي كان آخر من سمع قصتي كاملة وبكل تفاصيلها، طُلب مني أن أتوقف عن سرد حكاياتي لأنني كنت مُقربا من الأمير أبو عائض ومن إِدارة المعسكر بشكل عام، أُسبوع كامل من التحقيق أَسفر عن ذاك القرار.

رحلة بجواز سفر داغشي

لم يتعاطف معي عمال الورشة فقط بل كل أَصحاب الورشات الأُخرى في المنطقة، أَصبحت مشهورا منذ الأُسبوع الأَول. غَدا الجميع يستعين بخدماتي عندما يكون لديه عمل إِضافي بعد استئذان «عرفي» بطبيعة الحال مكنني هذا من أن يصبح راتبي الأسبوعي في ظرف لم يتجاوز الشهر بالحوافز والأُعطيات حوالي خمسمائة دينار، سي عبد الله نفسه استغرب مندهشا. قال لي:

- عندك الزهر، سايس على روحك خويا، ربي معاك.

من الشهر الأَول بعثت بحوالة لحياة، كان الأَمر صعبا لكن عرفي تمكن من إيجاد حل، إِذ كان ولا يزال غير مسموح في تونس كما في المغرب تحويل الأَموال إِلى خارج الوطن بالعملة الصعبة. مِمَّا دفع عرفي إِلى الاستنجاد بصاحب شركة أَجنبية إيطالية نُسلمه المبلغ في تونس ليُكلف أَحد معارفه في إيطاليا بتحويله إلى المغرب باسم حياة، ويا لَيت ذلك لم يتم بتلك الطريقة.

حياة طارت من الفرحة لم تستطع ليلتها النوم، أَن تستلم حوالة مالية في مركز بريد في قرية صغيرة أَمام نساء الجنود ومن إيطاليا وهي محاطة بنظراتٍ واستفساراتِ الإعجاب من الكل، ابتداء من موظف المكتب كان هذا كافيا ليُشعرها بالتميز عليهن كلهن.

- قاليك الماندا جاتك من إيطاليا. شكون عندك تما حياة؟

- أَويلي. شكون عندي؟ راجلي.

أَجابت بكل فخر واعتزاز.

- علاش ا حياة راجلك مشى لإيطاليا سمعنا به ماخدامش.

- كي ما مشاش لإيطاليا الماندا صيفتوها لي الجنون، لي قال ليكم كيكذب.

لم يكن أمام النسوة أمام هذا الدليل الدامغ من بُد إلا التصديق، زِد على ذلك صياح الموظف وهو يحاول تفسير سعر المبلغ باليورو وما يقابله بالدرهم المغربي وتظاهر حياة بعدم السماع لتصل المعلومة لأكبر عدد ممكن من النسوة وعلى لسان موظف البريد نفسه.

– صيفت ليك خمسمائة أورو، غتجيك مائة وعشرين ألف آلالة حياة، سني لي هنا.

كانت فرحة حياة كما قالت بتوقيعها على وصل استلام الحوالة، أكثر بكثير من توقيعها على عقد الزواج، وكيف لا وهي تنظر إلى نظرات الحسد والإعجاب في عيون زوجات الجنود التي لا يمكن في حال من الأحوال أن تتجاوز حوالة أزواجهم المغتربين هم أيضا في غربة أكثر من أية غربة أخرى، غربة داخل الوطن الحبيب غربة لا يرون فيها أي شكل من أشكال الحياة لمدة ثلاثة أشهر لا يرون لا أطفالا ولا نساء صحراء في صحراء. لا يمكن أن تتجاوز حوالاتهم ألفا درهم، زِد على ذلك قليلا أو أنقص منه قليلا.

الفصل 4

الحب الافتراضي

وإني لأهوى النوم في غير حينه   لعل لقاء في المنام يكون

تحدثني الأحلام أني أراكم   فيا ليت أحلام المنام يقين

قيس لبنى

طلبت مني الحياة أن أشتري هاتفا ذكيا لأتواصل معها بشكل جيد بالصوت والصورة، استغرق مني تعلم كيفية التعامل معه وتشغيل تطبيقات التواصل أسبوعين كاملين، حتى صار تَعلمي وسيلة تسلية في المنطقة الصناعية، كلما أراد العمال الضحك والتسلية، يكفي أن ينادبني أحدهم وأنا أَحمل الهاتف الذكي بطريقة تُنم عن تقديس وتقدير كبير لهذا المخلوق الغريب كان خوفي عليه أكثر من خوفي على نفسي، يكفي أن يُخبرني أحدهم أَن هناك تطبيقا جديدا يُمَكنُني من التواصل بشكل واضح مع من أُحب صوتا وصورة، وهم يتغامزون حتى أُمطرهم بسيل من الأسئلة الفاضحة لأمري مُتسائلا عن جودة الصوت والصورة.

هذا الهاتف الذي دخلت من خلاله عالما لم أكن اعتقد وجوده، إذ كان يكفي مناداة المارد «جُوجل» ليُحقق في لمح البصر كل ما تَطلبه تجده بين يديك، يفوق في ذلك المصباح السحري الأسطوري، «جوجل» هذا ليس أسطوريا هو حقيقة تتفاعل معه، تأمره فيُطيع، بجواريه التي يحضرها بسرعة البرق من كل بقاع العالم وهن عاريات كما ولدتهن أمهاتهن..، مكنني المارد جوجل من التمتع بجسد حياة وحُبها وأنا في تونس، في البداية كان اللقاء مُحتشما يفتقد إلى الحرفية لكن مع مرور الوقت أصبحنا بارعين في التواصل، التفنن والتلذذ.

- حياة وريني شوية

- آش غنوريك اا المسخوط؟

- راكي عارفة.

في البداية كانت تغمض عينيها لأَرى مفاتن جسدها، لكن الإضاءة لم تكن كافية لتجعلني أَتمتع بشكل كامل كما أُريد، كما كنت أنا فقط من يطلب ما يريد وهي تستجيب بتحفظ كبير ممزوج بالخجل، لكن مع مرور الوقت أصبحت الإثارة مُتبادلة وبشكل جيد حتى أَنني استبدلت مصابيح غرفتي بمصابيح أَقوى، بينما اشترت هي مصباحا ببطاريات يتيح رؤية واضحة جدا.

- حبيبة توحشتك وتوحشتو هو أكثر وريه ليا كامل.

- واخة الزين ديالى حتى انا باغة نشوف ديالك توحشتو السبع ديالي.

- مالو مشعر متتهليش فيه تحجميه قدامي دابة.

- أَويلي نحشم.

- من شكون أنا راجلك.

أَحيانا أقوم بلحس مهبلها من الشاشة الغريب أَن ذلك كان يثير حماسها كنت أَسمع تأوهاتها، كأَنه جنس حقيقي ليس افتراضيا.

- قبل ما ترمي العربي علمني باغية نشوفو كيخرج المَني كنتسطى عليه هكاك حبيبة ديالي.

أَحيانا كنت أَطلب منها التبول لأُشاهد خروج الماء من نهر الحياة، من منبع الحياة كم كنت أَتمتع بمنظر تبَوّلِها في الإِناء، يُثيرني ذلك إلى أَبعد الحدود، تتساوى هي تتمتع برؤيتي وأَنا أَقذف ماء الحياة، وأَنا أَتمتع برؤية منبع الحياة حيث يريد الماء أَن يستقر ليُعشْشَ فيه حياة الكون بأسره.

- اشنو الحاجة تشهيتيها حبيبة ديالي مدرناهش كي كنا تما؟

- كنت كنبغي نمص ديالك وكنحشم. وأَنت حبيبة؟

- حاشم حتى دابة.

- عافاك عافاك قول قول.

- كنت باغي ندخلو ف الت..ة.

- ويلي كيما جارتي مرت العسكري راجلها كيجي كيموت من تما.

- كتعاود ليك؟

- علاش حنا العيالات، علاش كنهدرو؟ على داكشي.

- بالصح؟

- ايه بالصح، وهي في الأول مابغاتش، قالت لي: كيقسح بزاف، أَما من بعد ولات حتى هي كتبغي غ من تما. قالت: كيحمق بزاف.

- بالصح احياة. كاينين رجال كينعسو مع عيالتهم هكاك؟

- أَويلي يا راجل ماشي وحدة بزاف منهم.

- هاكاك وأَنا كنقول: ماهم العيالات كيغلطوا ويسمنوا من الوراء هاداك علاش.

- زعمة يا العربي هو كيغلظ من الت..ة.

- قالو كنسمع بحالي بحالك. يكما باغية تغلاظي نتي من الت.. مة يا حياة؟

- باغية نجرب معاك، أَما خايفة قالو: كيقسح ويوجع نهار الأول بزاف.

- دابة نشوفو كي نجي إن شاء الله حبيبة ديالي، الزين ديالي أنت

- إن شاء الله ا حبيبة، كيتجي دخلو منين ما بغيت ا الزين ديالي.

استمرت الحياة على هذا المنوال تسعة أَشهر، كنت أُعد فيها الساعات والدقائق لأُسافر إلى حضن حياتي التي تزداد جمالا وإثارة يوما بعد يوم. حرصت هي في هذه الفترة على فتح حساب إدّخار في البريد بكل ما يفيض عن حاجياتها إذ تكتفي دائما بسحب مبلغ أَلفي درهم وتحول الباقي إلى حساب الادخار خاصتها، تحرص على قول ذلك بصوت مرتفع كي تسمع كلّ صويحباتها.

- شحال صيفت المرة هادي من إيطاليا؟

- غتولي بالمغربي سبعة ألاف درهم لالة حياة.

- عطيني الفين درهم، وخلي خمسمائة درهم في البنكة عافاك خويا.

كان مكتب بريد، أَمّا حياة فتحرص على قول «بنكة» مُعتقدة أَن أَي مبلغ يجب أَن يُودع في البنك ولارتباط مصطلح البنك في

حد ذاته بالغِنى، ذهبت إلى البنك، وعدت من البنك، وسحبت من البنك، وأَودعت في البنك. كانت حياة بالفطرة تعرف أَن هذا يعني كمدلول أَشياء كثيرة ولذلك حرصت على تسمية مكتب البريد بالبنك.

ذلك الصيف فقط يمكن أَن أُسميه أَوَّل صيف عشته في حياتي السابقة، إِحساس آخر نظرة أُخرى للحياة مختلفة تماما، كأَنني لأَول مرة أَرى فيها بلادي، أَول مرة أَتمتع ببعض جمال بلادي التي هي بالحق بلاد جميلة، منحتني إقامتي في تونس إمكانية المقارنة.

في المغرب تجد بنية تحتية في المدن متفوقة على نظيرتها التونسية بشكل كبير، في حين تجد اهتمام المغاربة بقانون الشغل والعمال أَقل بكثير من تونس مع أَن التونسيين غير راضين على ما هم فيه من وضع، بل تجد الأَكثرية مُتذمرة في صمت مُريب يُنذر بأَشياء كثيرة.

المرأَة في تونس أَكثر تحررا بالمقارنة مع نظيرتها المغربية في الكثير من المجالات.. أَصبح لها دور مهم في المجتمع التونسي. في مواقع كثيرة افتكت مكانة الرجل وأَثبتت أَهليتها وأَحقيتها في ذلك، سن الزواج تراجع كثيرا إلى الثلاثين عاما عند المرأة ولا يُعتبر ذلك عيبا أَو عنوسة كما هو الحال عندنا في الغالب. فترة الخطوبة وأَمام قسوة الحياة والاستعداد الجيد الذي يُراعي استقلالية الزوجين، في تونس غالبية الشباب حديثي الزواج يحضون بسكن مستقل وهذا مالا يزال غائبا عند جل الأُسر الفقيرة في المغرب، بل يمتد أَحيانا إلى بعض الأسر الغنية التي ترى في استقلال الزوجة الحديثة بمسكن خاص نوعا من السيطرة المسبقة على ابنهم.

أَصبحت فترة الخطوبة في تونس تصل إلى خمس سنوات. مما يُعطي فرصة أَكثر للنضج والتفاهم وكذلك التوازن العاطفي

للشباب تحت أعين الأسرة وحمايتها والتي تُبدي الكثير من المرونة في هذه الفترة، حتى غدت هذه الفترة من أجمل لحظات مراحل التعارف عند معظم الأَزواج في تونس بذكرياتها ومغامراتها الجميلة.

الذي أَثار استغرابي أَنهم لا يجدون أَي حرج في سرد تلك المغامرات دون أَن يكون لها أَي انعكاس سلبي أَو فهم خاطئ يُوضع في خانة العار أو المس بالشرف. حتى أَصبحت الكثيرات من الفتيات التونسيات قادرات على اختيار أَزواجهن بملء إِرادتهن ولا يجدن حرجا في تقديم من يُحببن إِلى آبائهن وإِخوانهن في طقس يكاد يكون عاديا ولا يُفهم أبدا على أَنه تميُّع أَو خروج على المأْلوف لا من قِبل الأُسرة أَو المجتمع ككل.

استطاعت المرأة التونسية أَن تفتك هذا الحق مع مجموعة من الحقوق الأُخرى التي جعلت منها امرأة رائدة في العالم العربي. رغم أن هذا التحرر يشوبه أَحيانا الكثير من الانحرافات من فهم خاطئ لمفهوم الحرية، لكنه يبقى مشروعا جادا وطموح يحتاج إلى مزيد من الدعم والتوجيه ليأْخذ مساره الصحيح.

في ذلك الصيف عشت ما يُسمى أَو ما كنت أَسمع عنه شهر العسل. منذ اليوم الأَول حيث استُقبلت استقبال الأَبطال، انتظرتني سيارة في مطار محمد الخامس الدولي، دخلت القرية مصحوبا بالزغاريد، حرصت حماتي على أَن ينام الطفلان عندها.

في نفس الغرفة ذات المصباح المنير. غدوت أُمارس الجنس مع زوجتي في النور وليس في الظلام، لم أَعد اعتبر ذلك عيبا، منحني هذا التحرر فرصة أُخرى لأَتمتع بشكل كامل بجسد زوجتي، لأَكتشف كل تفاصيله وتضاريسه التي كانت شبه غائبة عني أَول الأمر، ولتتمتع هي الأُخرى. كل النظريات الجنسية عبر «السكايب»

عرفت وقتها طريقها إِلى التطبيق ذلك الشهر تفننت حياة، أَبدعت، أَخرجت مواهب ما كنت أَظن أَنها تملكها كان الجهل، الفقر، الجوع والعوز يطمسها يجعلنا لا نفكر فيها.

ذاك الصيف تحرَّرتُ من قُيودي وحَرَّرتُ حياة من كلّ ما كنا نعتبره عيبا حراما، تأَتّى هذا نتيجة التواصل والحوار الذي كنا لوقت قصير نعتبره لا يجوز في هكذا أمور، كانت حياة في السابق تحرص أَن تمنحني وتُمكنني من جسدها بِطلب مني أَنا فقط وفي الظلام وتحت الغطاء الذي كان يكتم أَنفاسنا وعندما أَنتهي تشعر هي بالخجل كأَنها أَتت مُنكرا، لا يحق لها أَن تقول: أَنني لم أرتو بعد.

الجنس في اعتقادنا وعُرفنا ذكوريا بامتياز، لا يحق للمرأة أَن تقول أَنها تحب هذا وذاك، وتفضل هذا الوضع على ذاك، بل لا يحق لها أَن تُعبر عن رغبتها الجنسية بشكل صريح. كُنا لا نتكلم قط عن هذا الاحتكاك الناشز. الآن المائدة مملوءة بكل ما لذ وطاب، والحوار أيضا يتشعب ليفتح داخل أَعماقنا انهارا من الرغبة واللذة التي تفسح المجال لصنع متعة مُتبادلة ومتكاملة.

حرصت حياة على أَن تقول لكل من يزور منزلهم ذاك الصيف: إِنني قادم من إيطاليا وليس من تونس. أَلا تستسلم الحوالات المالية من إيطاليا؟ والأكثر من ذلك حذرتني أَن أَغفل أَو أَنسى وأَذكر قدومي من تونس. المشكلة أَنني لم أَكن أَعرف إِيطاليا هذه أَين تُوجد يكفي أَن أَتلقى سُؤَالا أَو اثنين حتى يُفتضح أَمري.

لم تقتصر متعتنا في المنزل فقط. زُرنا جل المدن القريبة دون أَن نغفل في كل تلك الزيارات ونحن نمر على مدينة «الكاموني» التوقف حيث استمتعنا بأَكل كل أَنواع «الطجين» و»الكفتة» في مطاعمها المشهورة والتي تمثل إِلى يومنا هذا استراحة لكل المسافرين.

استأجرنا منزلا لأسبوع ضاحية مدينة «بوقنادل» الشاطئ. كانت لحياة رغبة غريبة تريد أن تُجربها، حياة التي لم تعد تخجل كما في السابق، منحها التواصل الافتراضي معي قوة وجرأة لم تكن موجودة عندها من قبل، لم تعد تشعر بالحرج في أن تُطالب بحقوقها الجنسية كزوجة، أصبحت تطلبها بوضوح وبالطريقة التي تريد أن تمارس بها الجنس.

في البحر بدأت تنظر يمينا ويسارا. لما رصدت أن الحركة في ذاك الصباح الباكر تكاد تكون منعدمة، جردتني من مئزري وبدأت تمص قضيبي بطريقة غريبة هستيرية، كنت أراها من فوق بشعرها المغروس نصفه في الماء والنصف الآخر تتطاير بعض خصلاته بفعل نسيم الصباح وهي تحاول أن تشكل منه باستدارة رأسها نحو الشمس ستارا يحجب فمها عن جهة الشاطئ. نظرتها لي التي يظهر فيها بريق الشهوة الممتزج بابتسامة جميلة، وهي تترك قضيبي لتستعيد أنفاسها بين الفينة والأخرى لِتكمل. تلك اللذة التي استشعرناها ونحن ننظر يمينا وشمالا مخافة أن يُفاجئنا أحد لا تعادلها لذة.

في البداية تحرجت إلى حد التَّقزز من ممارسة الجنس في ذلك المكان بعدها اكتشفت أن في تغيير مكان ممارسة الجنس بين الفينة والأخرى لذة ومتعة فريدة من نوعها. في ذلك المُعسكر «الداغشي» السجن الذي وجدت نفسي داخله رغما عني ظلت تلك العملية هي المتعة الوحيدة التي استحضرها بكل تفاصيلها كلّما بلغ بي الكبت مداه. كانت حياتي فنانة مُبدعة، كانت تعرف بفطرتها معنى الحياة بعد أن أكملت قالت:

- باغية وضع البقرة.

من الخلف وهي شبه راكعة ممسك أنا بشعرها كأنني أركب فرسا

عربيا أصيلا وهي تتأوه تأوها يمتزج مع صوت الأمواج مصحوبا بإشراقة الشمس ليُعطي سمفونية جميلة من سمفونيات الحياة. تتأوه طالبة مني بصوت مفعم بالرَّغبة يصدر من مكان مجهول لا يشبه البتة بقية الأصوات الأُخرى. تطلب مني المزيد مخافة أن تنهار صلابة قضيبي في أية لحظة. لم أتركها إلا وهي مُنهارة ارتوت بشكل كامل كما ارتويت أنا من هذه العملية لسنوات عجاف شكلت تلك الصورة الجميلة كل زادي من حياة.

وأنا في المعسكر عندما أمارس الجنس مع البغايا اللواتي يحضرونهن لنا بشكل دوري، البغايا اللواتي يتكلمون عليهن في الإعلام واصفين إياهن بما يسمى «بجهاد النكاح» لا يعدو أن يكون وضعهن مأساة حقيقية وظلما مسلطا على المرأة بعيد كل البعد عما يُسوق له الإعلام بغية إخراجه من إطاره الحقيقي.

عندما أُمارس العادة السرية كنت دائما أتخيل حياة لم يسبق لي بتاتا أن تخيلت امرأة أُخرى غيرها، هي حياتي وكل شيء عندي بقسوتها أحيانا بعطائها اللّا محدود أحيانا وبلذّتها.

حرصت حياة كل الحرص في تلك العطلة ألا أزور أُمي بكل ما أُوتيت من قوة ودهاء، لم تتجاوز أبدا ما حصل، كان العقاب عندها أكبر من الجرم بكثير أصبح قطيعة. في المقابل لم أستطع أن أُقاوم رغبتي في رؤية أُمي، في نفس الوقت لم أجرؤ على إغضاب حياة، لم أجد حلا إلّا التذرع برغبتي في زيارة عائلة با مبارك والتسوق لحمل مجموعة من الهدايا لسي عبد الله في تونس وكذلك «لعرفي» الذي أوصاني على مجموعة من الملابس المغربية.

حرصت حياة أن تعطيني المبالغ الكافية للأغراض التي أحتاجها فقط لشكها الكبير أنني لربما أعرج لزيارة أُمي، لم تكتف

بذلك أبدت استعدادها لمرافقتي. تملصت بعد عناء شديد وأمام توصيات شديدة اللهجة.

عند مدخل قرية ولاد موسى من ناحية المركز التجاري «ماقرو» لم أستطع منع نفسي من البكاء والضحك معا، انتابتني حالة غير عادية. لا مجال للمقارنة بين مدينة نابل حيث أعمل ومدينة الزهراء حيث أقضي دائما عطلة نهاية الأُسبوع والعطل الرسمية في تونس وبين قرية ولاد موسى. المدينتان التونسيتان مدينتان بشكل حقيقي، يتفوقان على قرية ولاد موسى في كل شيء.

لا تعدو قريتي بشوارعها وأحيائها وأسواقها بأن تكون مزيجا مُقرفا بين البداوة والمدينة. ورغم ذلك تبقى هي الأفضل والأقرب إلى القلب. عاودتني الذكريات عاودني الحنين وعاودتني الرغبة أن أعود إلى هنا. في منزلنا حيث وجدت بقايا أُمي لم تعد كما كانت هزلت فجأة. تمكن منها مرض السكري غيَّر ملامحها، صوتها حضنتني بدموعها وهي تحاول تَقبيل يدي لم أستطع أن أتمالك.

- لا أُمي أنا نبوس يديك ورجليك.

- لا يا وليدي سمح لينا بزاف منين مشيتي ضُعنا من بعدك كنت أنت الركيزة ديال الدار واحنا ما فخبرناش.

- لاباس أُمي اش وقع مالكي ماتبكيش عيش الحبيبة ديالي ما تبكيش.

في الداخل حيث أصبح المنزل باهتا مُقرفا عرفت معاناة أخرى. ألا يمكن لأُسر مثلنا أن يتمتع كل أفرادها، يستريح بعضنا قليلا من المعاناة يلوح بصيص من الأمل مبشرا بحياة كريمة في هذه الناحية لتحُل الظلمة في الناحية الأُخرى، ألا يمكن لشمس أُسرنا أن تُشرق ساطعة لتمحو ظلمة الفقر والجوع والحرمان؟

اشتكت لي أمي كما لم تفعل من قبل، اشتكت من معاش أَبي الذي لا يتجاوز ألفا وخمسمائة درهم في الشهر وغير الكافي لسد احتياجات الأكل والشرب فضلا عن فاتورتي الماء والكهرباء، يكفي أنها تُواجه كل يوم مطالب أخي المدمن التي لا تنتهي.

- كنت كنعطيه. نخاف يدير شي عملة يسرق..، وفي الأخير لي خفت منو وقع.

- اش دار أُمي؟

- سرق وتشد في الحبس ستة شهور، مازال كي خرج، وديما الصداع منين غنجيب ونعطيه باش يشري داكشي لي كيكمي كنت أنت سد علينا باب بلاء مشيتي..

نعم سرق أخي محلا تجاريا ونال عقوبته وهو يستحق ذلك، كم أَتمنى أَن يُطبق قانون السرقة على كل من تُسول له نفسه سرقة ما ليس له، الذين يسرقون الملايين لا يدخلون السجون يعيشون ليسرقوا أحلام شباب مثل أخي يدفعون بهم إلى سرقة أَشياء صغيرة يقتاتون منها ليدفعوا نيابة عنهم فاتورة كل سرقاتهم وجرائمهم المقدرة بما لا يخطر على بال. أخي سرق لأنه وضيع، أخي سرق لأنه جاهل، أخي سرق لأنه محتاج، لماذا تسرقون أَنتم إذن؟ أَنتم عِلية القوم ونُخبته أَنتم العلماء والمثقفون أَنتم رجال الأَعمال والعلم. لماذا لا تشبعون؟ لماذا تنهبون بوحشية منقطعة النظير؟ تملكون أَموالا في جُل بنوك العالم ومع ذلك تسرقون. تملكون قصورا ومع ذلك تسرقون. من أَنتم؟ لماذا لم تتبرعوا للفقراء والمساكين بيوم واحد من سرقاتكم ونهبكم، يوم واحد سموه اليوم العالمي لسرقة الشعوب المستضعفة والجاهلة، لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟ هل ستُشرق الشمس يوما على وطني ليُحاسب فيه كل من أَذنب بغض النظر عن انتمائِه وموقعه؟ أَم أَننا

سنعيش قانون الاستثناءات إِلى الأَبد قانون الضيعة قانون العهر الذي يُحولنا كلنا إِلى متهمين مالم تثبت براءتنا ويجعل منهم قديسين وإن ثبُت تورطهم.

- واختي حبيبة. ما زال ما لقاتش خدمة؟

- خلي هداك الجمل بارك. لي بقى منو كملتو هي.

- اش دارت عاوتني؟

- حبلت من الشارع. وجابتو نربيه، أنا ناقصة صداع، هاهيَ لداخل شافتك حشمت ودخلت قالت:

- ماعندي وجه باش نقابلو.

دخلت عليها الغرفة. ارتعبت لرؤيتي، حاولت أَن تُخفي ابنها عني، لم تستطع. فقدت السيطرة على نفسها، اعتقدت أَنني سأُهاجمها كما هاجمت أَخي من قبل. حاولت أَن أُكلمها بصوت حمَّلتُه أَقصى درجات رسائل الحب والاطمئنان.

- لاباس حبيبية. مغتسلميش علي؟

- أَنا أنا خويا العربي.

- إِيه أَنت نوضي سلمي علي.

قامت تتعثر في ملابسها غير مصدقة، خائفة، لوهلة اعتقدت أَنها خُدعة مني للإيقاع بها، احتضنتها، عانقتها بكيت لآلامها أَحسست بعذابها. هي بدورها انهارت أَرادت تقبيل رأسي، قدمي..

- سمح لي خويا العربي ظلمتك بزاف سمحلي..

- أَنا مسامحك احبيبة ديالي، عطيني ولدك نبوسو

- قبلته بكل حب رأَيت في يتمه يتمي رأَيت فيه نفسي العربي

«البوهالي» وضعت تحت رأسه ورقة من فئة مائتي درهم وأَعدته بلطف لأمه.

- الله يخليك أَخويا العربي الله يخليك.

- هيا اخرجي سير تقضي نديرو شي غذا واعر هاهي مائتي درهم الزرقة شري كلشي لي شهياه.

قومي يا أُخيتي قومي واكسبي بعض المال بل الكثير منه. والحقي نسبك بنسب نبي من الأنبياء. لا لن تحتاجي إِلى ذلك فأَنت ابنة وحفيدة نبي لا يستطيع أَحد أَن يُنكر عليك ذلك، أَنت حفيدة آدم أَبو الأَنبياءِ.

قومي اكسبي الكثير من المال وافعلي بجسدك ما شئت. ارقصي عارية على شواطئ البرازيل وفي كل الخمارات الفاخرة في العالم، التقطي صورا وأَنت تقبلين وتضاجعين من استطعت من نجوم العالم. لن يتكلم أَحد على شرفك فأَنت شريفة بالوراثة أَنت حفيدة نبي، أَلا يكفي ذلك؟ أَنت معصومة من الأَخطاء وغواية الجسد. سيُذكر اسمك دوما مقترنا بلقب الشريفة أَينما حللت وارتحلت لن تحملي أَوزار رغبتك ومجونك وإِن كثُرت.

قومي أُخيتي فأَنت الآن دون مال عاهرة وإِن كان نسبك شريفا، أَنت عاهرة في عالم عاهر.

قومي لأُقبل جبينك الناصع لأَنك في نظري كإِنسان فقط وفي نظر كل من في قلبه ذرة إِنسان أَشرف من الشرف الذي يتحدثون عنه.

قومي أُخيتي قومي.

أَثناء وجبة الغداء حيث حرصت أُمي أَن يحضرها كلّ إِخوتي بما

فيهم أُختي المتزوجة وريثتي السابقة في الغرفة العلوية، والتي يتمتع حاليا أخي بإيراد إيجارها الشهري. أُختي التي عمقت أزمة أُمي حسب تصريحها لي إذ كانت كل انتظاراتها منها صفرا، لم تُساعدها ماديا كما وعدت قبل أَن تستولي على الغرفة، بل الأكثر من ذلك حرصت طوال إِقامتها هناك على أَن تُشاركهم رفقة أَولادها جُل ما كان يُطبخ في منزل أُمي.

– جبتها تعاوني وليت أَنا كنعونها ذنوبك آ العربي ولدي خرجوا فيا.

لم ترضخ أُختي لشروط أُمي بل لم يكن يهمها حتى غضبها، كل ما كان يهمها وقتها أَن تدَّخر أَي قرش لاستكمال المنزل الذي يتم بناؤُه مُتبنية من أجل ذلك سياسة تقشفية صارمة، انتصرت على أُمي في كل شيء بل انتصرت على كل رغباتها ورغبات أَبنائِها، انتصرت على كبريائها أَقبرت أَجمل سنوات شبابها من أَجل بناء منزل، أختي الصغيرة التي اختفت إِشراقة وجهها صارت مخلوقا آخر لا يمت بصلة للمرأة.

استطاعت أَن تمتص كل استفزازات أُمي بطريقة رهيبة، قصتها مع أُمي أَصبحت بفعل التقادم كوميدية بأَتم معنى الكلمة. كيف كانت أُمي تطهو عمدا مأْكولات لا تحبها أُختي في صباها ولم تكن تقربها لكن أَمام سياسة التقشف كانت تأكل كل ما يُقدم لها متصنعة تلذذا مبالغا فيه، كما تحرص في الأَخير على أَن تحمد الله في إشارة واضحة لأُمي بأَنها فهمت قصدها ولن تتراجع. في حين كان زوجها الذي يعمل جنديا تابعا لفرقة الحرس الملكي يحرص على تناول جل وجباته في الثكنة.

– اشنو غطيبي أُمي اليوم؟

– مازال ما طيبت ما عندي والو.

– واخة أُمي دابة نهبط نعاونك ونطيبو لي كاين.

– لا ماتهبطيش.

– هذا كلام حشومة أَنا هابطة.

ونحن نتناول وجبة الغذاء أَعلمت أُمي الجميع بأَنها ستهب لي المنزل بكامله وأَن عليهم جميعا أَن يوافقوا:

– العربي خدم عليكم هو لي كبركم وعاوتني إِلا خليتها هكا ومُت غيبعها هذا في النهار الأَول ويمشي يتحشش بها. اش قلتوا؟ وهي تشير إلى أخي

الذي لم أكن أَتوقعه هذا الإجماع دون تحفظ على هذا القرار، للحظة اعتقدت أَنَّني داخل لعبة أَو أنني في حلم، أَن ينقشع كل هذا الضباب هذا الجفاء الذي لا يستند إلى أَيِّ أَساس وأَن يعترف الجميع بفضلي بل برغبتهم بمقابلة هذا الفضل بمثله، لم أَجد كالعادة إِلا البكاء كتعبير على هذه المكافأَة النبيلة في شكلها المعنوي أكثر من المادي، لم أَتعود أَبدا أَن آخذ لسنوات من عمري وأَنا أُعطي دون أَن انتظر مقابلا كان يكفي أَن أَرى علامة الفرح في عيون من أُعطيهم.

كم كان يحزنني وأَنا أَعتقد خطأً أَن ما أُقدمه لا يُقدره الطرف الأَخر أَبدا. كم كنت مُخطئا، كم كنت مخطئا. أَخي الذي جعلت يومها وجهه مغطى بالدماء أَخي المدمن المسكين الذي كنت سأقتله قال برحابة صدر:

– هذاك خويا الكبير كيما بابا الله يرحمو عمرو مايضيعنا غيبقى يدبر علي ديها. ياك يا العربي؟

– عانقته طالبا منه الصفح عن بدر مني يومها.

- ماوقع والو الخوادري هانية دبر عليّ دابة خويا بشي مائة درهم خلي نمشي.

تدخلت أُمي بشكل غاضب.

- ماتعطيهش العربي غيتحششش بيهم.

- خلينا الوالدة من هاد الكلام لي ماشبعتيش منو خويا غيدبر علي.

أَعطيته مائتي درهم كاد أَن يطير من الفرح في حين كاد أن يُغمي على أمي.

- أربعة الاف الزرقة يا مسخوط الوالدين عطيها لي نخبيها ليك وخود ألف ريال بركة عليك.

قبّل رأْسها وقبلني على وجنتي وخرج في رحلة بحث دائمة عن كل التذاكر ليُسافر كما نسافر كلنا هربا من وهج الفقر والإقصاء المتعمد الذي يُورَّث كما يُورَّث كل شيء في بلدي. كل حسب قدرته وإمكانيته والوضع الذي وُجد فيه لا غير، هذه المعطيات هي الوحيدة التي تُحدد نوعية التذاكر التي يجب علينا أن نقتنيها لا نملك الخيار إِلَّا في هذا الإطار الضيق والمُقرف، قليلون هم من استطاعوا الإِفلات من هذا الفخ المحكم بطريقة شيطانية متعمدة.

في الولجة لم أَقوَ على أَن أُحدد ما أنا فيه امتزج الحنين بالذكريات بكل شيء وامتزج أَيضا بالعروض المغرية التي تلقيتها يومها للعودة للعمل في ورشة با مبارك التي أُعيد فتحها. هناك عرفت أَنهم بحثوا عني في كل مكان دون جدوى كنت قد تبخرت. ماذا يحدث؟ أَية لعبة هذه الحياة؟ هذا الحظ الذي يبتسم وفق أَهوائِه دون أَن يُراعي أَحاسيسنا ورغباتنا.

يومها أَبدى الكثير من معلمي الولجة رغبتهم في أَن أَعمل معهم وفق شروط مغرية ومحترمة. ماذا كان ينقص؟ كان ينقص القليل من الزاد لنُقاوم ليمنحك القوة لتثبت به شراع قارب الحياة في يوم عاصف، كان من الممكن أَن نحصل على هذا النزر القليل من الزاد بالصبر فقط والتغاضي والترفع عن الأَخطاء الصغيرة من أَصدقائنا وذوينا. يومها اكتشفت لو أَنني استطعت الصمود لشهر آخر فقط كما قلت لحياة لفرجت لكنني لم أَفعل. فهل أَستطيع أَن أَعود الآن؟

في الطريق إِلى منزل عائلة حياة قرّرت أَن أَقول كفى لن أَعود إِلى تونس. لازال مصيري بين يدي، كفى، أُريد أَن أَحظى بقرب أُمي بقرب قريتي بقرب أَصدقائي بقرب حياة بقرب أَبنائِي أُريد أَن أَراهما يكبران تحت أَنظاري لا أُريد أَن أُعيد تجربة أَبي، هنا فقط أُحس بحياتي بمعناها اكتشفت أَنه رغم الخصاصة والمشاكل كان يمكن أَن نجد طريقة للتعايش والتفاهم لو توفر القليل من الحوار. أَعود إِلى تونس. لا، لن أَعود.

وجدت حياة في انتظاري على أَحر من الجمر نظرة واحدة كانت تكفي لتعرف أَين كنت، لم أَكن محملا بأَي شيء. بادرتني قائلة:

- كنت عارفة سَدْ تيلفونك من الصباح. كنت عارفة مشيت لأُمك.

- أَنت باغيني مانمشيش لأُمي مسطية في راسك ولا شنو

- هههه صافي. عْمرُوك وحرشوك عليّ شوف العربي..

- تقولي كلمة أُخرى نهرس ليك فمك دابة.

تراجعت رأَيت الذُّعر في عينيها، تراجعت ليس استسلاما ولكن لتدخل من باب آخر، انتظرت إِلى أَن غَيّرتُ ملابسي.

- مالك حبيبة طالع ليك الدم سمحلي عندك الحق خصك تشوف داركم أنا غالطة سمحلي بزاف.

- بالصح حياة، بالصح كتهدري؟

- والله حبيبة بالصح.

شجعني هذا على أن أشرح لها كل تفاصيل رحلتي اليومية معتقدا أنها ستفرح. وستكون سعيدة ببقائي بجنبها، لكنني لم أتصور أبداً أنها ستثور بهذا الشكل الجنوني.

- واش اعباد الله باغي تسطيني. قلنا مشيت لأمك ماشي مشكل، باغيني نرجع نسكن معاهم هادا الحماق هذا.

- علاش لا. الدار غتولي ديالي.

- شكون قاليك أسيدي انا باغية نسكن تما؟

- أسمع حياة انا ماغنرجعش لتونس.

- واش غتهبلني. ماتقولش تونس، قول إيطاليا حتى بيني وبينك قول إيطاليا. فهمتيني ولا لا؟

- ماغنرجعش لإيطاليا آحياة.

- واش كاين شي واحد بعقلو غيخلي إيطاليا ويبقى في القرية.

- واش أنت مسطية فيقي أبنت الناس، أنا في تونس ماشي في إيطاليا.

- واه واه آعباد الله شوف الراجل مازال كيعودها والله إلا سمعها شي واحد حتى نتسطى عليك.

- أنت هبيلة غدا غيقولو ليك: فين هي الطوموبيل؟ اش غتقولي ليهم؟

- ماعندوش البرمي.

- أنا مارجعش وصافي.

أمام صياحها واصابتها بنوبة هستيرية تظاهرت فيها بالإغماء تدخلت حماتي وحماي لأكتشف بطريقة عفوية كل برامجهم التي خططوها نيابة عني ودون استشارتي. رغم أن كلّ المخططات كانت تعتمد على حوالاتي المالية. هربت من مساعدة أمي وإخوتي لأجد نفسي أُساعد أُسرة زوجتي، مكتوب عليَّ أن أعيش هكذا، رفضتُ بشكل قاطع تشبث أُسرتي بمساعدتها بعد أن تزوجت. والآن أسرة زوجتي ترى في فك ارتباطي بهم خسارة لكل الدعم التافه الذي يحصلون عليه مِنّي. ماذا لو تفضلت دولتنا العظيمة وتصدقت علينا بهذا الدعم التافه؟

- أولدي احنا قلنا: العام الجاي إن شاء الله نشريو ليك نمرة في عين الجوهرة ونبنيوها ليك.

- علاش نشري نمرة في عين الجوهرة وأنا عندي دار في القرية؟

- ايوا اولدي مرتك ما مرتحاش مع أُمك.

- أنا عاوتني مامرتاحش هنا.

بدأت حياة تستفيق رغم يقيني أنها كانت تسمع كل ما نقوله، استفاقت لتقول بل لتُدلي بآخر ما عندها.

- اسمع العربي أنت ماكتبغينيش أُمك حرشتك عليَّ نطلقو حسن.

لا يمكنني أن أتصور العيش دون حياة، حُبي لها يفوق الوصف. لست أدري لماذا؟ في كل شيء لا أُشعر بالسعادة إلا معها، أرفض كل ما تطلبه في البداية لكنني في الأخير أكون مضطرا للبحث عن

أي مخرج يُرضيها، ذلك اليوم لم ينفع توسلي تارة وتهديدي أطوارا أخرى لإقناعها عن العدول عن فكرة رجوعي إلى تونس «إيطاليا». أخبرتها أنني أعمل هناك كالبغل من السادسة صباحا إلى العاشرة ليلا لأتمكن من بعث تلك الحوالات التي تستنزف كل طاقتي وجُهدي، أخبرتها أنني فعلا أُفضل الكفاف بقربها عن الغنى بعيدا عنها. أخبرتها وأخبرتها مقبلا رأسها مرورا بمهبلها إلى قدميها دون جدوى.

هكذا هي الحياة. لا بل حياتي وربما حياتك أنت.

لم ينفع كل ذلك أبدت تساهلا في نقطة وحيدة أنه من حقي أن أُساعد أُسرتي ماديا وأن أقبل بِهبَة المنزل الذي لن تسكنه مادامت عائلتي هناك، هذا ما استطعت الحصول عليه طوال ليلة كاملة من المفاوضات مع تأجيل نظر الرجوع إلى المغرب إلى العام المقبل.

الفصل 5

الخريف العربي

عندما زرت بريطانيا سألني صحفي بريطاني بسخرية: لماذا ترتدي هذه الشماميط التي لا تستر جسدك؟

فأجبت: لأنني أُمثّل أمّة من الجائعين والعراة.

المهاتما غاندي

في الطائرة يوم 30 جويلية 2010 وأنا عائد إلى تونس، لم يفارقني وجه أُمي، دَمْع أمي. أحسست أنني أراه لآخر مرة، كان وجهها يفيض حنانا وإشعاعا وهي تتنازل لي عن المنزل كأنها تريد أن تقوم بهذا العمل في أسرع وقت ممكن، كأنها تتسارع مع الزمن، حتى عندما سألها عدل الإشهاد إن كان المشتري قد دفع ثمن المنزل أجابت بطريقة لم تخطر على بالي:

- خلصوا من شحال هادي، من عمرو عشر سنين وهو يخلص فيه، كان ماكانش هو، راه تباع من هاداك العام. كمل اولدي كمل.

أوّل مرة أُودّع فيها قريتي بعينين باكيتين. ودّعت أصدقائي في

الولجة مُتحسرا على أنني لن أكون معهم. كانت دعوات أُمي كلَّ زادي لن أنسَ فرحتها عندما أعلمتها بأنها ستتلقى حوالة مالية كل شهر بمبلغ خمسمائة درهم. قبلتني على جبيني، كانت دعواتها تلك لي أجمل ما سمعت.

– سير آولدي العربي كيما سترتنا في الدنيا ربي يسترك فين ما مشيتي.

– سير العربي ولدي فرشت ليك بالرضاء وغطيتك بالرضاء..

– سير العربي ولدي قلبي راضي عليك دنيا وآخرة..

حياة الوحيدة التي لم تكن راضية على ما آلت اليه الأُمور في النصف الثاني من العطلة، أجبرتها على أن تقوم برصد مبلغ مالي من حسابها البنكي بمبلغ خمسمائة درهم، يتم تحويله بشكل آلي لحساب أُمي كل شهر غير قابل للتراجع لمدة عشر أشهر. حتى عندما أعطيتها عقد المنزل طالبا منها الاحتفاظ به لم تفرح اكتفت بكلمة «مبروك» فاترة. كأنني بذلك صادرت أحلامها وأحلام عائلتها لست أدرى ربما أكون مخطئا في تقديري.

في مطار قرطاج الدولي وجدت في انتظاري سي عبد الله وزوجته، هذه المرة بسيارته الجديدة الصغيرة التي اقتناها «بوجو 205» غبطته على قربه من عائلته على اهتمامه بأولاده. تذكرت أنني لم ألعب مع يحي وسعيد كما يجب. لم أهتم بهما كثيرا، كنت لصيقا بجسد حياة كأنني أخاف أن أفقده أُريد أن أتزود منه بأكبر قدر مستطاع من الحب. الشيء الذي لُمت فيه أبي سابقا أُطبقه لم يتوقف عندي. الآن فقط عذرته وأحسست أحاسيسه المليئة بالكبت أحاسيس نتوارثها جيلا بعد جيل كما يتوارث غيرنا المجد والتقديس والمال. غابت الفرحة التي أحسستها أول ما دخلت تونس في السنة الماضية، غاب

الحماس، شعرت أنني أقوم بأمر مُجبر عليه لا يجسد ولو جزءا بسيطا من إرادتي. شعر بذلك سي عبد الله.

– مالك العربي لاباس.

سردت له بالتفصيل المُمل كل العروض التي تلقيتها في المغرب، استغرب تَعنّت حياة وتشبثها برجوعي إلى تونس لمجرد تغطية كذبة حقيرة وإعطائِها غطاء يجعل الآخرين يعتقدون أنها حقيقة

في ماذا يُفيدني اعتقاد الآخر؟ أو في أي صورة يريدني أن أكون. أُريد أن أعيش كما أُحس وكما أعرف وليس كما يريد مني الآخرون.

تعاطف معي سي عبد الله وهو يحثني على الصبر ربما تتغير المعطيات في الصيف القادم نعم قد تتغير المعطيات. أكيد. لكن من أدراني أنها ستكون لصالحي؟ أصحاب الورش في الولجة لن ينتظروني لمدة عام كامل فهذا العمل مُرتبط بنجاح موسم السياحة في البلاد ويتأثر بأبسط الظروف.

عُدت إلى عملي بغير الحماس الذي كنت عليه سابقا، الكل استشعر ذلك. حافظت على النسق المعتاد في عملي. نعم من أجل النقود فقط العمل دون حماس أو رغبة يكون عذابا كأنك مُجبر على تناول وجبات الطعام التي يفرضها عليك الطبيب حفاظا على صحتك، تكون مُجبرا على تناولها رغم مذاقها السيئ. في الليل أفقد الرغبة في كلّ شيء أشعر بتعب مُضاعف أكثر مما كنت أشعر به سابقا، نفسيتي المتدهورة ضاعفت من إحساسي بالغربة والضياع، كل ليلة كنت أتذرع بآلاف الذرائع كي لا أتواصل مع حياة، في حين كنت متلهفا لتتبع أخبار عائلتي في القرية. أصبح لقاؤنا الجنسي الافتراضي مرة في الأسبوع فقط بعدما كان في السنة الماضية تقريبا شبه يومي.

استمرت الحياة على هذا النسق لمدة شهرين وحدث مالم يكن

في الحسبان، بدأت شرارة الثورة التونسية، في البداية اعتقد الكل أن الأَمر عابر وأن النظام سيسطر على الأُمور من جديد وستعود قبضة الجنرال أَشد من ذِي قبل، لكن إِصرار الشباب التونسي وبعض مؤسساته الحية كاتحاد الشغل الذي تبنى بشجاعة وبشكل علني كل التحركات والمظاهرات في البلاد ليُضفي عليها شرعية قانونية، كانت أقوى من سلطة الجنرال التي ظهرت على حقيقتها الواهية أَمام صياح الشباب مطالبين بحياة كريمة تسودها العدالة الاجتماعية.

– حرية، كرامة، عدالة اجتماعية.

– التشغيل استحقاق يا عصابة السراق.

كم أَحببت هذه الشعارات جسدت كلماتها تطلعاتي وتطلعات كل الشباب أمثالي، لحظتئذ اعتقدت أَن الأمر ممكن وأَنَّ الشباب التونسي قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أَحلامه. لكنه كان مجرد سراب في يوم قائظ.

بدأ تأثر الصناعة التقليدية بما يحدث في نابل بشكل تدريجي، ليعرف شللا تاما مع خروج البعبع وإعلان مجموعة من الدول تونس منطقة غير آمنة. ناصحين رعاياهم بعدم زيارتها. لا أنكر أَنَّني فرحت، اعتبرت ذلك انتصارا لإرادتي وأن الفرصة قد حانت لِأَعود إِلى وطني.

لكن حياة لا تفكر كما أُفكر ترى الأُمور من غير الزوايا التي أَراها. تتبعت أَطوار الثورة التونسية بعين يقظة، لفترة كانت تطلب مني الصبر ريثما تتحسن الأُمور وتعود وتيرة العمل لسابق عهدها، لكن عندما فوّتت الحوالة المالية لشهر يناير بدا صبرها ينفذ وفاجأتني بما لم أَكن أَبدا أَعتقد أنَّ حياة الفتاة شبه الأمية يمكن أَن تُفكر فيه، لا بل أَن تُحدد معالمه وبدقة.

– العربي شفت في التلفزة بزاف حْرقوا من تونس لإيطاليا قالو قريبة بزاف من تما.

– فخباري. علاش؟

– علاش ماتحرقش انت؟

– أنا. شكون غيحرقنني؟

– سي عبد الله كيعرف واحد.

– شكون قاليك؟

– هو اتصل بخوه قالوا بزاف ديال التوانسة والافارقة والمغاربة حرقوا من تما، وقالو سهلة الحرقة من تما بزاف.

لم تكتف حياة بذلك بل اتصلت هي بسي عبد الله. طالبة منه مساعدتي على العبور إلى الديار الغربية، والأغرب من ذلك. حياة حددت لي حتى المدينة الفرنسية المشهورة بصناعة الفخار التي يجب أَن أَقصدها عندما تطأ قدماي بلاد الرومان كما وجدتها على دراية كافية برواتب عمال الفخار في أُوروبا.

– حبيبة تمشي تما ما تريحش في إيطاليا ما فيها ما يدار. سير لواحد لمدينة في فرنسا سميتها «ليموج» الخدمة ديال الفخار تما بزاف بالصح في عام تجي بطوموبيل ودير لي الوراق نمشي معاك حبيبة ديالي، الزين ديال حياة السبع ديالي.

– زعمة حياة. نقدر نوصل؟

– توصل حبيبة ديالي توصل حبيبة. قالي سي عبد الله: كلهم وصلوا.

تفرج في التلفزة يا العربي تفرج.

في منزل سي عبد الله وجدت شابّا من مدينة مكناس من معارف سي عبد الله. كان يعمل معه في مشروع المسجد الذي توقف لأنه كان من ضمن مشاريع جماعة «الطرابلسية» أَصهار بن على الجنرال الهارب.

سي عبد الله الذي تحسر مُؤكدا أَنه في الأُسبوع المنصرم انطلق قارب يعرف أَحد سماسرته كان من بين ركابه شريك فارس في السكن الحسين الزموري الذي كنت قد تعرفت عليه سابقا. تساءلت

- الحسين صاحب فارس وصل؟

- وصل السيمانة ليفات احنا ماكنوش عندنا الفلوس راني مشيت معاه. أضاف زيدان الشاب المكناسي متحسرا هو الآخر.

في المساء في بيت فارس وجدنا مغربيين آخرين هناك، شابا من زمور قريب للحسين، قَدِم من المغرب حديثا ليقتفي أثر قريبه. نزل ضيفا عند فارس بتوصية من الحسين. والطيبي «السوسي» من أَقارب فارس أصيل منطقة «هوارة «ضواحي مدينة أكادير قَدِم حديثا إلى تونس أيضا للغرض نفسه.

اتصل سي عبد الله بسمسار الهجرة ذائع الصيت والمعروف بكُنية «التاج». والذي حدد لنا موعدا لمقابلته في إحدى مقاهي مدينة حمام الأنف، السمسار بدوره أَبدى تحسرا واضحا لغيابنا عن فوج الأُسبوع المنصرم، مؤكدا أنهم سيعاودون رحلة أخرى عندما يكتمل النصاب المطلوب من الشباب، حاول سي عبد الله أن يستوثق أكثر من الرجل متسائلا. عن نوعية القارب وإمكانية نجاح الرحلة.

قدم لنا السمسار من الضمانات الشفاهية الشيء الكثير، حتى ليعتقد المرء أنه سُيسافر بنا على متن تيتانيك وليس قاربا للهجرة

السرية. كانت هناك مشكلة تُؤرق سي عبد الله فبالإضافة لكونه مُلزم بدفع تكاليف زيدان الذي كان يعمل لحسابه كخلاص للأَشهر التي عملها معه، كان مطلوبا منه أيضا أَن يُكمل لي المبلغ حيث تنقصني على الأَلف دينار خمسمائة دينار، انتحى بالسمسار جانبا طالبا مني أَن أُعطيه الخمسمائة دينار التي بحوزتي، ليعود ويؤكد أمامنا بأَن ثمن «حرقة» زيدان والعربي قد دُفعت وحُسم أُمرها ليُضيف السمسار أَمام مسمعنا مؤكّدا كلام سي عبد الله:

- سي عبد الله خويا ومزيتو سابقة كي نتصل بيكم تمشوا لصفاقس أُموركم واضحة ماهومش باش يكلموكم على الفلوس جملة قولوا لهم خلصنا «التاج» في تونس واكهو.

كان واضحا أَن سي عبد الله يُعاني في صمت، فهو لم تُصرف له أُجرة عمله من المقاول التابع لعائلة الطرابلسية، في حين كان عليه أَن يدفع أُجور الصناع المغاربة من جيبه، كان كل شيء يدل على ذلك الورقة المعلقة على السيارة «للبيع» كل هذا لم يُنقص من كرم ضيافته لنا في شيء كان دوما مبتسما كأَنّ شيئا لم يقع.

أسبوع كامل من الانتظار على أَحر من الجمر لم يتصل فيه بنا «التاج» قضيناه في منزل فارس تجنبا للإحراج باعتبار ضيق منزل سي عبد الله.

هناك تعمقت معرفتنا ب الراوي كما سيُسَمى من بعد والطيبي، لنتشارك دون تخطيط مسبق منا وإن كنا نتشارك نفس الوضع ونفس التهميش. سنتشارك سنوات حملت في طياتها الكثير من الأَلم والحزن والدماء في رحلة بحث مُضنية عن الأمل لِسَد الجوع والعطش.

الفصل 6

الزهراء

وإنّي برغُم الظلام لست بيائس

فالفجر من رحم الظلام سيولَدُ

جبران خليل جبران

استقلّيت أنا والطيبي قطار الثامنة مساء إلى تونس العاصمة ضاربين عرض الحائط توسلات كل من زيدان والعربي. لم نهتم كثيرا بمطالبهما ولم نفكر في ما سيلاقيانه من بعدنا فهما يستحقان ما هما فيه حسب اعتقادنا وحسب العُرف.

كانت الرحلة على متن القطار المُفضلة لَدي، تلك الرحلة من صفاقس إلى تونس، أعادت إلي ذكريات سفري من الرباط إلى مراكش على متن القطار وإن كان الفرق بين القطارين كبيرا جدا.

ما إن استلقينا على كراسي الدرجة الثانية في قطار تونس الذي لا يشبه البتة قطارات المغرب، يجعلك الأول تعتقد أنك تعيش في القرون الوسطى بتجهيزاته المتواضعة التي لا تواكب متطلبات العصر، قطار كان يجب أن يكون مركونا في المتحف الوطني التونسي،

وليس وسيلة نقل ركاب، ليس هو فحسب بل كل الأُسطول التونسي من القطارات على هذه الحالة المزرية، لِتصل إلى تونس من صفاقس عبر قطار تونس القرن الواحد والعشرين، تحتاج إلى أكثر من خمس ساعات لتقطع مسافة لا تتجاوز الثلاثمائة كيلومتر.

ما إن استلقينا على الكراسي حتى استسلمنا لِغفوة نوم جميلة زاد من جمالها اهتزاز القطار وصوته الرتيب البطيء.

استيقظت على أصوات نقاش حام بين شباب تونسيين من بينهم شباب ملتحيين، يحاولون إقناع الآخريين من زملائهم بأن الإسلام الذي يمثله تيارهم هو الطريق الصحيح وأنه الكفيل والقادر وحده على أن يُخرج تونس مما هي فيه. بعد ما يُمكن أن نُسميه ثورة خرج شباب الملتحي التونسي من كل مخابئهم على اختلاف تياراتهم، حتى لَيتساءل المرء:

– أين كانوا قبل الثورة؟

كان النظام التونسي السابق يتبجح بأنه استطاع أن يقضي عليهم ويخرسهم إلى الأبد. لكنهم بعد الثورة خرجوا من كل صوب وحدب للحظة توقف الكل يتأمل هذا المشهد. اكتسحوا الساحة بشكل كامل بل سحبوا البساط من أحزاب وشخصيات كانت إلى عهد قريب تُعقد عليها أمال كبيرة في لَمْ شمل الشعب التونسي، أصبحوا بين عشية وضحاها هم المسيطرين على الشارع حيث ظل الكل خائفا من دخول الانتخابات لاعتقادهم الذي يصل إلى درجة اليقين أن التيارات ذات المرجعية الدينية ستكسحها بالكامل. التفاف غريب لنسبة كبيرة من الشعب التونسي حول تلك الأحزاب. أزاحوا كل الأحزاب التي كان يُعتقد أنها في الصدارة، ظهروا منظمين كأن سنوات القمع والتهجير والسجن لم تنل منهم بل زادتهم قوة.

بدأ الكل يُحاول أن ينسب ما سُمي الثورة لنفسه، أن يقنع الآخرين أنه هو صاحبها وأن له الفضل فيها. لحظات كهذه ينتظرها أعداء تحرر الشعوب. نُعطيهم الفرصة ليزيدوا من إشعال النار والفرقة، في لحظات كهذه خفت أن يكون هؤلاء الشباب الذين يجسدون تونس بكل أطيافها واختلافاتها في نقاشهم هذا.

خفت ألا تجمعهم تونس. هم بنقاشاتهم هذه لا يدافعون عن تونس. كل واحد يدافع عن الفرقة التي ينتمي إليها ويعتقد أنه هو وحده وفرقته يملكون القدرة والبرامج الكفيلة لِتخليص البلاد مما هي فيه، ولكي يقوم بذلك يحتاج بل يطلب من الآخرين أن يتبنوا موقفه أو يتهمهم بالخيانة والعمالة وهكذا ندخل في نفق مُظلم من الرغبة في إقصاء الآخر وتجريمه. نضيع نحن ويضيع الوطن من بين أيدينا ونعود من حيث بدأنا نصنع طواغيت جُددا بجُبة أُخرى ليس إلَّا. تونس هي كل التونسيين دون استثناء أو إقصاء.

وصلنا إلى محطة قطار مدينة حمام الانف بعد الواحدة صباحا، لِنُكمل الطريق إلى مدينة الزهراء حيث يقطن فارس مشيا على الأقدام، لم تكن المسافة بعيدة بين المدينتين المتلاصقتين كان يجب أن نمشي حوالي أربعة كيلومترات أو خمسة من محطة القطار إلى حومة «الترنني».

كنا نمشي ونحن نحاول أن نتخيل ردة فعل فارس عندما يرانا، فارس الذي تركناه حريصا على تتبع كلّ مباريات وتقارير كأس افريقيا للأُمم وهو يعقد الأَمل على المنتخب المغربي أن يتوّج باللقب الأفريقي. ربما يعتقد الآن أننا في إيطاليا أو في قاع البحر أُكلة للأسماك، كان هذا أكثر ما يُخيف فارس إذ لم يستوعب قط. كيف يمكن لشخص أن يُفكر بأن يُقامر بحياته بهذا الشكل المُرعب من

أَجل تحقيق حلم تافه كالذي نسعى إِليه حسب رأيه.

وجدنا صديقنا الهواري يَغُط في نوم عميق، أَيقظناه بطرقات عنيفة على الباب بُغية إِخافته، لكننا لم ننل منه كأَنه كان يتوقع عودتنا كل ليلة. فرح كثيرا بعودتنا مُعتقدا أَننا تراجعنا لخوفنا من ركوب البحر أَو لاقتناعنا بكلامه ونصائحه.

– كنت عارف غترجعوا، مانعرفش علاش، بقاو معايا دابة ندبر ليكم خدمة هنا.

– يمكن آصاحبي أَنت لي قوستي علينا هداك علاش ما سهلش ربي.

لم يكتف الطيبي بذلك بل هاجم فارس كأَنه المسؤول عن فشل رحلتنا متهما إياه بالجُبن والهروب وأَنه لا يستطيع أَن يتحمل طريقة عيشه مستغربا رضاه التام على ما هو عليه. وأَنه لن يبقى مكتوف الأَيدي وهو يرى شبابه وأَحلامه تفلت من بين يديه سيناضل من أَجلها. لم يتوقف الطيبي هنا بل هاجم فارس متسائلا ومستفسرا عن إِنجازاته:

– ماذا فعلت أَنت فارس منذ قدومك إِلى تونس؟

– أَية أَحلام من أَحلامك حققت؟

تَزوجتْ حبيبتك وابنة عمك في المغرب بمن هو أَقدر منك ماديا فقط، لم يكن غنيا لكن كان يملك مالا تملكه أَنت، كان له عمل قار. في حين لم تستطع أَنت فِعل أَي شيء هناك، هربت إِلى تونس. أَنت هنا منذ ثلاث سنوات، ماذا حققت فيها؟ بل ماذا ستحقق هنا مستقبلا؟

– أَية آفاق تنظرك هنا أَوهناك؟

– هل تغير وضعك هنا عما كان عليه في المغرب؟

أَلم يقل أَحد مُلوكنا الراحلين في خطاب مُتلفز بشكل واضح وصريح «جوع كلبك يتبعك» وصلت بهم الجرأة إِلى نعتنا بالكلاب ووصل فينا الذُّل مداه غدونا نسمع الإِهانة ويمارس علينا الظُّلم والتجويع كل يوم ونسكت. لا، لا نكتفي بالسكوت بل نهتف لهم في الطرقات ونفرشها بالزرابي والورود أَي شعب نحن.

من نحن نعيش هنا أَو هناك كالحيوانات، نتصارع مع لقمة العيش فقط، نعمل كي نملأُ بُطوننا بأَنواع الطعام الرديء، أَما الحياة التي أُريد أَن نعيشها والتي يجب أَن نعيشها نحن وليس أَنا فقط ولأَنها تُعاش مرة واحدة فقط، فيجب أَن نتمتع ببعض مُتعها وليس الكل. لسنا طمَّاعين ولم نكن كذلك، هُم من يملك هذه الصفة. هذه الحياة فيها الكثير من المتع غير الأَكل الذي نتصارع معه ومن أَجله.

هنا أَوهناك يا فارس لن يتركوك تعيش سَنُّوا قوانين نحتاج لسنوات عديدة لتعديلها كلُّ هذه القوانين الهدف منها أَن تضل أَنت حيث أَنت، ليتمكنوا هم هؤلاء الطغمة الفاسدة العاهرة من الإِقطاعيين من أَن يعيشوا كما يحلوا لهم وهم يتمتعون بقطف ثمار عملنا والركوب على الجميلات من بناتنا، حرمونا حتى الحبّ، لم تتحمل يا فارس أَن تعيش في بلد زُفت فيه حبيبتك لواحد غيرك، كيف تطلب مني أَن أَعيش في بلد تُزف فيه أَحلامي كل يوم للقوادين والمتخنثين والمثليين من هذه الطغمة الفاسدة، أَن أَعيش كريما أَو أَمُت كريما في قاع البحر خير لي من حياة الهروب والجبن التي تعيشها أَنت يا فارس ويعيشها آلاف بل ملايين الشباب العربي في هذا العالم القذر.

– وقف فارس متسائلا في غضب:

- وماذا ستجنون من إيطاليا؟ إنّ ما ترونه ويُسوق لكم مجرد وهْم وسراب.

وقف الطبيبي عاجزا أَمام هذا السؤال لم يستطع أَن يقدم شيئا مُقنعا، في حين فضلت أَنا عدم التدخل في الحوار، مكتفيا بالسمع.

كان حماس الطبيبي للديار الإيطالية يُغذّيه وجود أخيه هناك، وهو الذي قدم له من الوعود الشيء الكثير، أصبح الطبيبي شبه مقتنع بأَن حياته ستتحسن إلى الأَفضل بمجرد الوصول إِلى هناك، في حين كنت أَنا أَقل حماسا منه. ليلتها بِتّ مقتنعا إِلى أَبعد حد بوجهة نظر فارس، لولا الحرج والخوف من غضب الطبيبي لأَعلنت ذلك صراحة، هناك سبب آخر جعلني أتضامن مع فارس، لأَن قصتينا تتشابهان كثيرا، فهو قد هاجر لفقدانه حبيبته، بينما أُهاجر أَنا لأُنقذ حُبي، لأَعود غانما، ناجحا، لأحظى بمن أُحب «دُنيا» اسم حبيبتي، وعدتني بأَنها ستُناضل من أَجل حُبنا ستنتظرني ولن تُزف لِغيري مهما حصل.

بعد تناول وجبة العشاء أو الفطور لأَن الوقت قد تجاوز الساعة الثانية صباحا وبعد حمام دافئ استسلمنا لنوم عميق.

في الصباح تمام الساعة التاسعة صباحا، حاول الطبيبي إيقاظي، لكنني نهرته بعنف مما جعله ينتظرني في الغرفة الأُخرى، كانت تتناهى إِلى مسمعي وأنا بين اليقظة والنوم شتائمه التي لم تتوقف إِلى أَن استيقظت بينما غادر فارس مبكرا إِلى عمله.

استيقظت يومها حوالي الساعة الثانية بعد الزوال، كان الطبيبي لا يزال غاضبا، لم يمهلني لأتناول وجبة الفطور أو الغذاء، اتهمني بالكسل وأننا هنا في مهمة تقتضي هِمةً عالية وصبرا، حيث اضطر لتأجيل موعده مع السمسار بسبب نومي، وأَن الأَخير كان غاضبا،

رافضا التحدث عبر الهاتف.

في طريقنا على متن سيارة أُجرة صغيرة إِلى مدينة بن عروس، حيث طلب منا السمسار «التاج» أَن نوافيه هناك في مقهى «النسيم»، لم يتخلص الطبيبي من غضبه، مُتهما إياي بالكسل وأَننا لسنا هنا في فسحة وأَنَّه يتعين عليّ إِذا أَردت النجاح في الدِّيار الإِيطالية أَن أَتخلص من هذا الكسل. الطبيبي الذي ادعى نصحي لِخوفه وحِرصه من أن تضيع أَحلامي وأَلا أَنجح في الديار الإيطالية مالم أَتخلص مما يعتبره كسلا.

طوال الطريق والطبيبي لم يتوقف عن إِسداء النصح لي. اعتبر نفسه وصيا عليَّ بمجرد أننا قضينا ليلة معا في محطة القطار، وكأَن وصولنا إِلى إيطاليا هي مسألة وقت فقط حسب اعتقاده.

- أَنت ماشي حربي أصاحيبي والو.

في مدينة بن عروس وفي مقهى النسيم كان السمسار ينتظرنا على أحر من الجمر، في غضب ظاهر لم يستطع أن يخفيه، ما إن جلسنا حتى بدأ يحتج على عودتنا إِلى تونس، باعتبارها خطأ كبيرا، وباعتبار أَنّنا لسنا في نزهة وأَن الطريق إِلى إيطاليا ليس مفروشا بالورود، إذ كان علينا أَن نرضى بالإِقامة في المكان الذي حدده لنا السماسرة هناك لمصلحتنا الأمنية.

- أنتم ستكونون مضطرين لقضاء ليلة كاملة بين الأَمواج، في البحر والبرد وعجزتم عن الصبر لقضاء ليلة أَو ليلتين في العراء على الأَرض، ما هذا الهُراء. أَي الرجال أنتم؟

لم يسمح لنا بالكلام أبدا. كلما هم الطبيبي بالرَّد أَسكته.

في الأَخير أَخبرنا أَن فوج الأَفارقة قد وصل اليوم صباحا،

وأَنَّ رحلتنا إلى إيطاليا ستكون بعد يومين على أَبعد تقدير، طالبا منا العودة بأَسرع ما يمكن إلى مدينة صفاقس لتجنب أَي احتمال مهما كان ضئيلا يمكن أَن يُفوت علينا رحلة العمر والأَحلام. وأن نتصل بنفس الرقم الذي سلَّمه لنا أَول لقاء صحبة سي عبد الله.

- خلصوا القهاوي وتصبحوا على خير، اليوم ولا غدوة بالكثير نحبكم تكونوا غادي.

لا أنكر أَن خطابه أَحيا في نفسي فتيل حماس جديد، كاد أَن يخبُو في داخلي أَنا فقط باعتبار فتيل حماس الطيبي لم يخبُ أَبدا. في سيارة الأُجرة عاد الأَمل وعاد الخيال ونحن نتصور ونحلم بالغد المشرق. اعتذرت للطيبي مُعربا عن أَسفي ومُعترفا بخطئي وأَنا أُؤَكد صِحة كلام كل من السمسار والطيبي ومواعظهما المتطابقة في حثها على الصبر وأَن الطريق لتحقيق الأَحلام الكبيرة كالتي نحن بصدد تحقيقها وإِنجازها غير مفروش بالورود.

أَرضى هذا الاعتراف الطيبي وشَرع في رسم معالم حياته في إيطاليا وهو يُفكر بشكل مسموع، واعدا إياي بالمساعدة في الديار الإيطالية، حيث سيكون رهن إِشارتي في أَي طلب أَطلبه، ربما سيقوم باستضافتي لبعض الوقت في منزل أخيه بعد التشاور معه طبعا ريثما أَجد عملا، سيُساعدني أَخوه على إيجاده.

مضيفا: أَننا كُنَّا نتيجة غبائي أنا وكسلي واستهتاري، سنُفوت على أَنفسنا هذه الرحلة، لكن الحمد لله فالحظ لازال يحالفنا كما حالفنا ليلة محطة القطار.

- تعرف منين ما تشديناش هاديك الليلة عرفت غنوصلو لإيطاليا عندنا الزهر يا صاحبي، غنوصلو. دُق عليها.

في منزل فارس تعاملنا معه ليلتها كأَننا غدا سنستقل طائرة

للذهاب إِلى إيطاليا، كأَن التأشيرة الغربية مطبوعة على جوازاتنا، جعلنا السمسار نعيش الحلم كأَنَّه حقيقة.

فارس لم يكن مُتفائلا البتة وللحظة الأَخيرة ظل مُتوجسا وغير مُرتاح، لم يتوقف عن إِسداء النصح بعدم الانسياق وراء أَكاذيب المُهربين، مما جعل الطيبي يجيبه بشكل يتنافى كليا مع ما يقتضيه واجب الضيافة، كأَنه نَسي لحظتها بأَننا ضيفان في بيت فارس.

- أَسير آصاحبي بركة من التخربيق ديالك راضي ديما بالذل هداك لي خلاك هكاك، صاحبتك خذوها ليك الشمايت وأَنت هارب في هاد الحفرة.

اعتقدتُ أَنَّ فارسا يبكي، أَظنه كافح كثيرا ليمنع دموعه من التدفق ليكتفي بإجابة مقتضبة غير مسموعة وهو يخرج تاركا لنا المنزل كأنه منزلنا وكأَنَّنا أَصحابه وهو الضيف.

- دبرو ريوسكم أَناغير نصحتكم.

استيقظنا باكرا اعتذر الطيبي من فارس مُقبلا رأسه قبل أن يُغادر الأَخير إلى عمله، ودّعناه وكلّنا فرحة بل يقين أَنَّ غدا أَو بعد غد سنكون في إيطاليا الحلم.

استقَلينا القطار من محطة مدينة حمام الانف كالعادة، هذه المرة كان حماسنا أَكبر وكنا نحمل معنا جوازات سفرنا تفاديا لما وقع في المرة الماضية. بل تجرأنا وحجزنا مقاعد في الدرجة الأُولى في اتجاه صفاقس حيث كانت الكراسي الزرقاء الوثيرة أَكثر راحة بكثير من نظيرتها الحمراء في الدرجة الثانية، في هذه الرحلة من تونس إِلى صفاقس تصرفنا على أَساس أَنَّنا مواطنون مغاربة في الخارج.

أولئك الذين جعلونا لسنوات طوال نعتقد أَن لا أَحد غيرهم

يعيش السعادة، بسياراتهم الجميلة وبلباسهم وطريقة كلامهم المُنمقة حيث يحرصون دوما على حشوها بأكبر عدد ممكن من الكلمات الأجنبية، أكثر شيء كان يثير فضولنا ونحن صغار، ذلك الحزام الجلدي الذي تُعلق فيه محفظة النقود الكبيرة دلالة الغِنى، في إشارة واضحة أن المحفظة العادية غير قادرة على استيعاب الثروة الكبيرة التي يحملونها كل يوم ليتبضعوا بها فقط. في تلك الرحلة تصرفنا على هذا الأساس، لم نكن نملك محفظة كتلك. لكنّنا اشترينا كلّ ما عرضه علينا نادل الدرجة الأولى في القطار.

الغريب في الأمر، الحوار الذي دار بيننا ذلك اليوم أخذ منحى آخر، تكلمنا عن أنواع السيارات المفضلة عند كل واحد منا ونحن نستعرض مزايا كل نوع وسعرها، تكلمنا على المناطق التي نريد أن نسكن فيها في المغرب ونُشيد فيها قصورنا..، سردت للطبيبي قصتي مع دنيا وكيف أتصورها عروسا قد زفت إلي في الصيف القادم، في عرس سأحرص على أن يكون فخما، تخيلتها على «العمارية» والنساء تغني وتؤكد الأغنية الشعبية القديمة الدالة على انتصار الحب في الأخير.

- داها وداها والله إما خلاها

- .. يا قطيب اللوز خليوه يدوز

في تلك الرحلة التي كانت دُنيا حاضرة فيها بكل تفاصيلها، حرصت أن أبعث لها بجل صوري رفقة الطبيبي في الدرجة الأولى من القطار، دلالة واضحة أن هذه هي الحياة التي نستحقها وأنّنا قاب قوس أو أدنى من تحقيقها، بعثت لها بكل تفاصيل الرحلة من شرب القهوة مع السيجارة التي دخنتها يومها بفعل النشوة رغم أنّني لا أُدخن، بعثتها لدنيا وألصقتها على حائطي في «الفايسبوك»

دُون أن أنسى أن أكتب فوق الجدار الأزرق بخط كبير وواضح.

- وأخيرا تحقق الحلم، أُحبك وأعرف أنك تُحبينني وأعرف أنك تقرئين وتبتسمين، قريبا ستزفين إلي حبيبتي رغم كيد الأعداء.

زادت التعليقات وعلامات الإعجاب تحت الصورة من نشوتي جعلتني لحظتها شبه متأكد أنني في إيطاليا، ظننت كما ظنت حياة زوجة العربي أن تونس هي إيطاليا، لحظتئذ لن أقبل من أي أحد كما لم تقبل حياة أن يقول أحدهم عكس ذلك، وصلت علامة الإعجاب بصوري في القطار على حائطي في «الفايسبوك» أكثر من مائة علامة إعجاب، ناهيك عن التهاني والتبريكات لي ولدُنيا من أولئك الذين يعرفون قصتنا، كأننا في شهر العسل. هذا كله وأنا في القطار لم أبرح مكاني لا إلى إيطاليا ولم أصل صفاقس حتى.

الفصل 7

القونة الثانية

ليس هناك من هو أكثر بؤسا من المرء الذي
أصبح اللا قرار هو عادته الوحيدة.

وليام جيمس

وصلنا مدينة صفاقس حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً، كانت بانتظارنا مفاجئتين غير سارتين، أيقظتنا من أحلامنا العسلية. فبالإضافة إلى الجو الممطر في المدينة مِمَّا يعني استحالة الرحلة في تلك الأيام، وجدنا زيدان في انتظارنا، لم يتحمل الطيبي رؤيته. بل حمّل وجوده المسؤولية في تغيّر أحوال الطقس، متهما إياه بأنه نحس أينما حلَّ وارتحل، طالبا مني أن أُصدق ذلك لأنه يعرف الناس المنحوسين من وجوههم وأشكال عيونهم.

- وجه البراز هذا منحوس، ويلا مامشيناش إلى إيطاليا من النحس ديالو، الجَو شافو تقلب.

لم يكتف الطبيبي بذلك بل سأله بخشونة:

- اش كدير هنا؟ شكون قاليك تتلقى لينا؟

لم يكن زيدان غبيا، كان يعرف كيف يمتص غضبنا بكلمة واحدة.

- بغيتيني نمشي نمشي. صفتني فرحات الحراق نتلقى ليكم.

كانت هذه الإجابة كفيلة بأن تُغير موقف الطبيبي مائة وثمانين درجة، فرحات الحراق يهتم بنا شخصيا ويتنازل سيادته. ملك البحر الأبيض المتوسط «بربروس التونسي» يتواضع ويُرسل إلينا مبعوثا، هذا شيء عظيم. زاد هذا من تأكدنا أنّنا سننجح في العبور، لحظتها تناسى الطبيبي نَحْس زيدان وحالة الطقس، تعامل معه كمبعوث للملك، تعامل هذه المرة مع الصفة وليس مع الشخص.

- بصح زيدان ولا كَتْرِيقْلْ علينا؟

- والله العظيم بصح. إلا متيقتنيش كلموا في التلفون ها هو معاك.

بالفعل استلم الطبيبي هاتف زيدان ليجد فرحات الملك على الخط الآخر، يعتذر ويعطي توجيهاته السامية: بأن الرحلة ستنطلق مباشرة عند اعتدال أحوال الطقس، وأنّه يتوجب علينا ألا نبرح الفندق الذي سَيصحبُنا إليه زيدان حيث علينا أن نُرابط هناك ليومين أو ثلاثة على أبعد تقدير ريثما تتحسن أحوال الطقس.

- ماتكسروليش راسي بالتيلفونات، تشوفو المطر كفت والشمس طلعت كلموني أكهو.

في الطريق إلى الفندق لم يستطع الطبيبي الصبر طلب من صديقنا «جوجل» أن يمدنا بحالة الطقس في تونس لهذا الأسبوع. الغريب

أنّنا لم نطلب من «جوجل» ذلك ونحن في مدينة الزهراء، بل لم نكن نُخطط البتة لهذه الرحلة كلّ ما كنا بارعين فيه هو أن نحلم، نُسلم قيادة أنفسنا للغير كالقطيع نُنفذ ما يُطلب منا دون مناقشة أو تفكير، إلغاء وتَغيب تام للعقل، وحتى عندما يُنبهنا الأخير بأن الأُمور تمشي عكس المنطق وأنّ توقعاتنا و ما نطمح إليه لا يستند إلى أي أساس منطقي وواقعي، رغم ذلك نُجبر ونُقنع كلّ حواسنا وعقولنا بأن حساباتهم المنطقية خاطئة، وفي المقابل نُسلم تسليما تاما بحسابات الآخر التي لا تستند لأي منطق، تُصبح هي الصحيحة.

نتيجة هذا. أصبح الكثير منّا إلا من رحم ربُّك، يعتقد مثلا وهذا فيض من كأس، بأنه بمجرد أن نُعلق حذوة الحصان وذيل سمكة على جدران بُيوتنا كفيل بأن يُبعد كل الأرواح الشريرة والحسد والبُغض الذي نتفنن نحن في صنعه، نطلب من حُذوة الحصان أن تحمينا منه، أصبحنا نُسلم أنفسنا لمشعوذ تشهد كل حواسنا بأنه يكذب، ورغم ذلك يظل اعتقادنا راسخا بأنه قادر بوسائله الخارقة أن يُحقق أحلامنا حتى العاطفية منها. أن يُحقق لنا ما عجز أن يُحققه لنفسه. تناقض مريع تعيشه عقولنا. نحن أمة مريضة بالجهل الذي أصبح مقصودا تعميقه فينا عبر برامج تعليمية أملاها الآخر علينا ووجدت أرضا خصبة في عقولنا قابلة لاستقبالها دون قيد أو شرط.

أكد السيد جوجل للطبيبي أنّ الأحوال الجوية في تونس ستستمر باردة لأسبوع كامل مع نزول أمطار غزيرة مصحوبة بعواصف رعدية. ناصحا أصحاب قوارب الصيد بالتحديد. توخي الحذر.

عندما أطلعت ونحن في الطريق إلى الفندق على تقرير الصديق جوجل لأحوال الطقس في تونس، أصبحت أمام مشكلة حقيقية. كيف سأُواجه المائة معجب على حائطي في «الفيسبوك»؟ والذين

أَوهمَتهم صورتي في قطار تونس أنني في إيطاليا، أولئك الذين ينتظرون جديد أَخباري. ماذا سأقول لدنيا؟ كان هذا كل ما خطر على بالي وقتها. دُنيا التي وعدتني بليلة صاخبة تُودعني بها. سنة كاملة وأنا أحاول إقناعها بممارسة الجنس الافتراضي أُسوة بكل شباب العالم وتماشيا مع الموضة. سنة كاملة من الرفض والتردد، اليوم فقط قَبلت.

قمت بتصفح منشوراتي على حائطي الأزرق الجميل مُجدّدا لأُعرف عدد علامات الإعجاب والتعليقات التي تفاعلت مع منشوراتي. نعم قد فاقت مائتي علامة إعجاب وخمسين تعليقا، كلهم يُمجدون انتصاري ويهنؤونني على تحقيق حلمي. ابتسمت ابتسامة الرضا والزهو، نجم أَنا على «الفايسبوك» بل كلنا نجوم افتراضيون.

دُنيا وعدتني الليلة أنها ستُمكنني من رؤية مفاتن جسدها وأَنها مُستعدة لتنفيذ كل ما أَطلبه منها، لا.. لا.. لن أَقول لها إن الرحلة تأَجلت سأَتمتع بليلتي كأَن شيئا لم يقع.

في الطريق إلى الفندق أَقنعنا أَنفسنا أَنا والطيبي وزيدان بأَن «جوجل» شخص كاذب، وأَنه يخدم أَجندة صهيونية، وبأَنه عميل مرتزق، وأَن العلم بيد الله. غدا ستُشرق الشمس وسنتأكد كذب هذا الدجال الذي أَصبح صديقا لنا رغم كُرهنا له في أَحيان كثيرة، وتعلقنا به الذي يصل لدرجة الجنون في أَحيان أُخرى، وهي كثيرة بطبيعة الحال «جوجل» الخادم المطيع تطلب منه ما تريد ويلبي دون تردد أَو شروط مُسبقة، ولكن هذا لا ينفي كذبه في أَحيان كثيرة كهذه. العلم بيد الله فليذهب جوجل إلى الجحيم إِذن.

غدا ستُشرق الشمس بل الليلة ستشرق سمائي بجسد حبيبتي، الليلة سأتلاعب بكل تفاصيله، الليلة سأَمص مهبلها من تونس وهي

في غرفة منزلهم في المغرب، كل هذا بفضل «جوجل» وأَصدقائه، في حالة كهذه يصبح هو الحبيب والصديق والرفيق. الليلة أَنا عريس افتراضي فلأَتمتع بليلتي. ليذهب جوجل إلى الجحيم مرة أَخرى.

طوال الطريق كان زيدان يتملق لنا بشكل فاضح، لم نسأَله، يكتفي أَحيانا بسؤالنا، ويجيب هو عن نفسه.

العربي الذي وجدناه في الفندق صُحبة الشاب الذي ادّعى أَنّه من منطقة بني ملال، كان وجه على عكس زيدان مُشرقا، كأنه لا يُعاني أَية ضائقة مالية، أخبرنا زيدان بأَنه ينام حتى منتصف النهار، يخرج ولا يعود إِلا مع غروب الشمس.

هذه المرة أثار تواجد الشاب البني ملالي مع العربي شُكوكي، فهو في المرة السابقة لم يكن ضمن فوج شاحنة البضائع، رغم ادعائه أنه هنا لنفس الغرض، والأكثر من ذلك لا يمكن اعتباره نزيلا في الفندق الذي يُقيم فيه كل من العربي وزيدان، يظهر ويختفي حسب أهوائه. هذا الشاب الذي ساعدنا المرة الماضية، لم أَعد أُصدق كل ما يقوله، ليلتها أَدخل الرعب إلى قلوبنا معتبرا نسبة نجاح رحلتنا إِلى الدِّيار الإيطالية أقرب إلى الفشل منها إلى النجاح. لأَن كلّ المعطيات تُؤكد ذلك، ناصحا إِيانا بالبحث عن حلول بديلة مُبديا رغبته في مساعدتنا.

هذا الشاب الذي يظهر ويختفي دون أَن نعرف عنه أي شيء، في حين وجدناه يعرف عنا كل شيء تقريبا، بل كان مُلما بكل ما يدور في تونس التي كانت تعج وقتها بالاعتصامات أَمام الوزارة الأُولى فيما سُميَ باعتصام القصبة «1-2». كل يوم استقالات بالجملة ومحاكمات، كما شكلت عودة الشيخ الغنوشي زعيم حركة النهضة الإسلامية حدثا بارزا على الساحة السياسية التونسية وقد استقبله

حشد كبير من الشعب التونسي وهم يُنشدون:

«طلع البدر علينا»

شكلت هذه الحركة الإسلامية الحدث في تونس، كانت موضوع كل وسائل الإعلام، فضلا عن الوضع المتأزم والمتصاعد في ليبيا ومصر، حيث أصبح رحيل كل من حسني مبارك والقذافي مسألة وقت ليس إلّا، في المغرب بدأت حركة 20فبراير تحشد الجماهير عبر وسائل التواصل الاجتماعي، تحثهم على الخروج إلى شوارع العاصمة الرباط. سوريا، اليمن، البحرين، تحركات هنا وهناك، الغليان والتوتر هو الجو السائد في جُل دول العالم العربي.

هذا الشاب الذي يتكلم كأنه سياسي كبير لم نكن نعرف بالضبط إن كان جادا في رغبته العبور معنا إلى الديار الإيطالية، كلّما هممنا بسؤاله تملص بطريقة لبقة يُنسينا بها سؤالنا.

اقترح عليَّ الشاب البني ملالي حسب ادّعائه مرافقته لمشاهدة إحدى مباريات كأس افريقيا لكرة القدم، اعتذرت واعدا إياه أن أُرافقه في الغد، في حين أبدى كل من زيدان والطيبي رغبتهما في مرافقته، بينما فضلنا أنا والعربي البقاء ربما للأسباب ذاتها، كان كل ما يهمني وقتها هو أن أستحم وأرتدي ملابس داخلية جديدة، لم يستغرب العربي رغبتي في أن أخلد للنوم لأُزيل عني مشقة السفر كما ادعيت، كأني بذلك خلصته من إحراج كان لا يعرف كيف يتخلص منه هو الآخر.

- حتى أنا عيان غنمشي للبيت ديالنا أنا وزيدان.

حمدت الله على ذهابه وذهاب الطيبي رفقة البني ملالي حسب زعمه. تلك اللحظة هي الوحيدة التي أحببت فيها ذاك الشاب الذي أتاح لي باقتراحه الفرصة لأختلي بحبيبتي، تمنيت وقتها أن

تنتهي المباراة بالتعادل وأن يحتكموا للأشواط الإضافية والضربات الترجيحية. كانت حبيبتي تنتظرني بكامل زينتها وهي ترتدي فستان نوم أبيض حريري كأنّها عروس تُزف إليّ.

ليلتها اسمعتها من كلمات الغزل ما لم تسمعه مني من قبل، ليلتها تمتعنا، بكينا..، قُلنا أشياء وأشياء كثيرة، حلمنا بالمنزل الذي بنيناه فقط في أحلامنا بجدران غرفه الزرقاء وبحديقته الصغيرة التي سأزرعها وُرودا بيضاء كنّا نعشقها، لأقطف لها كل يوم وردة.

حلمنا بأسماء أولادنا الذين اخترناهم لتُكتب أسماؤهم في قصص الخيال فقط، ليلتها أقسمنا كما لم نُقسم من قبل بأن تظل قلوبنا تخفق لبعضنا بعضا مهما كانت الظروف، ليلتها تمنيت وتمنيت، كنت بارعا في التمني والأحلام فقط، صدقت أحلامي، لحظتئذ اعتقدت أن دُنيا بجانبي بروبها الأبيض، كنت استشعر أنفاسها بجانبي وأنا ألعب بخصلات شعرها، لحظتئذ اعتقدت بأن الحلم قد تحقق وأن جدران الغرفة زرقاء..، كنت على وشك الخروج إلى الحديقة بحثا عن وردة بيضاء لحبيبتي.

عندما سمعت طرقات الطيبي القوية على الباب عرفت أنني بارع كغيري فقط في نسج الأحلام التي تصل أحيانا في مداها إلى درجة الكذب لتتّحد معه وتشكل في الأخير صدمة كبيرة لنا ولمن نحب ويُحبنا. هل كنا نكذب؟ أبدا. كلّ الكلمات التي أسمعناها لحبيباتنا وقلوبنا تشتعل بالحب، لم تكن كذبا، ولم نكن نقصد منها الكذب. كلّ الدلائل كانت تُؤكد ذلك. أسألوا جميع الفتيات اللواتي سمعنها؟ سيقلن لكم إنهن صدقن ما سمعن، إنهن لم يحسسن قط إننا كذب، وإحساس الأنثى قلّما يُخطئ، لم يكن كذبا. كانت أحلاما جميلة عاشت في مُخيلتنا أخرجناها بغباء منا بصوت مسموع،

معتقدين أن هذا العالم سيُنصفنا ونُحقق بعضا منها فقط، لكنه كان أقسى ممَّا اعتقدنا، أصبحت أحلامنا مع مرور الزمن، كذبا وقحا تشمئز منه نفوسنا، كل مَا مَرّ طيفه على ذاكرتنا، حُرمنا حتى من استحضار الذكريات الجميلة، القبل البريئة.. أصبح استحضارها إبرا تخز الذكور منا قَبْل الإِناث، لم نعد قادرين على التمتع حتى بخيالنا. صُودر الخيال كما صودر الواقع. أين المفر إذن؟

لم أكن أَملك غير قلبي لأُحب به وأُفكر به وعندما مات هذا القلب مِتّ معه عندما قتلوه وطعنوه كنت أَنا مجرد هيكل عظمي يمَشي على الأَرض بدون روح. أَلا أَيها الجسد المتعفن أما آن الآوان لتتحلل.

استمرت حالة الطقس المتعكرة في صفاقس على حالها ليومين فقط. في هذين اليومين أَصبحتُ قريبا جدا من العربي، في حين عادت علاقة الطيبي وزيدان إِلى مجراها الطبيعي. كنت أَنا والعربي نتقاسم الرغبة في الخلوة، هو يتواصل مع حياة وأَنا مع دُنيا. كِلا الإِسميين لهما نفس الدلالة. اكتشفت في العربي شخصا آخر، اكتشفت فيه لطفا لم يُظهره في المرة الأولى بل لم يسعَ إِلى إِظهاره.

سمعت قصته بكل تفاصيلها وعرفت أنه يقصد كل يوم المقهى التي يجلس فيها المهربون ليحصل منهم على الدخان وأُجرة الفندق. وأنهم طلبوا منه أَلا يخبر أَحدا بذلك مخافة أَن يصيروا مطمع من هب ودب، ولأَنه لا يعرف كيف يشعر معي باطمئنان غريب يجعله يسرد لي من قصته ما لا يسرده أَبدا للآخرين فهو يروي من قصته كل ما هو كفيل بإِثارة ضحك المستمع ومن ثُم تعاطفه، ليكسب من وراء ذلك بعض الدعم الذي هو في أمس الحاجة إليه، يفعل ذلك مُتعمدا، لكنه معي يختلف الأَمر، فهو يعرف مسبقا أنه لن يجني من

ورائي أي مكسب مادي، ورغم ذلك يسرد لي قصته بكل تفاصيلها مُستشعرا في ذلك راحة نفسية كبيرة كأَنها يجب تُروى لشخص ما بكل صدق.

تعرفت على حياة، رأَيت كلّ صورها معه في آخر عطلة قضاها في المغرب، رأَيت صورة أُمه، والأَكثر من ذلك لم يُخف عني صورة ابن أُخته «اللقيط» وصورتها أَيضا، في حين اكتفيت أنا أَن مكنته من مشاهدة صورة مُحتشمة لدنيا. في هذين اليومين نشأت صداقة وأُلفة من نوع آخر بيني وبين العربي.

هذه الصداقة التي ستُنقذني من مصائب عِدة، وصلت في أحيان كثيرة إِلى حد الموت في ذلك المعسكر الجحيم، حيث حرص العربي طوال معرفتي به بأَن يقوم بحمايتي بكل الوسائل المتاحة، هو نفسه قال لي أَكثر من مرة: أَنه لا يعرف لماذا يفعل ذلك؟ تعرض مرة للزجر والتعنيف وصل إِلى حد التحقيق معه لأسبوع كامل، بتهمة نقل معلومات من المجال الذي كان يعمل فيه للغير.

وقتها حسب قوله نقل لي مالم يقله للمحققين لمدة أُسبوع كامل، استطاع أَن يُقنعهم بأَنه لا يعدو أن يكون شخصا «بوهالي» كما كان يُقال عليه، في حين لم يكن العربي يوما ولن يكون «بوهاليا» أَو «بهلولا» حسب المفهوم العربي العام.

يومان كانا كافيين ليرتبط فيهما مصيري بمصير العربي في كل شيء، بينما ارتبط فيهما أَيضا مصير كل من زيدان والطيبي ليموتا ويُقتلا وأَيديهما متشابكتين كأنهما يُؤكدان هذا الارتباط في سفر آخر إِلى عالم آخر حيث لا يوجد لا ظلم ولا تهميش ولا إِقصاء، حيث توجد العدالة وتتجسد بكل معانيها الحقيقية.

كنت والعربي نغتسل كل يوم من الجنابة الافتراضية، لأَستطيع

أداء واجباتي الدينية، في حين كان العربي لا يحتمل أن يبقى بجنابته يُحس كما قال: أن هناك صخرة تجثم على أنفاسه مالم يغتسل ويتخلص منها.

في صباح اليوم الثالث. طلب مني الطيبي أن استعجل في اغتسالي لأن فرحات قد اتصل طالبا منا التوجه حالا إلى مقهى «معز» في شارع «5 أوت» وسط مدينة صفاقس، وأن نترك جوازات سفرنا عند صاحب الفندق.

بدت أعصاب الطيبي مشدودة وهو يحثني على الإسراع مستغربا استحمامي كل يوم ومُتهما إياي بالبطء فضلا عن كوني لم أتعلم شيئا من نصائحه وأن زيدان «حربي» أكثر مني بكثير.

في الشارع المقابل للمقهى كان كل شيء جاهزا، وجدنا من أرشدنا بإشارة طالبا منا الدخول مباشرة في صندوق شاحنة مغلقة مُعدة لنقل اللحوم، في المرة السابقة كنا في شاحنة لنقل البضائع، هذه المرة تمّت ترقيتنا وتم نقلنا على متن شاحنة لنقل اللحوم، كانت تفوح منها رائحة اللحم المُقزز تزكم الأنوف. أعتقد أن يومها قد قُرر مصيرنا واعتُبرنا مجرد كومة من اللحم البشري لا روح فيها.

كنا تقريبا أربعة وعشرين شخصا. ستة مغاربة والبقية كلهم تونسيون، الغريب في منظر التونسيين الذين شاركونا الرحلة يومها، كان مُريبا كانوا في حالة يقظة وخوف ظاهر، بالإضافة إلى الأوشام المنحوتة بطريقة مُقززة على أجسادهم، تحمل تارة شكل قلب مجروح وأغلب العلامات كانت تحمل معنى الأم في إشارة واضحة معبرة عن حُبها. ناهيك عن السواعد التي لا تخلو من أثار جروح بالسكاكين أو موسى الحلاقة. قيل لي إنهم يقومون بجرح أنفسهم دلالة الخطورة ويحرصون في الغالب أن تكون الجروح مكشوفة، إذ

يكفي أن يُشاهد الضحية المُراد سلبه ما يملك هذه الجروح لِيستسلم مباشرة دون مقاومة في أغلب الأحيان، كما تمنحهم هذه السواعد المشوهة هيبة في الشوارع تجعل الآخرين يفكرون ألف مرة قبل الاصطدام والاحتكاك بهم.

كم كانت دهشتنا كبيرة عندما وصلنا إلى ما يُسمى في قاموس الهجرة السرية مكان «القُونة» لم يكن إلا ذلك الإسطبل القديم الذي رفضنا المكوث فيه أول الأمر. مع فرق بسيط هو تواجد حوالي أربعين أفريقيا من جنسيات مختلفة. السينغال غانا، نيجيريا، مالي، الكاميرون.. كانت أفريقيا كلها هناك، لا أُنكر أن تواجدهم خفف عنا بعض المرارة والامتعاض إذ كان مؤَشرا واضحا بأن الرحلة على وشك الانطلاق وهذا ما أكده «فرحات» رغم أن هذه المرة لم تكن هناك احتجاجات.

أكد لنا فرحات: أن الإقامة هنا لن تدوم أكثر من يومين على أبعد تقدير وأن الفوج مكتمل ولله الحمد. طالبا منا مساعدته بالتَّحلي بالصبر إذا كان يهمنا فعلا العبور إلى الضفة الغربية، كما علينا أن نتبع بدقة تعليمات الفرقة المُكلفة بحراستنا.

كأننا قطيع غنم نعم كانوا بعصي وهراوات وسيوف كانت تنقصهم الكلاب فقط والتي سنكون على موعد معها في المعسكر «الداغشي». والذين سيسهرون على تلبية حاجياتنا من غذاء إلى آخره. وفي الأخير أتم كلامه مهددا من لم يدفع مبلغ «الحرقة» سابقا بالقتل إن لم يجد بحوزته المبلغ المطلوب والمتفق عليه يوم الرحلة.

– اسمعو يجيني واحد نهار المشية يقلي أمي أُختي أنا زوالي فقير منيِّك نذبحوا بالسكين هاذي. تسمعوا في؟

لم تكد سيارة فرحات المرافقة للشاحنة أن تُغادر. حتى طلب منا

رئيس «الكونة» المسمى لَسْعد نحن المغاربة والتونسيين أن نجتمع. وبأن مبادئه التي تستند إلى ميثاق الأُمم المتحدة والتي لا تمت بصلة إلى كل الشرائع الإنسانية والتي تتماشى وتتوافق مع سياسة العهر العالمي ونظامه، لا تسمح له بأن يتركنا ننام هنا مع هؤلاء «الوصفان» على حد تعبيره ذوي الرائحة الكريهة.

كلُّنا أيّدنا كلام لَسْعد، استبشرنا به واعتبرناه انتصارا وإنصافا لتفوق بشرتنا البيضاء على بشرتهم السوداء.

لم يكن المكان الذي يبعد قرابة مائة متر عن الإسطبل بأفضل حال من اسطبل الأفارقة، كان عبارة عن منزل قديم مهجور يتكون من غرفة نصف محمية من السقف يتوسطها حصير وغطاء لا يكفي لأربعة أشخاص على أبعد تقدير.

الجميل في الأمر أننا نحن عشرة شبان من استولى على الغرفة في الليل حيث كنّا نتناوب النوم فيها، نصف الليل الأول لخمسة والنصف الآخر للفوج الثاني. بينما فضل الآخرون السهر في باحة المنزل مستأنسين بالنار المشتعلة والتي لا تخبو أبدا طوال الليل وبقوارير الشراب الأحمر «وسلتيا» الخضراء، يشربون الخمر طوال الليل ليخلدوا للنوم في الصباح.

اكتشفنا في هذين اليومين بأن أغلب الشباب التونسي الذين كانوا معنا وقتها والذين سيشاركوننَا الرحلة الأُخرى جلُهم هاربون من السجون التي فُتحت أبوابها إبان الثورة والانفلات الأمني في تونس.

هرب أغلب السجناء، كلّهم هاربون من أحكام طويلة الأمد نتيجة جرائم قتل ومتاجرة في المخدرات، الغريب في الأمر أن هؤلاء والفرقة المكلفة بحراستنا رغم وجوههم التي تُوحي بما لا يدع مجالا

للشك أنهم مجرمون من الدرجة الأولى، لم يفكر أحدهم بالاعتداء علينا أو سلبنا ما نملك، بل كانت معاملتهم لنا يشوبها الكثير من العطف والحب، رفضوا بشكل قاطع أن نساهم بنقودنا في جلب المأكولات.

يقوم لَسْعد رفقة فرقته المُدججة بهراواتها وسيوفها المُخيفة بالسطو لثلاث أيام متتالية على معسكر عفوا مُخيم «الأفارقة» طالبا منهم مَنْحه يورو واحد أو ما يُعادله من العملة التونسية عن كل شخص منهم. ثمن ما يجلبه من طعام والذي لا يتعدى بالنسبة إليهم علبة سردين وخبزة صغيرة يشترك فيها اثنان، في حين نحظى نحن بعلبة سردين وخبزة كاملة لكل واحد منا، ناهيك عن الحلويات والماء المعدني والمشروبات الغازية والخمر المتاحة أمامنا دون رقيب، لم يكتف لسعد بذلك مع الأفارقة بل قام صحبة أصدقائه بتجريد كل من يملك من الأفارقة أحذية رياضية تحمل ماركات عالمية بالإضافة إلى الهواتف وكلّ ما هو ثمين، كان يكفي أن تقع أعين لسعد وفرقته على شيء ثمين حتى يقوموا بمصادرته فورا.

حرص لسعد وعصابته على إعطاء مبررا أخلاقي وقانوني لأعماله والتي تستند إلى ميثاق الأمم المتحدة، التي تفرض علينا نحن أيضا الصمت كما فرضته على دُولنا التي تتفرج في صمت مُشين على أخوتها وجيرانها من الدول الأخرى تُغتصب خيراتها وتُنتهك حرمة أراضيها، ملتزمة الصمت الدال على التأييد المطلق لكل ما تتعرض له هذه الدول من انتهاك لحرمة أراضيها، بل أحيانا تُشارك العدو وتُسهل له الطريق ليقوم بعمله وسلبه على أحسن وجه، نحن يومها شاركنا لسعد بِصَمْتنا وبِتمتّعِنا بغنائمه التي حرص أن يتشارك معنا الرخيص منها بينما احتفظ هو بكل ما هو ثمين.

نفس اللعبة تُلعب في عالم الكبار على مستويات مختلفة تتخذ في الحضيض كما هو الشأن عندنا أبشع صورها أمّا حجم البشاعة الحقيقي فيكفي أن نتصور كيف يلعب أولئك الكبار المحترفون.

كان الأفارقة المغلوبون على أمرهم ينظرون إلينا بخوف وتوجس، لم يتوقف لسعد بتاتا على نعتهم بالهمجيين الذين يأكلون القرود في بلدانهم وبأنه تفوح منهم رائحة غريبة في الصباح تزكم الأُنوف.

لم أُصدق كلامه وفكرت أن أزور الإسطبل الخاص بهم في الصباح. ملحوظة: أنا لا أُقدم نفسي هنا شخصا مثاليا، لحظتها لم أكن إلا واحدا من جماعة لسعد تمتع بالرخيص من غنائمه. ولا يمكن أن أُنكر أن ما كان يدفعني وقتها لم يكن فيه شيء من التضامن مع الأفارقة فَحُب الاستطلاع كان هو الدافع الأساسي ربما لأسباب أنا نفسي كنت أجهلها وقتها.

كان العربي في مجموعتنا أكثر شخص يحظى بالتضامن، ليس لأنه أفقرنا بل هناك من كان أفقر منه بكثير، لكن لسبب بسيط هو أنه أب قد ترك وراءه اثنين من أبنائه وهو الوحيد المتزوج في مجموعتنا. في المقابل كان هناك في ذلك الإسطبل الإفريقي أكثر من أب، لم يحظَ بتعاطف أي واحد منا وإن كان قد ترك وراءه أكثر من ابن. لم أُصدق عندما استطعت أن أُكسر حاجز التوجس والخوف وقضيت برفقتهم يوما كاملا.

سمعت فيه من المآسي الإنسانية الشيء الكثير رأيت كيف أن أبناء «باتريس لومبا» يتسولون، كيف أن أبناء هذا البطل الأفريقي العظيم الذي ضحى بحياته من أجل ألا يرى أبناء وطنه تُنتهب ثرواتهم، تُنتهب مناجم الألماس في «الكونغو» حاليا «الزايير» سابقا.

ليُضطر هؤلاء تحت وطأة برامج تستهدف تفقيرهم تاركين وراءهم وطنهم وأُسرهم، كان أَغلبُهم متزوجين وأباء رغم حداثة سنهم.

تركوا الغرب هناك في وطنهم بمعاولهم وآلاتهم برفقة الخائنين من بني جنسهم ينهبون خيراتهم دون رحمة، ليبحثوا هم أبناء الوطن في رحلة محفوفة بالمخاطر، بالموت والإهانة عن بعض فُتات خيرات بُلدانهم.

قتل ملك بلجيكا بالتعاون مع باقي الدول الغربية أكثر من عشر ملايين من أنصار «باتريس لومبا» زعيم أفريقيا بلا منازع قتلوهم ليخرسوا كل أَصوات الضمير الإنساني المُطالبة بالعدالة الإنسانية، ولينهبوا كل خيرات أفريقيا الكثيرة من نفط، ذهب، الماس، نحاس، حديد وفوسفاط.. ينهبونها ليُشيدوا بها الطرقات والمدن والقصور والمسارح، ويزرعوا الزهور لِيُسوّقوا لنا صورة لِمزرعة الجمال الغربية التي ارتوت بدماء أَبنائنا وبخيرات أَوطاننا ليتمتع مواطنوهم بمنح البطالة ومنح الولادة ومنح الحب ومنح.. ونتمتع نحن بمنح الحرمان والجهل..

لم يكن الأفارقة ذوي رائحة عفنة كما قال لسعد على لسان النظام العالمي العاهر، هذا النظام الذي حرمهم بناءً على ذلك لسنوات عديدة من هذا القرن مشاركة البيض كل الأَماكن التي يرتادُوها بنو الجنس الآري من مطاعم وباصات وحدائق.. إلى كل من يتكلم عن رُقي هذه الحضارة فلينبش قليلا في ذاكرة التاريخ القريب لِيُزيح القناع عن كلّ الأَكاذيب التي تُسوَّق كل يوم لتُجمِّل الصورة القبيحة والمشوهة لهذه الحضارة التي كان حريا بها ألا تدعي بوقاحة تبنيها للمبادئ والقيم الإِنسانية النبيلة.

كان من بين الأفارقة كما كان من بيننا من هو نظيف ومتسخ، كان

المكان هو المتعفن وليس الأشخاص وجدت في ذلك المكان القذر شبابا على مستوى عال من الثقافة. كان أغلب أفارقة ذلك الإسطبل مسلمين لكن لم يشفع لهم إسلامهم بأن يُعاملوا معاملة الأخ في بلاد المسلمين. كانت العنصرية حاضرة في كل مكان وستبقى كذلك مادامت تحملها عقول وقلوب مُعاقة عليلة ستبقى موجودة.

في اليوم الثالث من «القونة» بعد منتصف النهار طلب منا «لَسْعَدْ» أن نستعد لأن موعد الرحلة قد تقرر تلك اللّيلة. كان الاستعداد عبارة عن حشو كل ما عندنا من ملابس في كيس بلاستيكي، هذا هو الاستعداد. بعد ذلك طلب مني «لسعد» أن أرافقه إلى إسطبل الأفارقة حيث طلب منهم بحركات بهلوانية الاستعداد للرحلة وهو يُحاول جاهدا التحدث باللغة الفرنسية ينجح في قول كلمة واحدة مشوهة متمًّا البقية بالعامية شاتما إياهم بأفظع الشتائم ومتوعدا من لا يملك ثمن «الحرقة» كاملا أنه سيكون مسرورا بأن يقتص هو بنفسه منه.

- عندي مدة نحب ن.. واحد وصيف إن شاء الله يطلع واحد منهم معندوش حق الحرقة ن.. أمي ما ن.. قدامكم.

ذاك المساء كنا أكثر التفافا وتضامنا، بدأت هواجس أخرى تتسرب إلى النفوس، بدأت علامات الخوف في الظهور على الوجوه ليصبح لونها أصفر، بدأ الخيال باستحضار الجثث التي طفت أكثر من مرة على مياه البحر المتوسط وصور الأهل والأحباب.

تمنينا لحظتئذ لو كنا نملك حلا آخر، بدت للحظات بعض الحلول التي كانت مُتاحة في بلداننا من أعمال لا تذر علينا إلا النزر القليل من المال لا يكفي لسد احتياجاتنا الشخصية، ناهيك أن تُشكل أرضية لبناء حياة وأُسرة، لحظتئذ بدت تلك الحلول في

صورة جميلة، ربما احتاجت إلى القليل من الصبر لتتطور بل لنتأقلم معها ونرضى بما توفره لنا، لحظتها اكتشفنا أنه كان ينقصنا الكثير من الرضى وأن تطلعاتنا كانت أكبر بكثير من المعطيات والمؤهلات التي نتوفر عليها. لُمنا أنفسنا أنّنا لم نكن نملك الصبر والرضى الكافيين لنتقاوم.

بعد الغروب انتقلنا كلنا إلى إسطبل الأفارقة كلّ واحد منا يحمل كيسه الأسود في يديه، في منظر يشبه كثيرا المناظر التي تعرضها الشاشات العالمية لجثث تطفو فوق الماء، ذاك المساء لم نكن سوى جثث بشرية مُنهكة تمشي على الأرض وهي تتشبث بالأمل فقط والرغبة في غد أفضل.

يجب أن تَتصور عزيزي القارئ ماذا يعني أن تُقامر بحياتك وأنت تعرف مسبقا أنَّ هناك احتمالا كبيرا أن تفقد هذه الحياة، يجب أن تتصور ذلك وتتخيله علك تستطيع أن تلامس جزءا بسيطا من المعاناة التي دفعت ولا زالت تدفع أمثال هؤلاء للقيام بذلك.

لم يكونوا يملكون أي مكسب داخل أوطانهم لا يملكون إلا تلك الأجساد المنهكة والتي تصرخ من الجوع والعطش بكل أنواعه هُم في عمر الحب وآفاق الحب كُلها مسدودة، هُم في عمر الإنتاج والعمل ولا يملكون عملا حقيقيا يرقى بهم إلى مستوى الإنسان المستقل والمُطمئن إلى دخل محترم.

يجعلك العمل في الشركات الأجنبية الموجودة بكثرة في بلداننا. تعيش خوفا مستمرا نتيجة لقوانين العمل المُجحفة في حق العامل، إذ تكون مُلزما على العمل لمدة أربعة سنوات متتالية ليتم «ترسيمك» أي تصبح في مأمن من الطرد والإيقاف وأن تتمتع بحقوقك المهنية بشكل كامل مما يعني استحالة ذلك لأنهم يحرصون أن تكون أغلبية

عقود العمل متقطعة كي لا تحظى بهذا الحق.

يجعلك هذا في خوف دائم، وهذا ما ينعكس سلبا على كل مخططات الاستقرار وتكوين أُسرة. لا يملكون إلا أجسادهم ولا يملكون الخيار إلا أن يقذفوا بها في البرك الضحلة من الحياة، كلٌّ حسب اختياراته وقناعاته.

لم يساورنا أي شك بأنَّ تلك الليلة هي الموعودة. كلّ شيء يُنبئ بذلك. طقس جميل هادئ، الرياح تكاد تكون منعدمة. بعد ساعة تقريبا ظهرت شاحنتان مغلقتان مُعدتان لنقل اللحوم الحمرا ء، برفقة سيارة فرحات الذي كان يرافقه شخصان أَفريقيان عرفنا من مهاجمة الأفارقة لهما أنَّهما سماسرة يعملان لحساب فرحات وعصابته. بأُسلوب فظ يُنم عن التعالي والعجرفة طلب منا السيد فرحات أَن نقسم إلى مجموعتين وطلب من السمسارين الأَفريقيين أَن يُترجما كل ما يقوله لبني جلدتهما.

بدا فرحات للحظة في عيني كطارق بن زياد وهو يخطب في جنده قائلا لهم:

«البحر من ورائكم والعدو أَمامكم وليس لكم إلا الصبر وما غنمتم من أَعدائكم»

في حين كان البحر أمامنا والعدو المتمثل في الفقر والجهل والإقصاء الذي تتفنن الطغمة الفاسدة من حكامنا تجسيده ببراعة على أرض الواقع وراءنا.

اعتقدت أَنَّنا فعلا ينطبق علينا وضع جنود طارق لكننا هنا لا فرحات طارق ولا نحن جنود طارق.

افتتح فرحات خطابه العظيم التاريخي مؤكدا: أَنَّ اللَّيلة هي

موعد الرحلة، وأَنَّه قد اختار لنا قاربا كبيرا مُعدا للصَّيد في أَعالي البحار وأَن أَرواح الناس ليست لعبة بين يديه وأَنَّنا محظوظون لأَنَنا اخترنا السفر عن طريقه، إذ لم يسبق أَن سُجل في تاريخه فشل أَي رحلة قام بها. فهو يختار قواربه بدقة كما يعمل لحسابه «رايس» من أَفضل رجال البحر في تونس كلِّها، وهذا ما يُفسر فقره وعدم ثرائه لأَن القسم الكبير من المبالغ التي يأْخذها يُنفقها على صيانة القوارب ويُسدد بها راتب «الرايس» والفرقة المكلفة بخدمتنا إضافة إلى السماسرة الذين يتمتعون بعمولة محترمة ربما فاقت في أَحيان كثيرة نصيبه هو شخصيا. من سمع خطبة فرحات سيعتقد وهو يقول: إن ما يقوم به هو عمل إنساني محض ينتظر الثواب عليه من الله لأنه الوحيد القادر على مُكافأته.

بعد ذلك انتقل السيد «بربروس فرحات» إلى مراحل الرحلة حيث ستنطلق حوالي التاسعة ليلا، وغدا مع الفجر سنكون بحول الله في جزيرة «لامبدوزا» الإيطالية، حيث سيتم اعتقالنا من قبل خفر السواحل الإيطالية ليسلمونا إلى مركز إيواء تابع للصليب الأَحمر، هناك سيهتمون بنا ويمكنوننا من ملابس جديدة ومن إجراء مكالمات هاتفية نُطمئن من خلالها ذوينا، محذرا إيانا من حمل أي ورقة تثبت هويتنا وأن نُنكر جنسياتنا الحقيقية. الأَشخاص الذين يجدون بحوزتهم ما يثبت هويتهم يتم ترحيلهم مباشرة ويتم إرجاعهم من حيث أَتوا. بعد شهر على أَبعد تقدير سيُسمح لكم بدخول التراب الإيطالي والأوروبي والتجول فيه بكل حرية مع بطاقة «دعه يمر».

- غادي عاد برى شيخوا رواحكم ون.. الحالة ودعيو مع خوكم فرحات.

بعد هذه الخطبة العصماء التي أَلهبت مشاعرنا وجعلتنا نعتقد أَنَّنا

في إيطاليا، بدا لحظتها كل شيء سهلا، نسينا كلَّ خَوفنا، كأنّنا سنسافر على متن «تيتانيك» أو إحدى البواخر العملاقة. طُلب بعدها من الذين لم يدفعوا سابقا ثمن «الحرقة» أن يُشكلوا مجموعة ليدفعوا.

كان لسعد يَعُد النقود بينما يرميها فرحات في الكيس البلاستيكي، استغرقت هذه العملية تقريبا ساعة كاملة. حوالي نصف الأشخاص دفعوا وقتها بمن فيهم أنا والطيبي.

رفض لسعد رفضا قاطعا أن يتشارك معنا الأفارقة ركوب الشاحنة، حيث أُجبروا وهُم حوالي أربعين شخص بأن يتكدسوا في شاحنة واحدة كالسردين، في حين فرض لسعد إرادته واحتفظنا بشاحنة مستقلة عمن هم دُوننا حسب عُرف لسعد والمجتمع، في رحلة الهروب من الظلم والإقصاء الاجتماعي الذي نُمارسه ونتفنن في ممارسته بدورنا على من نعتقد كذبا أنّنا أحسن منهم، نهرب من وضع ليس لأننا نرفضه بل لأننا لم نكن محظوظين فقط لنكون جزءا منه نتمتع بكل امتيازاته لا غير..

بعد حوالي نصف ساعة في الشاحنة التي كان واضحا من سرعتها وكثرة المطبات أنها تسلك طريقا غير معبد لتفادي الاصطدام برجال الشرطة، توقفت في مكان مظلم وأطفئت جميع الأضواء ليُطلب منا أن نكمل المسافة المتبقية مشيا على الأقدام إلى الشاطئ حيث ينتظرنا القارب.

كان لسعد وفرقته يتقدموننا ونحن نتبعهم مِنّا من بدأ بنزع سرواله في الطريق مخافة أن يبتل وهو يقطع المسافة الفاصلة بين الشاطئ والقارب.

وصلنا إلى شاطئ من شواطئ صفاقس المُعد مصب لقنوات الصرف الصحي للمدينة، كانت الرائحة قوية لدرجة لا تُحتمل،

كما كان علينا حسب توصيات لسعد أن نمشي فوق هذه القاذورات على الشاطئ لنصل إلى القارب الذي سيظهر بعد أن يُطلق له لسعد شهابا ناريا سيرد عليه الرايس بإشارة ضوئية من القارب.

كلنا فوق الصخور أَعصابنا مشدودة قلوبنا يَملأها الخوف، لم نكن نملك غير الدعاء. للحظة مرت أمام أَعيننا كل الأشياء التي قمنا بها واعتبرناها شريرة. لحظتها تمنّينا لو أنّنا لم نفعلها، تمنينا لو نستطيع العودة للوراء لنُكفر عنها لنطلب الغفران من أَصحابها، تمنينا لو كنا أَكثر لطفا مع ذوينا، تمنينا أشياء وأَشياء. في لحظات كهذه يملأ قلوبنا التسامح بل يصبح هو المسيطر عليها حتى لنستغرب من ردود أَفعالنا الغريبة تُجاه مواقف قديمة بدت لنا لحظتها تافهة ولا تستحق كل ذلك الغضب وتلك القسوة في ردة الفعل. كانت المواجهة مع البحر بأمواجه وزرقة عُمقه أقوى مِمّا توقعنا وتصورنا.

بعد أَن أَعطى لَسْعد أَوامره الصارمة بأَننا سنكون أَول من يصعد للقارب قبل الأفارقة أَطلق الشهاب الناري. لم نتلقَ أَي رد بدأنا كلنا نبحث عن الإشارة الضوئية لم يكن هناك أَي شيء، طمأَنَنَا لسعد وقال إِن هذا أَمرٌ وارد جدا، أن يكون الرايس في الطريق إِلى هنا من المرفأ وأنه يحتفظ بشهابين اثنين كما سيقوم بالاتصال بفرحات ليستجلي الأَمر، هنا بدأ خوف آخر يتسرب إلى النفوس ومع ذلك لم نكن نملك إِلا أَن نُصدق لسعد الذي أكد لنا أَن القارب في طريقه إِلى هنا وبأنه سينتظر نصف ساعة أُخرى حسب توصيات فرحات ويُعيد إِطلاق الشهاب الناري.

لست أَدري لماذا لم نشعر وقتها بالبرد؟ فقد كانت درجة الحرارة حوالي ثماني درجات حسب السيد جوجل بالإِضافة إِلى نسيم البحر الذي نحن على شاطئه في تلك الساعة من الليل شبه عراة،

لم نتجرأ على ارتداء ملابسنا مخافة أن يظهر القارب الموعود في أيَّة لحظة. لم أمتلك القوة والجرأة على التقاط صورة لي هناك وتعليقها على حائطي في «الفايسبوك» كما فعلت في رحلة القطار في الدرجة الأولى، تلك الدرجة التي داعبت غروري وجعلتني التقط أكثر من صور دلالة أن ذاك هو مكاني الذي استحقه.

تُرى على أي درجة سنسافر عبر هذا القارب؟ على أتعس درجات الضمير الإنساني درجة غير موجودة في كل التصنيفات العالمية غير مُعترف بها لكنها موجودة وتعيش وتُنظم رحلاتها كل يوم كل ساعة كل دقيقة ربما الآن.

كم ندمت بعدها على عدم التقاطي لأي صورة في ذلك المكان وبتلك الهيئة، بعدها ندمت أشد الندم على عدم فعل ذلك. لأن تلك الصورة فقط وليست صورة القطار من كانت تعبر بشكل واضح لا لُبس فيه عمَّا أنا عليه، تلك الصورة التي لم تُلتقط تُعبر عن ذاتي، عن قهري، عن غُربي، عن فقري..، وحدها فقط تستحق أن تكون الصورة الرسمية لحائطي وأن تكون صورتنا الجماعية على ذلك الشاطئ هي صورة غلاف الحائط، كونوا متأكدين لو كنت أمتلك بعض آليات الدعاية العالمية وقدراتها على الإقناع لأصبحت هذه الصورة هي الصورة الرسمية لملايين الشباب الذين استبدلوها بصور مرت عبر مجموعة من التطبيقات ليظهروا في الصورة التي يتمنون أن يكونوا عليها وليس في الصورة التي هم عليها في الحقيقة.

مرت ساعة الانتظار تلك كأنها سنة ليُطلِق لَسْعد شهابا آخر لم نتلق هذه المرة أيضا أية إشارة. لينطلق التذمر وبدأت الأَصوات في التعالي وبدأ صياح لَسْعد الذي طلب منا السكوت بحزم لأن ذلك يشكل خطرا علينا إذ لا يجب أن ننسى أو نغفل عن رجال الأمن.

يكفي أن تُسمع أصوات غير عادية لتحضر الطامة والعامة ويُزج بنا جميعا في السجن.

- سكتونا ز.. امكم تحبوا دخلونا للحبس.

ساعده على ذلك كل الشباب الفارين من السجن كان ذكر الشرطة فقط كفيلا بأن يُسكتهم، استبدلوا عبارات التهديد بالاستعطاف طالبين من لَسْعد التصرف مُذكرين إياه أنَّهم فارون من السجن ولن يتحملوا العودة إليه. وإن كانوا سيعودون فإنهم يُفضلون قتل فرحات الذي سرق نقودهم وهرب.

لم يكن أمام لسعد إلا التراجع وعلامات الخوف تسيطر على مُحياه مؤكدا للجماعة بأن لا علاقة له بفرحات وأنه مثلهم مهدد بل ويشاركهم نفس المصير، طالبا من الجميع الانتظار لنصف ساعة أو ساعة أخرى على أبعد تقدير. في حين لم نكن نسمع من الأفارقة إلا الهمهمات غير المفهومة الدالة على الاحتجاج كلما هَمَّ أحدهم بالاستفسار بشكل لطيف قُوبل طلبه بردة عنف كبيرة تكاد تصل إلى الرغبة في الصفع.

ساعة أُخرى من الانتظار كأنها سنة تجاوزنا منتصف الليل بقليل بدأنا نفقد الأمل بشكل نهائي أَطلق لسعد آخر شهاب بحوزته، انتظرنا نصف ساعة أُخرى لا إشارة تُذكر. هنا لم يكن أمامه إلا أن طلب منا بشكل أقرب إلى التوسل الانصراف لأن تواجدنا هنا أَصبح يشكل خطرا علينا كلما اقترب الصباح، وأن كل الدلائل تُشير إلى أن «فرحات» لن يبعث بالقارب فهو لم يعد يجيب على اتصالاته كما أن هاتفه مُقفل.

طلب لسعد من جل التونسيين أن يتأكدوا بأنفسهم من صدق كلامه، كان كل ما يهم لسعد وقتها أن يدرأ التهمة عن نفسه حيث

اتهمه أَغلب الحاضرين بالتواطؤ مع فرحات طالبين منه أَن يرشدهم إلى مكانه.

- والله وراس ميمتي الغالية كيفي كيفكم والله لا نعرف بلاصتو ها نومروه تحبو تاخذوه خوذوه كلموه.

- والله ز.. أمو حتى نخرجوه كي يكون في كرش الحوت طحان مش راجل.

- يزي بلا حس يزي يسمعنا حد يجيو البوليس ين.. اللكل. أضاف لسعد

كان ذكر الشرطة هو الوحيد الكفيل بإخماد غضب الشباب التونسي. غادروا وهم يتوعدون فرحات محذرين لَسْعد إِذا تبين لهم أنه شريك فرحات هذا فسيقتصون منه أَيضا.

كاد الطيبي أَن يُغمى عليه، زيدان وجهه رغم ظلام الليل كان أَصفر تستطيع أن تُنير به الطريق، أنا لم أَكن أَفضل حالا مِنهما، الوحيد الذي بدا متماسكا فينا هو العربي، أَلأنه تعوَّد على الصدمات؟ أَم أَنّه اختبر أَوجه الحياة السيئة أَكثر مِنّا، لم يتكلم لم يقل أَي شيء كان يرتدي ملابسه بصمت رهيب وهو يواسي كل من زيدان والطيبي، الأَخير لم يتمالك انهار باكيا.

اتجهت إِلى حيث الأفارقة ونقلت لهم كلّ ما قاله لسعد مُوضحا لهم أَنّ بقاءهم هنا فيه خطر كبير على سلامتهم، وأَنّهم مهددون بالسجن والتسفير إلى ليبيا في حال تم القبض عليهم، طالبا منهم أَن ينسحبوا في مجموعات لا تتجاوز أربعة أَشخاص على أَبعد تقدير كي لا يُثيروا الانتباه. لم استمع أَبدا لاستفساراتهم ولم تكن عندي الرغبة لأُجيبهم عنها. أَحسست أَنه يتوجب عليَّ تحذيرهم وقد فعلت.

الفصل 8

الضياع

ما دمت لم تعش وضعي، وظرفي.. فاحتفظ بانتقاداتك لنفسك.

لا تملي عليّ مثاليّة لم تخلق على الأرض «ولن تخلق».

ارتدينا ملابسنا وأَحذيتنا وغادرنا نحن الأَربعة لا نعرف إِلى أَين؟ لم يكن عندنا ولا فلس واحد ولا نعرف أَين سنقضي ليلتنا وإِن كنا سننجح هذه المرة كما في المرة السابقة في تفادي الاصطدام بأيِّ دورية شرطة.

غير بعيد من الشاطئ حيث كنا نمشي في أَرض خلاء غير مأهُولة بالسكان، وجدنا منزلا في طور البناء دخلنا إِليه افترشنا الأرض صامتين لم نتكلم لم نتبادل أَية كلمة كنا نمشي كأَننا نُساق إلى مصيرنا في تسليم مطلق، كأَن المنزل خرج فجأة من العدم لم نعرف متى نمنا وكيف نمنا، كل ما عرفناه أنه في الصباح أيقظنا صاحب المنزل بشكل فظ كأنه يُوقظ كلابا ضالة مسعورة ويبعدها عن منزله. طلب منا أَن نبتعد فورا وإِلا أَبلغ عنا الشرطة ناعتا إِيانا بالحثالة

والمتشردين وأن البلاد قد امتلأت بأمثالنا الذين يستحقون عنده الموت أو السجن فقط.

دخلنا بعد نصف ساعة من المشي إلى حي من أحياء صفاقس لم نكن نعرف اسمه وغير قادرين على تحديد موقعنا، منظرنا يوحي بالتشرد تفوح منا رائحة الصرف الصحي لا يمكن أن نمر أمام مجموعة من الناس دون أن نسترعي انتباههم بمناظرنا المزرية وأكياسنا السوداء التي تحمل متاعنا الهزيل.

ذلك اليوم والأيام التي ستأتي بعدها أظهر العربي براعة منقطعة النظير في التعامل مع كل المواقف الصعبة التي تعترض سبيلنا. كان يملك من الأساليب ومن الفراسة في الناس الشيء الذي لم نكن نملكه بل لم نكن نملك الجرأة لفعل ما يفعله العربي بتاتا. مررنا في شارع رأينا امرأة أمام محل حلاقة للنساء تقوم بتنظيف محلها بمجرد أن نظر اليها العربي قال:

- هذه المرأة ستساعدنا.

- كيفاش عرفت؟

- من عيناها، فيهما الرحمة.

قابلنا كلامه بالاستهزاء كلنا، طلب منا الانتظار للحظة ذهب إليها، لم يمض على حوارهما أكثر من ثلاث دقائق حتى أشار إلينا بالتقدم أدخلتنا المرأة محلها واستدعت زوجها الذي حرص هو وهي بكل لطف يحمل في طياته أكبر معاني النبل والتضامن الإنساني أن نتناول وجبة الفطور والتي كانت وجبة محترمة تليق بمن قدمها وتعبر عن معدن صافٍ من الإنسانية التي تتسارع في الانقراض بشكل سريع في عصرنا هذا.

لم تكتف المرأة بذلك بل أعطتنا مبلغ اثني عشر دينار طالبة منا أن نستقل سيارة أجرة صغيرة إلى المدينة القديمة حيث أخبرناها أننا نريد أن نذهب لاسترجاع جوزات سفرنا والعودة إلى مدينة تونس العاصمة، رفضت المرأة وزوجها بكل لطف أن تشتري منا إحدى هواتفنا الجوالة التي عرضناها عليها بثمن بخس.

- خليو تيلوفوناتكم عندكم توا تُفرج ولاد الحلال موجودين.

في مدخل المدينة القديمة في صفاقس وفي نفس المكان الذي اعترض فيه سبيلنا ليلة المحطة أنا والطيبي وجدنا طارق الشاب البني ملالي حسب زعمه واقفا نفس الوقفة في نفس المكان، هذه المرة لم يسألنا كما سألنا سابقا.

- انتوما مغاربة؟

هذه المرة يعرف أننا مغاربة بل ويعرف أننا سنعود، عندما رأيناه اعتبرنا أنفسنا محظوظين لم نكن وقتها ندرك اننا برؤيته سنصبح من أتعس مخلوقات الأرض سنتحول في غفلة منا بغباء إلى مجندين في معسكر مختص لصنع آلات الدمار، مختص في صنع وحوش إنسانية، نحن الذين كنا للحظات قصيرة نحلم بغد أجمل، بمنزل، بأسرة، سنصبح شيئا آخرا شيئا تعافه كل النفوس التي تحمل في داخلها أخلاق الإنسان حتى البدائي.

استبشرنا خيرا برؤيتنا طارق اعتبرنا أنفسنا محظوظين هرعنا إليه نشكو إليه حظنا وحالنا معترفين بتفوقه علينا وأنه كان على حق في كل ما قاله، في حين تعامل معنا هو بكرم حاتمي، رافقنا إلى الفندق حيث كنا نقيم أعطى أوامره لموظف الاستقبال في الفندق الذي ما إن راه حتى هب واقفا وهو يُبصبص ككلب في دلالة واضحة على معرفة سابقة.

لم نلاحظ ذلك وقتها استرجعنا كل الوقائع المريبة عند فوات الأوان عندما كان السيف قد سبق العفو. طلب طارق من موظف الفندق أن يُمكننا من أَحسن الغرف عنده وأنه سيتولى هو دفع المصاريف وأَنَّنا أَحرار في أَن نسترجع جوازات سفرنا وقتما نشاء.

لم يكتف أميرنا بذلك بل أَعطى لكل واحد منا مبلغ عشرين دينار طالبا منا وهو يتصنع عطفا أبويا أَن نتصل بذوينا وألا نُخبر أَحدا بفشل الرحلة لأن رحلتنا الحقيقية تنتظرنا وستنجح، وأَنَّنا أَشخاص محظوظون للغاية، لأَن هناك مفاجأة أَكثر من رائعة تنتظرنا، كل ما علينا فعله هو أَن نتمتع ونرتاح وسيعرج علينا غدا أَو بعد غد على أَبعد تقدير.

كأَننا في حلم لم نصدق كل ما سمعناه عند مغادرة طارق، طلب العربي من موظف الاستقبال في الفندق أَن يُريه جواز سفره وأَن يُمكنه منه مُبديا رغبته في المغادرة والعودة إِلى تونس العاصمة حالا.

- الأولاد أنا راجع دابة للزهراء وسيمنة أخرى نكون في المغرب صافي بركة عليّ.

اعتذر الموظف بشكل لبق، مُؤكدا أنه لا يحق له أَن يحتفظ في الفندق بجوزات سفر غير المقيمين فيه، غدا سيكون باستطاعتنا كلنا استرجاع جوازاتنا إن رغبنا في ذلك طالبا منا أَن نصعد لنرتاح ونغير ملابسنا حيث سيطلب من أَحد موظفيه إكراما لتوصية سي طارق أَن يستلم منا ملابسنا المتسخة لغسلها على حساب الفندق مستغربا عدم ذكرنا في السابق معرفتنا بصديقه طارق الذي يكن له كل الاحترام والتقدير.

دخلنا غرفتينا في الفندق حوالي العاشرة صباحا، بعد الاستحمام وتغيير ملابسنا الكريهة عاد إِلينا الإحساس بآدميتنا، بأننا بشر،

في ذينك اليومين السابقين لم نكن بشرا لم نكن ننتمي إِلى حضيرة الإنسانية والتي لا يمكن أَن تتجسد أَبدا في الوسخ، الجوع، والجهل حيث وُجدَ هذا الثالوث نكون أَبعد ما يكون عن الإنسانية وحيث وجدت آلات بشرية تدعم وتزرع هذا الثالوث لا يمكنها أَبدا أَن ترقى لمستوى الإنسانية رغم أَناقتها المفرطة وعيشها على النبيذ الأَبيض والكافيار والسيجار الكوبي.

هؤلاء من يدعم ويصنع هذا الثالوث ليسوا أناسا وإِن كانت مناظرهم توحي بذلك هم مجرد آلات للقتل والنهب هم بشر بصفات لا تمت بصلة حتى للحيوانات التي تقتل وفق ضوابط تُراعي توازن الطبيعة. هذه المخلوقات الجديدة من البشر من لا إسم لهم ولا دين.

استسلمنا بعد الاستحمام بالماء الدافئ لنوم عميق، كل ما كنا نحتاجه وقتها هو الراحة بعد التعب نتيجة الأَعصاب المشدودة طوال ثلاثة أيام. حرص العربي أَن يتشارك معي غرفتي في حين فضلًا كل من الطيبي وزيدان أَن يتشاركا الغرفة الأخرى.

استيقظت حوالي الساعة الخامسة بعد الزوال كان النوم بعد العصر دوما بالنسبة إلِيَ عذابا حقيقيا. استيقظ منه في حالة نفسية غريبه اكتئاب مع ضيق في الصدر وصداع في الرأس، أَوضاعي الآن كلها تصب في هذا الاتجاه بالنوم عصرا أَو من دونه.

لم أجد العربي في السرير المقابل، هاتفي مغلق لا أُريد أَن أَفتحه سأصطدم بعشرات الرسائل من أَمي وإِخوتي ودُنيا، ليست لدي القدرة والشجاعة لأُواجه أحدا بفشلي لن أقول لأحد ما حصل ولن أَفتح الهاتف.

كنت مستلقيا على ظهري أَتمعن السقف محاولا تحديد وضعي

الحالي وكيف سأتعامل معه، واحتمالات الخروج منه، أصبح مُتأزما أكثر من السابق تذكرة الطيران إلى المغرب لازالت سارية المفعول تفصلني عن موعد الرحلة عشرة أيام، كيف سأمضيها هنا؟ أنا لا أملك أي فلس. فكرت في بيع هاتفي الجوال الذكي يكفي أن أعرضه في المقهى بسعر مُغر لأحصل على تذكرة القطار إلى تونس حيث أستطيع تغطية احتياجاتي اليومية بالباقي بل يمكنني أن اشتري بعض الهدايا للعائلة بالباقي.

أحسست أنّني سأُودع وسأتخلص من أعز صديق، هذا الهاتف هو النافذة الوحيدة التي تجعلني أعيش في عالم أنا راض عنه تمام الرضا، لسنوات عديدة أتاحت لي شاشة هذا الهاتف الهروب من عالمي المُقزز، الهروب من عجزي الذي يقتلني ويؤرقني.

ساعدتني شاشة هاتفي على صنع عالمي الخاص داخلها، صنعته كما أُحب أن أراه وكما أُحب أن أعيشه، حتى صوري أختارها كيفما أشاء أُغير وجهي، أمحو بعضه ممّا لا يعجبني فيه، أخلق نفسي من جديد كل يوم، كما أُريد لأجعله يعجبني ويعجب كل من يرى صورتي على الشاشة، لأكتشف أن ذلك هو أنا وليس أنا على ما أنا عليه في الحقيقة.

علامات الاعجاب والتعليقات تؤكد ذلك تطلب مني أن أتشبث بصورتي الجديدة أن أُناضل لتحقيقها. شاشتي الهاتفية تُتيح لي أن أُغير ملابسي كلّ يوم، كلّ دقيقة، وأن أُضيف إليها كلّ الألوان التي أُحب وعلامات الماركات العالمية لأظهر بصورة الشاب العربي الأنيق الوسيم. حلم كل فتاة عربية كما تُتيح لي زيارة أماكن لم أزرها من قبل لكنني زرتها. التقطت صورا فيها كل صوري في «الفيسبوك» أمام برج إيفل وتاج محل وكل عواصم العالم صوري على شاشتي

الذكية تؤكد زيارتي لهذه الأماكن، ناهيك عن علامات الإعجاب والتعليقات التي تزيد من تأكيد ذلك.

في البداية كنت أتعامل مع هذه التعليقات بحذر شديد، كنت أشك أن النية منها هو الاستهزاء مني، لكنني كنت مخطئا فقد أصبحنا مع مرور الوقت متفقين ضمنيا على قبول كل ما نعرضه على جدراننا الزرقاء على أنّه حقيقة. حتى الأصدقاء المقربين الذين كانوا متأكدين أن ذلك ليس صحيحا يساهمون بتعليقاتهم ليجعلوا منه حقيقة، نفس الشيء يكون مطلوبا منا عندما يقومون هم بإضافة شيء مماثل على جدرانهم الزرقاء.

هنا أغير ملابسي كيفما أشاء، وأزور من الأماكن ما أحب، وأنا في الواقع لم أقم بأي شيء من كلّ هذا، مع مرور الوقت بتُّ أُفضل العزلة على الاختلاط بالناس، كي لا يتفطنوا ويُلاحظوا الفرق. حصرت نفسي في المجموعة التي كانت تعرف الحقيقة كنا نضحك في أول الأمر مُتهمين الآخرين بالغباء ونحن نقرأ تعليقاتهم وكيف انطلت الحيلة عليهم لنكتشف أن الحيلة قد انطلت علينا نحن، مع مرور الوقت لم يعد الأمر مُضحكا. أصبح منبع للكآبة والأمراض النَّفسية لم نعد نحب أنفسنا كما هي، أحيانا لا نعرف وجوهنا في المرآة يختلط علينا الأمر.

أي واحد نحن وأيُّ عالم هو الحقيقي من بين عالمين نعيش فيهما بالتوازي بشخصيات مختلفة ومتناقضة مع بعضها تماما، الحقيقية تعيش فقرا مدقعا والثانية في بحبوحة من العيش. الافتراضية جميلة أنيقة والحقيقية.. بت أرتاح بالتواصل مع الناس من غرفتي البائسة ومن شاشة هاتفي الغنية، كيف أُفكر إذن ببيع هذا العالم الجميل الذي صنعته عاما بعد عام؟ كيف هان عليَّ أن أتخلص من

الكائن الوحيد الذي ساعدني على الظُّهور للجميع كما أُريد أن أَظهر وبالصورة التي أُريد؟ مع هذا الهاتف وهذه الشاشة فقط أَحسست أنني شخص مهم، فهل أَتخلى عنه بهذه السهولة؟ لا.. لا.. لا. لن أبيع هاتفي، عالمي، ضللت مُتمسكا به إلى آخر لحظة، إلى أَن صُودر مني كما صودرت أنا جسدا وروحا وأَحلاما أنا وآلاف الشباب مثلي. لتتم إعادته لي مع بقية أَغراضي التي صُودرت وقتها بعد مُضي أَكثر من ثلاث عشر سنة في المصحة النفسية، قبل أَن أَعود بشهور قليلة إلى بلدي ووطني المغرب.

أَيقظني من سرحاني دخول كل من زيدان والطبيبي الغرفة وجهاهُما يُنبئان عن أَنهما لم يناما كما ينبغي بادرني الطبيبي:

- فين العربي؟

- مانعرفش خرج وأَنا ناعس.

- هههههه مشى للقهوة لي كان كيتلقى فيها بفرحات وكيدور معاه كيصحبني مفخباريش وماكانش باغي يقول. يخدم في مخو كيما يقولو التوانسة.

أَضاف زيدان الذي اكتسب جرأَة زائدة بعد رضا الطبيبي عليه مُتهكما

- خليونا من هاد الهدرة الخاوية والسوق الخاوي ديال العربي باغين نعرفوا واش عاداك حتى أَنت. اش درنا حليتي تليفونك؟

- لا ماحليتوش. علاش كتسول آخويا؟

- لاحقاش أَنا وزيدان باغين نستناو طارق حتى يجي ونشوفو يمكن عندو خيط صحيح.

أَجبته ضاحكا مُستهزئا مما أفقده صوابه، كان الطبيبي سريع

الاشتعال والغضب والتهور إلى أَبعد الحدود كما كان أَبعد ما يكون عن أَقل حسابات المنطق البشرية هو وزيدان لولا ذلك لكان وضعنا غير الذي كان بتاتا، طول الوقت كنا نعتقد بأَن العربي هو الجاهل والأُمي بيننا لكن الأَيام أَثبتت أَنَّه مُتخرج من مدرسة حقيقية برامج تعليمها غير مُلغمة وغير مسمومة، مدرسة الحياة والتجربة في حين كنا نحن ننظر إِليه من برجنا العاجي مُصدقين في وهم كاذب مزروع فينا عمدا أَنَّنا الأذكى والقادرون على التفكير الصحيح.

- إلاعندو خيط صحيح حنا ماعندناش الفلوس غيهزنا الله في سبيل الله. أَجبت متهكما بدوري

- علاش لا كاينين الرجال في هاد الدنيا تعقل كي عاوننا وعلاش دابة كيعونا لاحقاش راجل وسيد الرجال وكيعرف بِحَق الرجال.

- الطبيبي نعل الشيطان واش هادا غيهزنا احنا بربعة بلاش. فين كاينة هادي؟

قاطع نقاشنا دخول العربي باكيا مُنتحبا كأنه طفل صغير، لم يُكلم أحدا استلقى على سريره وأَسلم نفسه لبكاء تتفتت له القلوب. هرعنا إِليه كلّنا نحاول استطلاع ما حدث ونحن لا نعرف كيف نواسيه ولا عمَّا نواسيه. مذكرين إياه بأنه كان أَشجعنا. كيف انقلب فجأَة هكذا؟

عرفنا منه بعد أَن هدأَ بأَنه قصد فعلا المقهى التي كان يجلس فيها فرحات وشلته ولم يجد لهم اثرا هناك، سأَل عنهم النادل أَجابه: بأَنه لا يعرفهم ولا يُعتبرون حرفاء دائمين في المقهى وأَنهم ظهروا هناك حوالي أُسبوعين فقط.

لم يكتف العربي بذلك كان الوحيد فينا الذي لم يغلق هاتفه

اتصل بسي عبد الله الذي طلب منه العودة إلى الزهراء فورا هو وزيدان وبأنه سيسترجع نُقودهما ولحسن الحظ أن المبلغ المدفوع للتاج السمسار لم يتجاوز الخمسمائة دينار. التاج الذي اعتذر بدوره لعبد الله مؤكدا بأنه لا يعرف إلى حد الساعة الأسباب الحقيقية التي دفعت فرحات إلى إفشال هذه الرحلة بهذه الطريقة التي تفتقد إلى الرجولة حسب رأيه وأنه لم يسبق لهم أن قاموا بتصرف مثل هذا بتاتا كما أعرب عن استعداده ليعيد له المبلغ المدفوع.

هنا انفرجت أسارير زيدان بشكل لا يصدق مضيفا:

- مزيان إلا كان عند طارق خيط صحيح حتى بالفلوس نعاود نحرق، نمشي عند عبد الله نقولو يدبر لي فلوسي ماشي شغلي فيه.

في حين سألت العربي إن كان ما تقوله صحيحا فالأحرى بك أن تضحك وتفرح بدل البكاء.

ما يبكيك بهذه الطريقة؟

- أُمي أُمي أُمي المسكينة.

- مالها ماتت؟

- لا لا مريضة وخصها دير عملية.

كنت أعرف أن هذا ليس هو السبب الرئيسي لنحيب العربي وبُكائه المرير فهو بارع دائما في إخفاء الأسباب الحقيقية لكل ردود أفعاله، انتظرت حتى خرج كل من الطيبي وزيدان طالبين منَّا أن نلتحق بهما إلى المقهى المعتادة حيث يأملان أن يجدا فيها طارق.

خرجا ليبدأ العربي وحده دون أن أطلب منه ذلك. سرد أسباب بكائه التي كنت أعرف مسبقا بأن حياة وراء كل هذه الدموع، هي الوحيدة التي كانت تملك مفاتيح سعادته وشقائه على هذه الأرض

إنها الحياة. وفعلا صدق ظني واعتقادي قال لي:

تصور يا..كل ما كان يهمها. لماذا فشلت الرحلة؟ وكأنني السبب في فشلها، كادت لولا الخجل أن تقول ذلك صراحة، لم تسأل عن أحوالي. بخير أم لا؟ لم تسأل إن كنت ميتا أو ما زلت على قيد الحياة، ما إن رأت رقم الهاتف الدولي لتونس حتى صُعقت أجابتني بطريقة لم أكن أنتظرها بتاتا.

- ما زلت في تونس حتى أنت وجهك من وجه إيطاليا والو وجه الفقر والزلط يبقى هو..هو ووجه النحس يبقى نحس.

تغاضيت عن إجاباتها اعتبرت أنني لم أسمعها كما كنت أفعل عندما أسمع كلمة «بوهالي» أخبرتها بأن أمي مريضة، طالبا منها أن تقوم بإضافة خمسمائة درهم أُخرى للحوالة الشهرية المخصصة لها. فاجأتني برد آخر لم يكن في الحسبان أبدا، بل لم أكن أتخيل بأنه ممكن الحدوث، أخبرتني بوقاحة أنها اضطرت لأن تستثمر كل الحوالات التي بعثتها وما تبقى من نقود الصيف، اشترت بقرتين لأبيها الذي واجه مشكلة في حساباته خصوصا أن المغرب يعيش بوادر سنة جافة مما جعلها مضطرة لسحب كل النقود الأُخرى لتشتري بها العلف، الذي يتصاعد ثمنه بينما يتراجع سعر بيع البقر كل يوم، وأنها طلبت من موظف البريد إلغاء الحوالة الشهرية المخصصة لأمه لكنه رفض بدعوى أن العقد المبرم مع مكتب البريد غير قابل للتراجع لمدة عشرة أشهر حسب بنوده الذي وقعته نادمة على ذلك.

في الأخير طلبت مني أن أتصرف باعتباري رجل البيت وأن أبعث بحوالة لأولادي إن كنت أملك فعلا حس الأب والذي تَشك في امتلاكي له.

هي تصرف نقودي لشراء علف أبقار أبيها التي اشترتها بنقودي

أيضا. وتترك أولادي جياع ومع ذلك تحملني مسؤولية جوعهم، ما هذا النحس الذي يأتي دفعة واحدة؟ أين كان مختبئا؟ رغم أنَّني أعرفه واختبرته مرارا لكنني لوهلة وخصوصا في الصيف المنصرم اعتقدت أنه فك ارتباطه معي للأبد، وهذا ما شجعني على المغامرة إلى إيطاليا، قلت أَيام النحس ولت وربما هي أَيام العز تنتظرني تريدني أَن أعيش، تجرأت حلمت بسيارة بلباس أنيق.. لم أتصور أَنَّ هذا النحس قد ارتبط بي بعقد أبدي.

ربما في ذاك الصيف كان نائما مريضا يُضاجع امرأة لا أعرف، كل ما أَعرفه أَنَّه عاد مُكشرا عن أنيابه يُريد أَن يقتص من كل لحظة سعادة عشتها في ذلك الصيف في غفلة منه. زد على ذلك اتصالي بأصدقائي في الولجة الذين أخبروني بأن صناعة الفخار في المغرب تراجعت نتيجة اعتصامات حركة عشرين فبراير في الرباط. وأن أصحاب الورشات خافوا ولا يريدون المجازفة بصنع الأواني الفخارية وتكديسها في المخازن وهم يتوقعون قدوم موسم سياحي ضعيف، بالإضافة إلى بوادر الجفاف ناصحين إياي بالتريث ريثما تعود المياه إِلى مجاريها وأنه قد تم تسريح كل الحرفيين الموسميين.

لم أَجد ما أواسيه به لأَنه عبر بشكل صريح عن وضع نتشاركه كلنا مع اختلافات بسيطة جدا، كان هو الأسرع إِلى البحث عن حلول لوضعه. غبطته على سرعته في التنفيذ بينما لازلت أَنا ومعي الآخرون نتقلب يمينا ويسارا في فراشنا ننتظر أَن يأتينا الفرج من مكان لا نعرفه، أَكد العربي بأَنه سيعود غدا إِلى الزهراء مهما كانت الظروف وسيعود بعد ذلك إِلى المغرب ولن يستمع مجددا إِلى توصيات حياة مهما كانت النتيجة.

- سأعيش مع أُمي في القرية وسأعمل أي عمل، مهما كان لن

أقف مكتوف اليدين، نمشي ليها نهار السبت لدارهم بغات ولا مبغات هذاك شغلها.

كان العربي مرتاحا لما وصل إليه من قرار، غَبِطتُّه وقتها من كل قلبي. على الأقل كان يملك برنامجا واضحا ويملك الجرأة الكافية لتنفيذه. في طريقنا إلى المقهى لنلتحق بالأخرين لم ينس العربي تنبيه موظف الاستقبال أنه في حاجة ماسة لجواز سفره غدا صباحا طالبا منه أَلا ينسى وبأنه لا يرى مانعا بأَن يرافقه الآن حيث يقطن ليتسلم جواز سفره إِن أَمكن كي لا يُفوت قطار الواحدة بعد منتصف الليل إِلى تونس.

اعتذر الموظف في أَدب مبالغ فيه مطمئنا العربي أن لا داعي لمرافقته وأَنه غدا في الصباح ستكون جوازاتنا كلَّها حاضرة.

في المقهى وجدنا زيدان والطيبي وحدهما لم يكن برفقتهما طارق كان ذلك كفيلا بأن يتعكر مزاجهما، أخبرهما العربي بأنه غير ملزم بخطتهما وأكثر من ذلك فهو لا يعقد أية آمال على طارق هذا ويعتبره دجالا ونصابا ربما أكثر من فرحات وجماعته.

- منين عرفتيه ماتقولناش من عينيه عاوتني هههههه؟

لم يكن من العربي إِلا أَن أَجاب بكل ثقة في النفس كأَنه طبيب قد قام بتشخيص طارق وهو مطمئن إِلى ما وصل إِليه من نتيجة والتي لا يقبل أَن يشكك فيها أَحد.

- إيه من عينيه باين واحد ذيب مقطر.

هنا لم يكن من الطيبي إلا أن غضب منه غضبا شديدا واتهمه بالجهل وأنّه أُمي جاهل لا يعرف معدن الرجال لأنه تعود التملق والذل وأن ما حدث مع المرأة التونسية الحلاقة لم يكن فِراسة أكثر

ما كان ذُلا مُهينا لنا وأَنَّ طارق تعامل معنا كرجال وساعدنا دون أَن نطلب منه ذلك لأنه يحترم فينا اعتزازنا برجولتنا.

لم يهتم العربي بما قاله الطيبي بتاتا رغم سيل الشتائم التي صوبها تجاهه وهذه ميزة أخرى تُحسب لهذا الشاب الذي بدأت اكتشف فيه أشياء غريبة ومُحيرة، ونحن في طريق العودة إلى الفندق بعد أَن رفض كل من الطيبي وزيدان مشاركته الطاولة، علق على كل ما قاله الطيبي من كلام بكلمة واحدة اعتبره فيها مسكينا لا يعرف أي شيء.

– مسكين مزال صغير ماعرف والو ماقروه حتى حاجة في المدرسة دابة يوصل لكلامي.

كان الكل قد حسم أمره، إِلا أنا الوحيد الذي لم يعرف، ماذا سيفعل؟ كانت مواجهة دُنيا تُؤرقني لا ليست مواجهتها هي التي تُؤرقني بل تصور فُقدانها.

عندما كانت سابقا تذكر لي رغبة أُمها وأبيها قبول من تقدم لخطبتها بالترغيب تارة والترهيب أطوارا، أُغلق الخط في وجهها لم أَكن مستعدا لِسماع ذلك، ولم أَكن قادرا حتى على مجرد التفكير فيه، ست سنوات من الحب. شوارع ومنتزهات مدينتنا تشهد على ذلك، كل بقعة في جسمها تشهد على ذلك شفتاها، نهداها، قلبها..، لا يمكن أَن أَتخيلها تُزف لأَحد غيري، فشلي اليوم في العبور سيؤُزم موقفي وضعي. قالت لي دنيا ليلتها:

يكفي فقط أَن تعبر.. إِلى هناك لا يهم أَن تشتغل من أَول يوم من أَول شهر. العبور إِلى هناك في حد ذاته إِنجاز أَستطيع من خلاله أَن أُواجه عائلتي به، يستطيع هذا العبور أَن يمُدني بالقوة لأصمد غير ذلك لا أستطيع صدقا لا أَستطيع لم أَعد قادرة على تحمُّل همزات

العائلة والأَصدقاء..

عندما ستعبر إِلى هناك ستحصل على الموافقة بشكل آلي، المشكلة ليست ضدك كشخص، أَنت مرفوض من عائلتي كوضع ليس إِلا. بتغير هذا الوضع ستتغير المواقف، أَحيانا تكون بوادر التغيير فقط كافية وحدها ليتغير كل شيء، وجودك ووجود أَي شاب في الغرب في بلاد الأَحلام يعتبر حاليا في أَوطاننا وعند أُسرنا إنجازا كفيل وحده بأَن يفتح كل الأَبواب وتُزف الأَحلام وتفتح فتياتنا سيقانها وفروجها دون حرج وخوف. أُعبر حبيبي إِلى هناك، وعُد وانكح ما شئت من النساء.

– أُمي قالت لي: إِلا وصل تما يولي كلام آخر.

– إِلا ما مشيتش وما وصلتش دنيا؟ أضفت وأنا أعرف الجواب مسبقا

سكتَت للحظة اعتقدت أَو تخيلتها تبكي لكن رغم صمتها أَو بكائها كان الجواب واضحا، تمنيت أن يصدق ظن الطيبي وزيدان في طارق، كذبت كلّ حواسي التي أَخبرتني أَنَّه لا يعدو أَن يكون محتالا، رفضت تصديقها جريا وراء بصيص من الأَمل، تمنيت أَن يحمل لنا لقاؤُه شيئا جديدا مهدئا فقط أَستطيع أَن أُداري به فشلي أَمام عائلة حبيبتي الذين لم يتقبلوا وضعي في المغرب.

رفض أَبوها الموظف المتوسط الكبير أَن يتقدم شاب لابنته بمؤهل عامل في مصنع، رفض رفضا باتا، تذكرت يومها كيف رسبت في الباكالوريا شعبة آداب عصرية كيف قال أُستاذي للغة العربية أَثناء حفلة تكريم المتفوقين في الباكالوريا من أبناء ثانويتنا:

كنت اعتقد جازما بأنني سأجد اسم تلميذي.. المتميز في قائمة المكرمين لهذه السنة، لكن للأسف لم أَجد اسمه في قائمة الناجحين،

صِدقا شكل ذلك صدمة كبيرة لي، لكنه يبقى على الأقل بالنسبة إلي كأستاذ لمادة اللغة العربية من التلاميذ المتميزين والقلائل الذين يحفرون أسماءهم في ذاكرة أساتذتهم، سأكرمه أنا بصفة شخصية واعلموه أن يتفضل ليستلم جائزته من الإدارة.

كانت الجائزة عبارة عن أعمال جبرا إبراهيم جبرا ورواية مدن الملح للكاتب العظيم عبد الرحمان منيف، ليلتها وأنا أتصفح الإهداء الرقيق من أُستاذي يتمنى لي فيه حظا سعيدا ويحثني أن أصقل موهبتي الأدبية متمنيا أن أتجاوز محنتي كيف ما كانت لأن مكاني هناك بين المتميزين حيث افتقدني وحيث يريد أن يراني السنة المقبلة.

يومها بكيت فشلي الذي صنعته بيدي، يومها وأبي يُهددني بأنه لن يصرف عليَّ فلسا آخر بعد اليوم، وهو يدعوني إلى أن أتدبر أمري، لأنني خيبت أمله، هَمّ بطردي ليلتها باعتباري فاشلا لولا تدخل أُمي. أبي الذي لم يتحمل صدمة رسوبي، أبي الذي لم يدّخر جُهدا في دعمي، منحني كل ما طلبت. كل الدروس الخصوصية التي أوهمته أنّني أتلقاها أعطاني ثمنها، في حين كنت أصرف نقودها على ملذاتي أنا والشلة. أمي اعتبرت رسوبي نتيجة عين حسود أصابتني أو ربما لسحر يجب أن يُفك.

كنا خمسة أولاد وخمس فتيات كنت الأقل مالا فيهم من مجموعة تضم متوسطي الحال والأغنياء. صديقي الحميم «الطيب» أبوه وضع تلك السنة، سنة البكالوريا التي أسميناها بالإجماع سنة الإجهاض. وضع رهن إشارتنا إحدى شققه الفاخرة المؤثثة لنُراجع ونطالع فيها دروسنا استعدادا للنجاح في امتحانات الباكالوريا. اتخذناها مقرا للعشق والحب، كنا ندرس نصف ساعة لنتفرغ للحب ما تبقى من الوقت، بل كنا في أحيان كثيرة نتغيب عن دروسنا ونرابط في شقة الطيب.

عندما أَعْلمتنا حنان صديقة «الطيب» بأنها حامل، شعر يومها صديقي بالفخر وبالزهو من فحولته مُتهما إياي ودُنيا بأنّنا ربما لا نقوم بأي شيء عندما نختلي أو ربما يكون أحدُنا عاقرا، طالبا منا زيارة الطبيب في أقرب فرصة، لم يتردد صديقي في سؤال دنيا عن أحوال فحولتي لتجيبه الأُخرى كما يقول الليبيون أنني مية مية. اضطرت حنان لبيع قلادتها الذهبية، واضطر الطيب لبيع دراجته النارية ليدّعيا الاثنين أمام عائلتيهما أن أغراضهما قد سُرقت.

في عيادة خاصة لجزار بشري في مدينة الرباط، رافقت الطيب وحنان لتجري عملية الإجهاض. كم كانت دهشتنا كبيرة عندما وجدناها ممتلئة بمجموعة من الفتيات اللواتي لا تتجاوز أعمارهن في الغالب عشرين سنة، كانت دهشتنا أكبر عندما وجدنا ثلاثة منهن من ثانويتنا. المتبرجات والمتحجبات كلهن من تملك مهبلا ورغبة لم تستطع كبحها كانت مهددة بالمرور عند هذا الجزار البشري الذي يستقبل كل يوم العشرات منهن.

عندما خرجت حنان من غرفة العمليات كانت عبارة عن ورقة تتقاذفها الرياح، لم تكن قد استفاقت بشكل كامل من البنج، هاتفنا دنيا طالبين منها أن تنتظرنا في المحطة حيث رافقت حنان إلى منزلهم مُدعية بأنها أُغمي عليها في المدرسة، طوال أسبوع كامل تأتي حنان في الصباح إلى الشقة حيث تركت أدويتها لتنام حتى موعد العودة للمنزل.

بعدها حملت كل من هند وسميرة لتكونا على موعد مع نفس الجزار وفي نفس العيادة، الوحيدتان اللتان نجتا من شلتنا هي دنيا وسعيدة. كم من مرة تحت تأثير النشوة طلبت مني أن افتض بكارتها لكنني في الأخير أتراجع، كنت أتوخى الحذر عندما أقذف بسائلي المنوي، أحرص دوما أن يكون بعيدا عن مهبلها. ولا يعني هذا أن

الشك الذي زرعه الطيب في أَن يكون أَحدنا عاقرا لم يتسرب إِلى نفوسنا، في أحيان كثيرة كنا نعتقد أَنا ودنيا ذلك.

في تلك السنة لم ينجح أَحدٌ من مجموعتنا. كان مصيرنا الرسوب عاودت حنان حملها للمرة الثانية، هذه المرة كان أوان الإجهاض قد فات، ليعقد عليها الطيب القران ويُطلقها بعد ستة أَشهر من الزواج تحت ضغط والديه وتهديدهما.

انخرط الطيب في تجارة وأعمال أَبيه ليُحب أَكثر من مرة وأَكثر من فتاة بينما حنان لم تتجاوز صدمتها أبدا، فقدت توازنها، فقدت الرغبة، رغم أَنها لم تكن فقيرة الحال لكنها كانت إِنسانة ترفض الخيانة والغدر فضلت أَن تبقى أُما لابنها الذي أَسمته «التُّهامي» على اسم أَب الطيب الذي حرمها من الطيب ولم تحرمه هي من رغبة ابنه في أَن يخلّد اسم أَبيه.

كل قصص شلتنا فشلت وتبخرت إلا قصتي أَنا ودنيا هي الوحيدة التي ظلت تقاوم. في مدينة طنجة حيث اشتغلت في إحدى الشركات الأجنبية لم أُحقق شيئا يستطيع أَن يُرضي تطلعات حبيبتي وعائلتها، ولكنه كان كافيا بأَن يُرضي تطلعات العشرات من الفتيات الأُخريات.

ما ذنبي أَنا إِن أَحببتكِ أَنت لم أكن أعرف وقتها مكانة أَبيك المرتشي ووظيفته، وقتها كنت أَعرف فقط لون عينيك، أَعرف دقات قلبك وقلبي وقد التقت دون إرادة مني ومنك، من أَول يوم من أَول نظرة أَحببنا بعضنا بعضا، صرتُ أَعرف طعم شفتيك الذي يتحول بتحول الفصول، يختار من كل فصل أَجمل فاكهة ليتخذها مطعما، أَعرف من رائحة جسمك أَن كنت حائضا أَم لا، أَنت بنفسك تستغربين ذلك، ما ذنبي إِن كنت لا أَستطيع أَن أُحب

فتاة أُخرى غيرك.

صدقيني حاولت أَكثر من مرة لكنني لم أستطع، كنت أَراك في وجوه كل النساء اللواتي أُصادفهن، كنت أَرى ابتسامة شفتيك حين يتسمن أَهُمُّ أَحيانا أَن أُناديهن باسمك، كلُّ النساء في عالمي اسمهن دنيا لا يمكن أَن أَتخيل امرأة لا تحمل هذا الاسم.

اليوم حبيبتي أعرف أَنك لن تستطيعي الصمود أَكثر. اليوم حبيبتي أَعرف أَنك سترفعين الراية البيضاء فلتهنئي، فلتسعدي، أَرجوك لأنني أُحبك ولأَنني أَحببتك أَتمنى لك السعادة من كل قلبي: أَحـــبـــك.

قصة حبنا حبيبتي أَنستني نفسي والآن نفسي تطلب مني بل العالم كله يطلب مني ويُجبرني على أَن أنساك، كيف السبيل إِلى نِسيانك؟ بل كيف السبيل إِلى العيش دونك؟ أَنت من أَتنفس. أَنت رئتي أَنت قلبي..

ليلتها لم يعرف النوم طريقه إِلى عيني، حزم العربي أَمتعته وحسم رأيه في العودة إِلى مدينة الزهراء ومن هناك إِلى المغرب، لم يتصل ليلتها بحياة ظلَّ طوال الليل لا يجيب على رسائلها ومكالمتها على «الوات ساب» في حين ظلَّ طيف دُنيا مسيطرا على كل حواسي بشكل كامل، لم يفارقني بتاتا كنت أَتصورها باكية دامعة وهي تُزف إِلى أحد غيري، أَستيقظ مذعورا من شبه نوم بدأ يداعبني. فتحت هاتفي وكتبت لها:

– آسف فشلت الرحلة فشلت.

كنت أَعرف أَن مدلول فشل الرحلة يحتمل أَكثر من معنى، لم تفشل رحلتي إِلى إيطاليا فقط، رحلتنا أنا ودُنيا ونحن نتصارع من أجل أَن نُنقذ حبنا هي التي فشلت، كنَّا ضحية كل الأَعراف

والتقاليد والظلم الاجتماعي.

لم نكن نطلب شيئا مستحيلا، كانت دنيا مستعدة أَن تعيش معي كما أَنا زارتني أَكثر من مرة في مدينة طنجة في رحلة تنطلق من الرباط في الصباح الباكر لتعود بعد العصر كنا حريصين على سرقة أَيّ وقت يمكننا أَن نقضيه معا. الآن انتهى كل شيء انتهت الرحلة فشلت الرحلة واعتقد بل أَنا متأكد أَنها فهمت مدلول الرسالة ومعناها كما يجب أَن يُفهم. كتبت رسالة أُخرى لأَخي أُخبره نفس الشيء وأَعدت غلق الهاتف من جديد.

أيقظت العربي وأَعلمته أَنّني سأُرافقه غدا سأَعود إِلى المغرب، سأَعود لأَدفن أَحلامي هناك في وطني هناك وُلدت وهناك يجب أَن تُدفن اللياقة تقتضي ذلك. سأعود لأُقلّم ما تبقى منها سأَجعله يتوافق مع ما أَملك من معطيات ومتاع الدنيا وليس دنيا حبيبتي، سأُعلّم قلبي أَلّا يُحب أَلّا يطمع فيما لا يمكن أن يناله سأقوم بكيّه عند أَكبر عرّاف في المغرب.

فرح العربي كثيرا بهذه الرفقة بل قرر أَن نعود للمغرب في نفس الطائرة وأَقسم أَن يستضيفني ليوم في منزلهم في القرية لأُكمل بعدها سفري إِلى إقليم زمور القريب كثيرا من مدينة سلا، لن أَعود إِلى مدينة طنجة لن أَعمل مجددا في أَي شركة لن أَرضى بالكفاف. ارتحت كثيرا لهذا القرار بل ارتحت أيضا لتشجيعات العربي الذي طلب مني أَن أَعيش الحياة ببساطة لأنها بسيطة فعلا. أجبته ضاحكا:

- أَنت العربي تطلب مني أَن أعيش الحياة لأنها بسيطة، ولأنك تعيشها ووجدتها كذلك رغم تمردها أَحيانا. ولكنني يا صديقي أنا لا أَعيش الحياة ولا أَرغب فيها لأن الحياة يعيشها الجميع بحلوها ومرها أَنا أُريد أن أَمتلك جزءا بسيطا من الدنيا، ومن يمتلك بعضا

من دنيا من يمتلكها ويعيش معها لن يشقى أَبدا، تكفي ابتسامتها فقط لتنقلك إِلى نعيم لم تحلم به قط. أَفهمتني صديقي؟

عرجنا في الصباح على غرفة الطيبي وزيدان اللذين لم يصدقا عزمنا فعلا على الرجوع هكذا، كان يعني ذلك بالنسبة إليهما الاستسلام من أَول امتحان مُذكّرين إيانا بأَن هناك من المغاربة من عاود المحاولة أَكثر من مرة لينجح في الأَخير ويصل إِلى ما يريد. وأَن طارق قد قدَّم لنا عرضا يستحق على الأقل أَن نسمعه ربما يكون فيه من الإيجابي ما لا نعرفه وما هو كفيل بتغيير موقفنا. كان إِصرارُنا أَكبر من كلِّ الحُجج التي حاولا إِقناعنا بها. تمنينا لهما حظا طيبا وانصرفنا.

لم نغب طويلا. في مكتب الاستقبال لم نجد الموظف الذي أَودعنا عنده جوزات السفر والذي وعدنا أَن يُسلمها لنا صباح ذاك اليوم. وجدنا موظفا آخر لا نعرفه البتة حيث أَنكر معرفته بأَمر الجوزات طالبا منَّا أَن ننتظر عودة الموظف الآخر الذي خرج مضطرا في إجازة مفاجئة نتيجة وفاة أُمه.

يومها فقدت السيطرة على أَعصابي طلبت منه عنوان الموظف أَو أَن يُرافقنا هو إِلى منزله حيث يُقيم، تذرع بأَنَّ أُم الموظف تقطن مدينة أُخرى طلبنا منه أَن يتصل أَن يفعل شيئا. قام بالاتصال برقم وجده خارج التغطية.

أَمام إصرارنا وصياحنا حيث رفضنا مغادرة مكتب الاستقبال وخروج بعض النُزلاء من غرفهم لاستطلاع جلية الأَمر. بدأت نبرة الموظف تتصاعد معتبرا نفسه غير مسؤول عما نحن فيه، طالبا منا إن كنا نملك الحق والجرأة فمركز الشرطة قريب من هنا حيث نستطيع تقديم بلاغ ضد الموظف.

- بروا لمركز الشرطة لي عندو حق ياخذو أَما ما ننصحكُمْش

راكم عارفين.

ناصحا إِيَّانا بالصبر حتى يعود، لأَننا سنكون مضطرين لذلك. علينا أن نفكر قبل القيام بالتبليغ ضد زميله، علينا أَن نختار بين أَن ننتظر هنا في الفندق معززين مكرمين أو في مركز الإِيقاف تحت ظل الإهانة والتحقيق وسؤال وجواب، كيف؟ ولماذا؟ وأنتم تعرفون الباقي بطبيعة الحال.

أمام هذا التهديد المبطن الذي استقر في أذهاننا بشكل واضح، اقترح العربي أَن نعود إلى غرفتنا لنهدأ وننتظر ما دمنا لا نملك غير الانتظار. مكتوب على أَمثالنا أَن ينتظروا ستجدونهم دائما في طوابير ينتظرون كل شيء في المستشفيات في الإدارات أَمام مكاتب البريد.. حتى أمام بائع الخبز ننتظر، الكثيرون منَّا انتظروا أَشياء كثيرة.. لكن عندما وصلهم الدور وهم ينتظرون كانوا في قبورهم.

استقبل الطيبي وزيدان خبر غياب موظف الجوزات بفرح ظاهر، اتَّهمونا بغياب الحس الإنساني باعتبار الرجل معذور. والموت لا يستأذن أحدا. لم يستمعا بتاتا لشكوكنا باعتبار الأَمر يعنيهما هما أيضا وأننا نشتم رائحة غريبة.

– اه بالصح نتوما علماء من النازا الأَمريكية باغين باسبوركم فيقوا شوية ماعندو ما يدير بيه رجعتوه لينا باسبور أمريكي.

لم يقتنعا بتاتا بل استهزئا بشكوكنا معتبرين أَن لا مطمع في جوزات سفر الدول الفقيرة. في حين كان غياب الجواز في حد ذاته ضربة قاصمة لكل مخططاتنا الجديدة، الأتعس من ذلك أَنَّ طارقا لم يظهر بعد.

بدأت علامات الخوف والترقب تسيطر علينا كلَّنا بتنا نتشارك الرغبة في ظهوره، لم نجد ما نفعله يومها إِلَّا الانتظار. كان للأَكل

في المطاعم الرخيصة لمدينة صفاقس مذاق أَمر من العلقم، فقدنا القدرة على استطعام أَي شيء نأكل لأَنه يجب أَن نفعل لنسكت جوع بُطوننا ليس إِلا، رابطنا في المقهى الذي جلس فيها مرة طارق من الثالثة بعد الزوال إلى حدود الثامنة والنصف، أَوشك صاحب المقهى أَن يطردنا.

وأخيرا ظهر طارق، كان ظهوره بالنسبة إِلينا ظهور فارس لا بل ظهور نبي طال انتظاره ليخرجنا من الغواية إلى النور، هرعنا إِليه هروع الطفل لرؤية أَبيه الغائب وهو يحمل في يديه لعبته المفضلة التي وعده بها.

يومها تصرف معنا كأَطفال، كلُعب في يديه وكنا نحن كالصلصال بإمكانه أَن يصنع بنا ومنا ما يشاء وكان له ما أَراد، هرعنا إِليه نشكو له ضياعنا في غيابه افتقادنا له، استغرب وهو يتصنع الغضب تصرف موظف الفندق مؤكِّدا أَن سيكون له موقف مع صاحب الفندق نفسه، وأَنَّ كرامته لا تسمح له بتاتا أَن يرى أَبناء بلده يُهانون هكذا، وأَنَّنا لو استمعنا لنصائحه من البداية لما ضاعت نقودنا ولكان حالنا الآن أَفضل ولَكُنَّا فعلا في القارب الصحيح الذي وصل فعلا البارحة إِلى شواطئ «لمبدوزا» الإِيطالية.

رافقنا إِلى الفندق احتج كثيرا أَمام المكتب معتبرا أَن هذا لا يجوز وأَنه علينا أَن نسترجع جوازاتنا وإلا سيقوم هو بنفسه بالتبليغ عن صاحب الفندق. هذه المرة تعامل معه الموظف بشكل غريب حيث قدم كل الاعتذارات مصحوبة بكل الضمانات الكفيلة باسترجاع الجوازات في أَقرب فرصة ممكنة معتذرا وأنه كان يتعين علينا في الصباح أن نذكر صلتنا بالسيد طارق لو فعلنا ذلك لرافقنا وقتها إِلى حيث يُقيم الموظف لأَن سي طارق له أَفضال كبيرة وكثيرة على

الفندق وصاحب الفندق.

- اسمع سي طارق إلا مارجعش سليم من هنا ثلاث أيام أنا نمشي بروحي نجيب ليهم باسبوراتهم كون متهني سي طارق حتى الإقامة هنا بلاش اسيدي على حساب الفندق.

كان هذا كافيا بالنسبة إلينا لنعيد فعلا تقييم هذا الشخص الواقف أمامنا والذي كنا نتعامل معه في السابق على أنّه واحد منا ويتشارك معنا نفس الظروف، ليتضح لنا أنّه شخص مرمُوق، كريم، مُهاب، غني. لحظتئذ نظر إلينا كل من الطيبي وزيدان نظرة فيها كثير من الاحتقار لما ذهبت إليه ظنوننا في هذا الفارس المغوار.

اعتذر طارق بأنّ عليه أن يغادر طالبا منا أن نكون مطمئنين وأنه لم ينس المفاجأة التي وعدنا بها لأنّه يفي دائما بوعوده، لم يكتف بذلك أعطى هذه المرة أيضا لكل واحد منا ورقة أخرى من فئة عشرين دينارا حيث حرص أن نرى ما بداخل محفظته التي كانت ممتلئة عن آخرها بأوراق العملة الأجنبية من فئة مائة يورو. أضاف مازح:

- باغين الفلوس بالدينار التونسي ولا باليورو؟

انصرف طارق ليتركنا كما كنا لم يُقدم لنا شيئا ملموسا، مجرد وعود في الهواء ألهبت مشاعرنا وخيالنا وتركتنا على جمر من الانتظار المُر. لم يعد عندنا من عمل إلا انتظار طارق، والتحدث عن بطولات طارق وعن جمال ومروءة طارق وإنسانيته، دون أن ننسى بطبيعة الحال محفظته التي كانت أجمل ما رأينا والتي كان تأثيرها فينا أقوى من تأثير السحر بل كانت السحر بعينيه.

غاب طوال يومين من ذلك اللقاء ليظهر في اليوم الثالث حيث كنا قد فقدنا كل شيء، فقدنا القدرة على التفكير، وَجدَنا في حالة انهيار تام كل ما سيطلبه سي طارق سيُنفذ بالحرف الواحد.

طلب منا أن نرافقه إلى حيث يُقيم، تفاجأنا كانت أمامنا سيارة رباعية الدفع طلب مني أن أركب بجانبه في المقعد الأمامي، في فندق الخمس نجوم «سوريفاكس» حيث كان يُقيم سي طاق كانت أعيننا وعقولنا تسرحُ في عالم آخر مشدوهين بفعل الصدمة التي تُحدثها الفخامة في النفوس عند أول لقاء بها.

عُوملنا على أنّنا ضُيوف من الدرجة الأُولى، في مطعم الخمس نجوم ذاك حيث تتيح لك الرؤية التمتع بالاخضرار والورود المرصوفة بعناية، إضافة إلى منظر المسبح، تقوقعنا لم نعد قادرين على ذكر اسم طارق وحده دون أن يكون مقترنا ب «سي» أو «سيد» طارق تصل في أحيان كثيرة إلى الرغبة في قول سيدي حيث يكون حرف الدال منحنيا ومنكسرا عندما ننطقه.

بعد العشاء الذي كان مذاقه كافيا لتستقبله كلّ الأَجهزة الهضمية وغير الهضمية بالزغاريد والهتاف كأنّنا لم نأكل من قبل، لا لم نكن نأكل أصلا، كنّا نقوم بعمل آخر غير الأكل، نملأ بطوننا فقط لم يكن شيئا آخر غير ذلك كنا ولازال الكثير منا وفينا يتصارع مع الجوع. المتعة الوحيدة التي نستطعمها أن ننتصر على الجوع ونجد ما نأكله.

وهو يُشعل سيجارته الفاخرة واضعا العلبة رهن إشارة من يدخن فينا، العربي الوحيد الذي قبل العرض رغم أنه قد قرر منذ أسبوع الإقلاع عن التدخين، لكن ليلتها اقتضي الظرف كما قال من بعد أن يعود للتدخين.

بنبرة فيها الكثير من الثقة في النفس وصلت إلى حد الغرور، اعتبرنا طارق محظوظين بلقائه للمرة الألف. أمّنا على ذلك بانحناءة رؤوسنا وصلت إلى حد الركوع. وأنّه ظلّ يفكر في وضعنا وكيف سيساعدنا لثلاثة أيام متتابعة رغم انشغالاته العديدة لأنه يعرف

وضعنا ولأنه مَرَّ من نفس التجربة ونفس الطريق في فترة ما من حياته، وهذا ما يُفسر تواجده أحيانا في مناطق كتلك لا تليق بمقامه الحالي لكن رغبة منه في استعادة بعض الذكريات ورغبة منه أيضا في مساعدة من يجده من أبناء جلدته الذين لا يريد لهم أن يتعذبوا كما قال.

كان كلامه الذي استرجعته مرارا وتكرارا كله خطب إنشائية تفتقر إلى الصدق، لو تمعنا قليلا، لو قمنا بربط بعض الأحداث البسيطة ببعضها وتحليلها كما ينبغي لاكتشفنا الفخ. عندما تطرق إلى ما نريد وما ننتظره منه كان كلامه عبارة عن أمر يجب أن نُنفذّه.

استهل حديثه باستغرابه رغبتنا السَّفر إلى أُوروبا في رحلة محفوفة بالمخاطر وأنّ المغاربة المقيمين هناك يشكُون غالبيتهم الفقر والعوز باعتبار أُوروبا الحالية لم تعد كما في السابق البلاد التي تستطيعون من خلال العمل فيها تحقيق أحلامكم، طالبا منا ألا ننخدع بكل ما يُصور لنا ويَطلب منَّا الآخرون تصديقه.

هذا الكلام سمعناه مرارا وتكرارا من فارس الهواري ومن غير فارس لكننا لم نصدقه، يا ليتنا فعلنا، يا ليتنا فعلنا. أَضاف مُحدِّثُنا: أن الوجهة الحالية للباحثين عن الثروة هي الخليج العربي، ولأَننا محظوظون فإنّ له صديقا تونسيا صاحب مكتب هجرة بعقود عمل مضمونة وبأُجور خيالية لا يمكن تصديقها، هذه العقود ليست متاحة لكل من هب ودب بطبيعة الحال ولأنه أَحبنا ولأنه يلتزم بواجب ابن البلد والوطن، فإنه قد شدد على صاحب المكتب بأن يقوم بالمستحيل من أَجل أن تُقبل مَطالبنا، طبعا بعد أَن نقوم بالفحص الطبي وإِجراء مقابلة عمل.

كانت الجملة التي سيختم بها كلامه والتي احتفظ بها عمدا

للأَخير عبارة عن الضربة القاضية التي شلت تفكيرنا تماما وقضت على آخر بذرة لأي تردد مهما سيكون منبعه.

- في حالة تمّ قبلوكم وأَنا من جهتي سأَحرص على ذلك بكل ما استطعت، ووقّعتم العقد ستُصرف لكل واحد منكم بالوقت وفورا منحة سفر ولباس بقيمة ألفي يورو للفرد الواحد، تستطيعون تحويلها إلى أي شخص تختارونه في المغرب وعندما تصل إلى هناك وتتلقون التأكيد بذلك يتم تسفيركم على نفقة الشركة وفي وسائل نقل محترمة تليق بموظفين محترمين وليس على قارب مهدَّد بالغرق في أي وقت، لا تنسوا أن الإقامة في البلد الذي ستسافرون إليه على حساب الشركة وكذلك الأَكل وتذاكر السفر كما أن الأجر قد يصل في غالب الأحيان إلى ألف أُورو شهريا.

- أنا دبة عندي ما ندير ها هو عنوان المكتب غدا تكونوا تما مع العشرة ديال الصباح تصبحوا على خير.

لم نُعطَ الفرصة أبدا لمناقشته الموضوع والاستفسار عن نوعية العمل هذه الأسئلة التي يجب أن تُسأل، لم نسألها نحن لأَنفسنا.

- ماذا نملك حتى نُعطَى فجأة كلّ هذا؟

الذين أخبرناهم من ذوينا وأصدقائنا، كان كل تفكيرهم مُنحصر فيما سنجنيه من مال، لم يُنبّهنا أَحد حتى بمجرد استفسار كل من أَخبرناهم اعتبروا ما نحن فيه فرصة العمر التي تأتي مرة واحدة ويجب أن نستغلها كما ينبغي. هذا يعكس شيئا واحدا. أَنَّ جزءا كبيرا من مأساتنا تستمد جذورها من طريقة تفكيرنا المعاقة سلفا، مما يعني أيضا أَنَّ جزءا كبيرا من الفقر الذي نعيشه هو فقر فكري بالأَساس قبل أَن يكون شيئا آخر.

طوال الطريق إلى المدينة القديمة في نفس السيارة التي اعتقدنا

لحظتها أنّها ملكنا هي وسائقها الذي أمره طارق أن يوصلنا، لحظتها اعتقدنا أنَّ أبواب السعادة قد فُتحت على مصراعيها لاستقبالنا، لم نكن نعرف وقتها أنَّنا فتحنا بغبائنا وجهلنا أبواب جحيم لا يُطاق، ليلتها رقصنا، غَنَّينا فرحا بإنجاز لم نره، لم نلمس منه شيئا، سمعنا زغاريد حياة من الهاتف وهي تغني وتصفق تُشاركنا الفرحة حيث حرصت أن تتعرف علينا واحدا واحدا وأن تُلقي التحية على كل واحد منا واعدة إيانا وهي تقسم أن أوّل طعام سنتناوله في المغرب سيكون من يديها عندما نعود سالمين غانمين إلى وطننا الأم.

كتبنا انتصاراتنا على جدراننا الزرقاء ناسبين الفضل في ذلك إلى ذكائنا، لم ننس ونحن في الفندق أن نلتقط صورا على العشاء ونحن نتناول كل ما لذ وطاب على مائدة فخمة دون أن ننسى الإشارة إلى المكان الذي نتناول فيه العشاء طالبين من الصديق جوجل تأكيد ذلك على الخريطة ونشرها مرفقة بالصور على الحائط الأزرق بما لا يدع أي مجال للشك هذه المرة نعيش الفخامة بشكلها الحقيقي لا المزيف والافتراضي. كتبت أنا تعليقاتي على الصور بخط عريض.

- مالك الملك إذا وهب لا تسألن عن السبب.

- عشاء عمل في فندق من فنادق صفاقس.

اعتذر طارق عن التقاط صور معنا لم نعرف وقتها. لماذا؟ ولم نكن مهتمين بأن نعرف، كلّ ما كان يهمّنا التقاط أكبر عدد ممكن من الصور وفي أماكن متعددة من الفندق. أمام المسبح، داخل صالات الفندق ونحن نتصنع حديثا جادا، الصور ألهبت حماس كل من رآها وحسده وصلت علامات الإعجاب أكثر من مائتي علامة وأكثر من مائة تعليق على حائطي. أن تملك مجرد بطاقة دخول مكان كهذا هو في حد ذاته بداية انتقال إلى عالم الفخامة والثراء كان هذا

هو اعتقادنا ليلتها.

دنيا كانت غائبة لم تنفع كل الرسائل التي تركتها بعد رسالة الفشل تلك التي ندمت أشد الندم على إرسالها والتي تلقيت رسالة من الصديق جُوجل تُفيد بأن رسالتي قُرئت من طرف المعني بالأمر لكن لا جواب إلى حد الآن، طوال الليل وأنا أتصفح بريدي وأتصفح علامات الإعجاب تحت صوري وتعليقاتي لعلي أجد فيها ريحَ دُنيا لم تقم بإضافة أية علامة على منشوراتي وصوري كانت الأولى دائما على لائحة التعليقات وعلامات الإعجاب، أين أنت يا دنيا؟ كل مرة أُعاود الكرة لعل دنيا عادت وقرأت. لكن شيئا من هذا لم يحصل كنت متأكدا أنّها ستقرأ الرسالة وستطّلع على الصور والتعليقات، لن تضيع دنيا مني بعد الآن، سنة على أبعد تقدير وتُزف إليّ.

كنا نَعُدّ الساعات والدقائق للغد، كل الأحلام الجميلة تُداعب خيالنا ونحن نتصور مقدار الفرح الذي سُندخله على ذوينا بالحوالات المالية التي ستتوالى تباعا كلّ شهر لتُخفف عنهم بعض ما هم فيه من ضنك العيش.

شكلت الحوالات القادمة إلى المغرب لسنوات عدة ركيزة من ركائز الاقتصاد المغربي كَكُلّ، مما أنتج حوارا جديدا أصبح أكثر تداولا بين الناس كان الهدف منه التفاخر وإظهار بر الأبناء بأسرهم والمكانة الاجتماعية التي أصبحوا يتبوَّؤُونها بعد هذه الحوالات التي أحدثت تغيرا جذريا في حياتهم.

- ولدي صيفت لي شي بركة البارح من الخارج الله يرضي عليه.

كلمة «بركة» تُنطق عمدا لتجعل خيال المستمع يسرح بعيدا فهي تفيد القليل من المال كما تفيد الكثير منه، ويكون إبرازها في الحوار دلالة على الكثرة وليس القلة. نُمارس الطحن على الآخر

بكل الوسائل المُتاحة في حواراتنا، في احتفالاتنا، في.. كلّ ما نقوم به ونقوله نُريد منه أَن نُبرهن للآخرين بأَنّنا الأَفضل ونستحق ما نحن عليه، نخلق حربا وتنافسا غير موجود إلّا في عقولنا ليستنزف كل تفكيرنا وطاقتنا ويمهد الطريق لظهور كَمٍّ هائلٍ من الحقد والحسد بيننا تصل أَحيانا إِلى الرغبة في تدمير الآخر وإِقصائه.

أَصبحنا نرى سعادتنا في شقاء الآخر الذي هو أَخ، ابن عم، صديق، جار، إلى غير ذلك، أَعيادنا الدينية فقدت بُعدها الروحي أَصبح كبش عيد الأضحى مثلا وسيلة لإبراز المكانة الاجتماعية أكثر منه قربانا لإرضاء الله، نحرص على شرائه في صخب كبير نُعطيه لأبنائنا طالبين منهم أَن يُصارعوا به كبش الجيران لأَنه الأَقوى، الأَفضل والأَغلى، من يعيش داخل هذه المطحنة، سيتغاضى بل سيُحث أبنائه ونفسه على ركوب الصعاب من أَجل أَن يُتاح لهم ما أُتيح للآخرين.

كلُّنا نحملِ آلات الطحن التي ننتقدها عندما تمُارس علينا نحملها داخل أَعماقنا نشحذها في كلامنا، في ملبسنا، في أَفراحنا، وحتى في أَحزاننا، كلّ شيء فينا خرج عن مساره الصحيح ليصبح آلة مُدمرة، ينسى الموظف نفسه في مكتبه بأَنّه هناك في خدمة الناس ليصبح آلة لطحنهم وليس لخدمتهم نحمل آلاتنا في داخلنا في أَحلامنا ونبتهل إِلى الله في خشوع أَن تخرج هذه الآلة إِلى الوجود أَن تخرج منا أَو من أَبنائِنا نسعى إِلى شرائها مُضحّين أَحيانا بأَرواحنا، بشرفنا، بكلِّ عزيز علينا.

نرى في أحيان كثيرة أننا نستطيع الحصول عليها عن طريق المراهنات العالمية، عن طريق البحث عن الكنوز الأرضية التي يحرسها الجنّ، نراها في السَّرقة، في الرَّشوة..في ركوب قوارب

الموت، لكننا لا نراها أبدا في العمل في العلم في الدراسة، قليلون منا من يرى ذلك قليلون هم.

نتمنى أَن تخرج هذه الآلة بكل الوسائل، المهم أَن نحظى بفرصة لطحن الآخر للانتصار عليه، للتغني بهذا الطحن في المقاهي، في الشوارع وكل الأَماكن، ستجد آلاف الأُمهات والآباء بطريقة كلامهم وتربيتهم العشوائية هم من يحث أَبناءهم وفتياتهم على الهجرة، على السرقة، على المتاجرة بأجسادهم، على.. لغة طحن الآخر هي السائدة والمتداولة في مجتمعاتنا بحيث تنقلب لعبة الرغبة في طحن الآخر دون شعور منا في كثير من الأحيان إِلى طحن الذات.

- طحن مو طحن مو طحنوا طحنو.

- ولد فلان مشى الخارج، دارهم كانوا مايلقاو ما ياكلوا رجعهم لاباس عليهم ها الولاد ولا بلاش.

لا يهم ماذا كان يعمل الابن في الخارج تاجر مخدرات، مجرم، لص.. لا يهمّ، كل ما يهمّ، كم من المال جلب معه؟ هذا هو معيار النجاح لا غير.

- بنت فلان مشات الإِمارات رجعت دراهم لا باس عليهم.

لا يهم ماذا كانت تعمل هناك مومس.. لا يعني هذا أن كل من في الخارج يمتهن أعمالا غير شريفة.

كنت أَتخيل صورة أُمي بنفس الصورة التي كانت حياة تستلم فيها حوالاتها وهي تقوم بنفس طقوس حياة. حدَّدت قسط أُمي من مبلغ الألفي يورو التي أَصبحت ملكي بمجرد قول طارق ذلك. خمسمائة يورو. ستفرح بهذا المبلغ كثيرا. احترت، ماذا سأفعل بالباقي؟ فكرت بأَن أُرسل مائتي يورو إِلى دنيا، لا، سأقوم بخطبتها

من أَبيها، من هنا، سأُحوّل إِلى حساب دنيا ثمن الخاتم بل سأُحول المبلغ المتبقي كلّه، حتى يعلم أَبوها الموظف المرتشي المتعالي، أَيُّ الرجال أنا؟ سأقوم برشوته ليُعطيني دنيا، ضحكت كثيرا من هذه الفكرة بل اعتبرت نفسي ذَا ذكاء خارق لتوصلي إِليها، ذكي أَنا عبقري ونجم حقيقي وإِلّا بماذا تفسر علامات الإِعجاب التي تصل أَحيانا إِلى خمسمائة علامة.

هذا العرض يؤكد عبقريتي كما تؤكد علامات الإِعجاب نجوميتي، الحمد لله وجدت أَخيرا من اكتشف هذه العبقرية وقدرها حق تقديرها، ربما بُخس قدري شيئا ما فيما مضى، لكن لا يهم العبرة بالخواتم تصورت مدير الشركة وهو يعرض عليَّ راتبا بأَلفي يورو سيكون هذا هو الثمن الحقيقي لعبقريتي.

تصورت منزلي الذي سأشيده ذَا الجُدران الزرقاء تصورت دُنيا وهي حامل بولدي الذكر، لكنني هنا تذكرت أَقوال صديقي الطبيب وتهكماته بأَن سيكون أَحدنا عاقرا فاستبعدت هذا الحلم، خفت منه، ست سنوات من الحب ونحن نمارس الجنس ولم يحصل أَي شيء، صحيح إِنَّني لم أَفتض بكارتها لكن الكثير من الفتيات حبلن دون أَن تُفتض بكارتهن، لابد أَن يكون فيما قاله الطبيب شيء من الحقيقة، لا يهم الطب تطور الآن بشكل كبير وأنا رجل غني لا يمكن أَن أَتصور وأَدع شيئا تافها كهذا أَن يُعكر سعادتنا وصورة الطفل الذكر في حلمنا جزء مهم وركيزة كبرى من ركائز هذه السعادة.

في الصباح الذي انتظرناه على أحر من الجمر بكل جوارحنا، في مكتب استقبال الفندق الذي بدا يومها في أَعيننا مُهترئا عفنا حقيرا ونحن نتخيل فندق «سوريفاكس» ذا الخمس النجوم، حيث يجب أَن يكون نجوم أَمثالنا وحيث تقتضي العدالة الاجتماعية ذلك،

وجدنا موظف الجوزات قد عاد من سفره من عزاء أُمه كما ادعى مبتسما ضاحكا كأَنه كان في فرح أَو عطلة استجمام مدفوعة الأَجر، نظر إِلينا بكل حب ومودة، بينما هرعنا إِليه شاكرين موت أُمه الذي أَتاح لنا البقاء هنا والاستفادة من هذه الفرصة، التي كنا سنضيعها أَنا والعربي برُعونتِنَا وتسرُّعنا، قمنا بواجب العزاء كأَن المرحومة أُمنا، بينما كان هو يجيب على عبارات العزاء بكل اقتضاب تحمل داخلها الكثير من الإِحراج، مكَّننا من جوزات سفرنا التي وجدناها كما هي معتذرا عن التأخير متمنيا لنا حظا طيبا.

كل الذين تُنصب لهم الشِّراك في هذه الحياة بُغية اصطيادهم كالأسماك، حيث تُرمى الصنارات كل يوم بالملايين في بحر الحياة، لتصطاد الأغبياء وذوي الحظ السيء، وهي تحمل الطعم القاتل، يمتلكون فرصة للهروب للنجاة ولكنَّهم لا يرونها تكون عقولهم، قلوبهم كلّها مشلولة، مُنوّمُون لا يَرَوْن أَي شيء سوى الطُّعم، يتسارعون للإِمساك به في حين هو من يمسك بهم ليسحبهم إِلى حيث لا يريدون، إِلى حيث لا يتصورون، إِلى حيث لم يُعودوا يملكون من أَمر أَنفسهم شيئا، في سلَّة الصياد الذي لن يُفكر أَبدا في أَن يُعيدهم إِلى الماء وإِن حدث وعادوا وهذا نادر جدا يكونون في الغالب جثثا تطفو لا غير دون روح، في ذلك الصباح امتلكنا فرصة النجاة والهرب من الثامنة صباحا إِلى الحادية عشرة من نفس الصباح كان الخيار لنا كان باستطاعتنا أَن ننجو ونحن نحمل جوازاتنا بين أَيدينا لو طرحنا مجموعة صغيرة من الأسئلة على أَنفسنا لنجونا ونحن نجد لها إِجابات.

– ماذا نحمل من مؤهلات علمية حتى نُعطى ما نُعطى؟

نحن نعرف أَنّنا لا نملك أَي شيء، ولست أَدري كيف نرى

في أَنفسنا ما لا يراه فينا الآخرون، لست أَدرى؟ لماذا يكون تقييمنا لأَنفسنا مبالغا فيه إِلى أَبعد الحدود؟ لست أدرى؟ لماذا نعتقد أَنَّنا نستحق دائما الأَفضل؟ ويجب أَن يُقدم لنا وليس أَن نسعى إِليه ونقوم بتحصيله وبنائه لبنة لبنة بالعمل وتطوير مكتسباتنا، نبقى حيث نحن ونطلب أَن يُؤتى لنا بكل أَحلامنا إلى حيث نحن موجودون، في المقاهي والحانات وتحت الأَسوار..، وإذا حدث وتحركنا من مواقعنا يكون تحركنا ناشزا. لنسرق، لنقتل، لنبيع المخدرات، لنركب الأَمواج إلى حيث لا نعلم..الكثير منا هم في رحلة بحث دائمة عن الحلول السهلة والسريعة.

الفصل 9

الفخ

«يسهل خداع الشباب لأنهم يستعجلون الأمل»

ارسطو

في مكتب موجود في عمارات منطقة «الانطلاقة» ضواحي مدينة صفاقس الجديدة، استقبلتنا السكرتيرة التي كانت على علم مسبق بحضورنا، طالبة منا الانتظار ريثما ينتهي مديرها من اجتماعه المهم.

بحثنا في وجه الفتاة عن ملامح وجهها الحقيقية لكننا لم نهتد إِليها، تحتاج إلى مجهر لتحديد لون البشرة الحقيقة، كانت المساحيق تتصارع لتعطي لوحة أُخرى ووجها آخر يمكن أَن يكون أَي شيء إلّا وجه امرأة. انتظرنا كثيرا لم يكن لدينا شيء نفعله إِلا التمعن في وجه الفتاة التي اعتقدت لوهلة أَننا معجبون بها، شجعها اهتمامنا الظاهر بشكلها بأن تُضيف بعض التعديلات على مساحيقها أَمامنا وهي تنظر إِلى نفسها بكل إِعجاب وحب، بينما كنا نحن نتصارع لنمنع أَنفسنا من الضحك.

خرج من مكتب المدير بعد ساعة ونصف من الانتظار الذي تطور فيما بعد إلى تبادل الحديث مع السكرتيرة التي سردت لنا قصة حياتها وتهافت الخطاب على بابها طالبين يدها لكنها لحد الآن لم تستقر على رأي لأنها تخاف حسب قولها من الزواج وهي غير مؤهلة نفسيا لدخول هذه التجربة.

خرج ثلاثة رجال كانت هيئتهم ولَكْنة كلامهم وهم يسلمون على الفتاة توحي بأَن جنسيتهم ليبية. دخلت السكرتيرة إلى مكتب المدير ليدخلا في اجتماع آخر دام أكثر من نصف ساعة خرجت وهي تُعيد ترتيب زينتها طالبة منا الدخول وأَن سعادته بانتظارنا.

رجل خمسيني تستطيع أَن تُحدد ذوق ملابسه وهيئته من شكل السكرتيرة، بدا شكلُهما متشابها كأنهما دخيلان على هذا المكتب، الذي يُنم كل شيء فيه عن ذوق رفيع إلّا صاحبيه. استقبلنا بحفاوة مبالغ فيها طالبا منا أن نجلس على طاولة معدة للاجتماعات تتسع لعشرة أَشخاص، كان المكتب أَنيقا بأتم معنى الكلمة طلب من السكرتيرة السمينة ذات الأَرداف أَن تحضر عصير برتقال للضيوف.

أَكّد أنّه سعيد بلقائنا وخصوصا أَنّنا من قِبَل شخص عزيز كثيرا على قلبه وأَنّه يسرّه جدا مساعدتنا لكن هذا لا يعني أَن يتغاضى عن مجموعة من الاختبارات المهمة والتي لا يمكن التغاضي عنها بتاتا ولا تُقبل فيها أَية توصية والسيد طارق نفسه يعرف هذا ويحترمه بحيث لا يمكن قبول أَي شخص في حالة عدم اجتيازها بنجاح. بدأ الخوف يتسرب إلى قلوبنا، خوفا من أَن نُرفض أَو أَن تُطلب منّا مؤهلات علمية لم نتحصل عليها. ليُضيف كأَنه يقرأ أفكارنا: بأَن الفحص الطبي وخلو الشخص المعني من أَمراض مزمنة لا يمكن التلاعب به بتاتا وكذلك الاختبار النفسي ماعدا هذا فإنه سيتغاضى

عن المؤهل وكلّ الأَشياء الأُخرى إكراما للسيد طارق.

بعد أن أكمل محاضرته التي استعرض فيها كلّ مزايا العمل التي تنتظرنا والتي ذكرها طارق سابقا دخلت السكرتيرة وهي تحمل أَوراقا توزعها على كل واحد منا، حيث طلب منا المدير أَن نملأ الاستمارات بدقة ونتركها برفقة السكرتيرة مع جوزات سفرنا حيث ستقوم الأَخيرة بالتقاط صور لنا. بعد أَن أَعطى تعليماته السامية للسكرتيرة بأَن تُشرف على الاختبار بنفسها وكما علمها، أَخبرنا السيد المدير قبل أَن يخرج أَنهم سيتصلون بنا في أَقرب فرصة ممكنة ليتم إعلامنا بالنتيجة الأَولية.

كانت الاستمارة عبارة عن بطاقة إرشادات. السن، الحالة الاجتماعية، عمل الأب والأم، عدد الأخوة، دخل الأُسرة. هل هناك أَحد مجرم في العائلة؟ هل دخلت السجن مرة؟ هل تم التحقيق معك؟ هل سبق لك النشاط داخل حزب أو جمعية؟ أَنواع المأكولات التي تحب؟ أُذكر مقاس كل ملابسك؟ هل مارست الجنس؟، تحب أَباك أكثر أم أمك؟ كم من مرة تمارس فيها العادة السرية؟ ماهي أُمنية حياتك؟ أَسئلة تبعث أحيانا على الضحك، أُذكر المثل الشعبي الذي تستحضره دوما؟ كم من فتاة ضاجعت؟ ما هو الوضع الجنسي المفضل لديك؟ هل تصلي؟ هل تعتبر ممارسة الجنس قبل الزواج حراما؟ هل تحب أَن تأتي المرأة من دبرها؟ أُرسم صورة؟ أَذكر أَنَّني رسمت صورة امرأة، في حين أَبدع العربي في رسم مزهرية مزينة ومنزل بحديقة وزهور وامرأة تحمل نفس المزهرية فوق رأسها وهي خارجة من المنزل، السكرتيرة نفسها تفاعلت مع الصورة وأَحضرت له أَقلام زينة. في حين رسم الطيبي سيارة، بينما رسم زيدان منزلا.

السؤال الذي لا زال عالقا في ذهني هو الآتي.

- إذا طلب منك القيام بعمل يستغرق ساعة مقابل مبلغ ضخم. هل ستفكر في المبلغ أم في نوعية العمل؟

كانت إجابتنا أنّنا سنفكر في المبلغ.

ماذا ستفعل لو كان عندك الكثير من المال؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تحمل مجموعة من المتناقضات في صيغ مختلفة.

سُمح لي بأن أملأ استمارة العربي لأنّه لا يستطيع الكتابة بشكل جيد بشرط أن أسأله وأقرأ عليه كلّ سؤال بحضور السكرتيرة التي بدت متصلبة إلى أبعد الحدود، كأننا في امتحان حقيقي رافضة تماما أن أُجيب عن بعض الأسئلة التي لم يفهمها العربي، قائلة: بأن عدم الإجابة عن سؤال معين في هذا الاختبار هو في حد ذاته إجابة.

لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الإعجاب بصورته الرائعة التي تجسد لوحة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أخرج فيها العربي كل ما يريد أن يقوله وعجز عن كتابته والتعبير عنه في كلمات، جاءت صورته لتعبر عما بداخله بشكل واضح أوضح من كل الكلمات.

التقطت لنا السكرتيرة صورا فردية كالتي تُؤخذ عند استخراج بطاقة التعريف أو جواز السفر، وكذلك صورة جماعية نحن الأربعة طالبة مِنّا أن نبتسم. رفضت مَدّنا بأي معلومة تشفي غليلنا، متى سيتم الاتصال بنا؟ إلى غير ذلك. عندما أكملت عملها طلبت منا أن نُغادر بحزم كأنها ليست الفتاة التي كانت قبل قليل تسرد ببلاهة قصتها مع مُعجبيها، حاولنا أن نعرف. متى سيتم الاتصال بنا؟ لكن دون جدوى، بجفاء يتصاعد مع تصاعد إصرارنا أخبرتنا أنّه سيتم الاتصال بنا في الوقت المحدد وعلينا أن نترك هواتفنا في وضع استخدام وألّا نغادر مدينة صفاقس.

- ما هو هذا الوقت؟

لا أحد منا يعرف.

عُدنا إلى الفندق لنصطدم بمشكلة أخرى لم تكن في الحسبان، طلب منا صاحب الفندق تسديد أُجرة الليالي التي قضيناها في الفندق قبل أن نغادر. أَعلمناه مُستغربين طلبه بأننا لن نُغادر اليوم.

- باهي رجعوا لي الباسبورات لي عملتو عليهم مشكلة تقول عليهم باسبورات سويسرية.

لم نهتد إلى جواب، فالجوازات لم تعد بحوزتنا، كأنّنا صُعقنا.

- الباسبورات الباسبورات.

أَضاف العربي وهو يتلعثم

- عطيناهم لسي طارق.

أَمام هذا الحل الذي خطر على بال العربي الذي اكتسب ثقة زائدة، جعلته يحتج عند صاحب الفندق باعتبارنا تحت وصاية السيد طارق وأنه قد تكفل أَمامه بدفع تكاليف إقامتنا وهو المسؤول عنا باعتبارنا سنكون موظفين في إحدى شركاته ابتداء من الغد أو بعد غد وأن إقامتنا لن تطول هنا بحال من الأَحوال وعليه أن يتصل بالسيد طارق ليتأكد بنفسه.

- هو راهو صعيب برشة نقبلكم من غير باسبورات أَما توا نشوف مع سي طارق ونكلمكم قبل الليل وحتى على الفلوس مش هكا في بالي اتفقنا.

كان يعتقد أو هكذا تظاهر بأَنّ السيد طارق سيدفع إقامتنا لليلة واحدة فقط وهذا ما حصل، في حين علينا أن ندفع نحن أُجرة باقي الليالي الأُخرى. كان ثمن الليلة في هذا الفندق الرخيص حوالي

ثمانية دنانير للشخص الواحد، وما نملكه من نقود لا يكفي لتسديد ما علينا من دين لصاحب الفندق.

طلبنا من صاحب الفندق بكل لطف أن يتصل ب «سي» طارق ربما أساء هو فهمه إذ لا يمكن لسي طارق النبيل أن يكون هذا هو قصده.

اتصل به أمامنا ليجيبه المجيب الآلي: لا يمكن الحصول على مخاطبكم في هذه الساعة. أضاف صاحب الفندق:

ربما سيد طارق خارج البلاد، فهو ذو أعمال كثيرة. مستغربا علاقته وتعاطفه مع أشخاص أمثالنا.

طلبنا منه بكل ذل أن يمنحنا فرصة يوم أو يومين ريثما يظهر فيها سي طارق الذي لا نملك هاتفه الشخصي والأكثر من ذلك لا نعرف عنه أيَّ شيء مجرد اسم دون لقب.

إكراما لسي طارق فقط لأنه يعرفه ويعرف خصاله التي تجعله متأكدا بأن حقه لن يضيع، بل سيكرمه عندما يُعلمه بأنّه قد أحسن وفادة أبناء بلده، لأن سي طارق يُساعد دوما أبناء وطنه دون استثناء وأن المحظوظين فقط من تُتاح لهم فرصة لقاء سي طارق الأمير، لم يكتف صاحب الفندق بذلك بل وضع على ذمتنا مبلغ مائة دينار نتقاسمه لنغطي به تكاليف أكلنا ومشربنا، منبها إيانا أنّه علينا العمل لتسديد المبلغ في حالة عدم ظهور سي طارق في أجل أقصاه ثلاثة أيام.

قال العربي في الغرفة، إنّه سيتم قبولنا وأنَّ ما رأيناه اليوم في مكتب التشغيل لا يعدو أن يكون مسرحية، وأنّه مُضطر لقبول العرض نتيجة مرض أُمه وحاجته الماسة للنقود ولولا ذلك ما قبل أبدا لأنه يشتم رائحة غريبة.

أمام كلمة كهذه بالذات التي كان ينتظر الطيبي مثلها بفارغ الصبر، ليفرغ جعبته ويصب جام غضبه على العربي، حيث اتهمه بالجهل وأنه اعتبر الأمر كذلك لأنه أُمّي لا يعرف الكتابة، وأنَّ أمثاله لا يحق لهم أن ينتقدوا فرصة كهذه حيث يقتضي العدل أن لا تُتاح لهم نفس الفرص التي تُتاح للمتعلمين أمثالنا، وأن إحساسه بالنقص هو ما يفسر تملّقه الذي يصل إلى حدود الرغبة في لحس مؤخرة سي طارق عندما يكون في حضرته، وإلى التظاهر بالترفع عن كل ما يقدمه لنا الأخير عندما يكون غائبا.

- انت واحد المنافق شلاهبي. ماشفتش بحالو نهار الوطيل ناقص تبوس ليه رجليه ورجعتي كتكمي سبحان الله؟

لم يستطع الطيبي المكوث معنا، خرج ليتبعه زيدان كظله مستغربا بعد أن اقتسمنا المائة دينار بالمليم. كيف أتحمل صحبه هذا المعتوه؟ حسب رأيه.

استفسرت العربي عن سر سكوته وعن عدم قيامه بأية رد فعل أمام تهكم الطيبي الذي تزداد حدته كلّ مرّة، أجابني بأنّه تعود في مثل هذه الحالة أن تكون ردة فعله تجاه من يحبهم بالبكاء فقط، وبالعنف الشديد تجاه من يكرههم، وأنه لم يُحدد بعد إن كان يحب الطيبي أو يكرهه ليعرف ردة فعله.

- سألته مازحا. إن كان يحبني؟

- أنت كنبغيك كيما خويا ولا أكثر.

شكرته بكل لطف إذ لم أكن أتصور أن يُجيبني بهذه الطريقة التلقائية والتي تحمل في داخلها صدق المعاني التي نطق بها، أحسست بذلك أخبرته أنّني أُحبه أيضا وأن هناك شيئا غريبا يجعلني أُحس بالراحة والاطمئنان معه عكس الآخرين. عانقني

العربي مؤكدا هذه الأُخوة.

تفنن صاحب الفندق وموظفوه في التلاعب بأعصابنا طوال الثلاثة أيام التي قضيناها هناك، كانوا حريصين بمجرد أَن يمر أَحدنا أمام مكتب الاستقبال على استفساره، إن كان سي طارق ظهر أَم لا؟ وباعتبار الأَخير قد ذاب ولم نعرف له طريقا، كنا ننتظره كل يوم ونحن ننظر إلى هواتفنا مخافة أَن ترن في غفلة منا، إلى أَن يطلب منا صاحب المقهى المغادرة حيث نُغادر ونحن نلتفت يمينا ويسارا لعلنا نراه. عندما نجيبهم بالنفي يطلبون منا التصرف والبحث عن عمل لنستطيع تسديد ما هو متخلد بذمتنا من ديون والبحث عن مسكن آخر.

في اليوم الثالث رن هاتف العربي الأَول حيث طُلب منا أَن نلتحق غدا صباحا بالمكتب مصحوبين بأمتعتنا، ليُصبح ظهور طارق ضروريا لن يتركنا صاحب الفندق نغادر هكذا دون أن ندفع له، اقترح الطبيبي أن نرتدي أحسن ما نملك ونترك الباقي في الفندق إلى حين استلامنا للألفي يورو لنعود وندفع ما هو متخلد بذمتنا.

في مكتب الهجرة أَو التهجير أَو التسفير أَو التغرير، استقبلتنا الموظفة ذات الوجه الغائب باستنكار متسائلة عن أَمتعتنا. أَخبرناها بأَننا لا نملك أَمتعة. بعد انتظار دام أَكثر من السابق وصلت فيها إلى المستوى ستمائة بعد الآف في لعبة «كاندي كراش»، دخلنا إلى مكتب المدير الذي أَخبرنا بأنه قد تم قبولنا بشكل مبدئي، في انتظار نتيجة التحاليل الطبية والفحص الطبي والاختبار النفسي التي سنقوم بإجرائها في الشقة التي سنقطن فيها ابتداء من اليوم، حيث سيمُنع عنا مغادرتها إِلَّا بإذن مسبق ممن يقوم بخدمتنا طالبا منا أَن نفكِّر قبل أَن نوافق.

وافقنا بالإجماع دون شروط أَو استفسار ونحن نستحضر وعيد وتهديد صاحب الفندق وموظفوه.

كان الخوف من صاحب الفندق مسيطرا علينا ومن عدم ظهور سي طارق الذي تشير كل الدلائل أَنَّه خارج تونس وربما يطول غيابه حيث علق الطيبي على ذلك.

- يكثر خيرو تهلى فينا، ورانا فين غنمشيو، وصى علينا، وقف معانا وقفة ديال الرجال، رجولة وتواضع، والراجل كيما شفتو وسمعتو عندو بزاف د المشاغيل، الله يعاونو.

كانت أسئلتنا واستفساراتنا كلّها مُنصبة على مبلغ ألفي يورو، حيث جاوبنا مدير التسفير مبتسما كأَنَّه كان ينتظر هذا السؤال فقط لا غيره، أنه عندما يتم قبولنا بشكل نهائي ونقوم بإمضاء العقد سنتسلم وقتها المبلغ ونتصرف فيه كيف نشاء بل سيقومون بمساعدتنا على تحويله أَو جزء منه كحوالة لمن نريد في المغرب ولن نسافر إِلَّا بعد أَن يتم تأكيد وصول الحوالة من قِبل العائلة في المغرب، هذا وعد السيد طارق لكم ووعود السيد طارق أوامر.

في شقة خمس نجوم، الطابق الرابع وفي عمارة أَنيقة مُجهزة بمصعد كهربائي، حيث كان كل شيء متوفرا إِلا الحرية، غرفتا نوم بسريرين مع مكيف دولاب فيه أربع بدل نوم، قاعة استقبال مكيفة تتوفر فيها كل مستلزمات الراحة تلفاز أربعين بوصة مع لاقط هوائي يفتح كل القنوات المشفرة كان متعة حقيقية، مطبخ تتوسطه طاولة محاطة بستة كراس بأَلوان مختلفة، ثلاجة فيها كل ما لذ وطاب مشروبات، لحوم، مشويات، كل ما عليك فعله هو إدخال الأكل إلى المايكرويف لتأكل. يتم ملء الثلاجة كل يومين من قبل شابين يدخلان دون أن يُكلما أَحدا مباشرة إلى المطبخ دون أَن يسألنا أحد ماذا نريد، يتصرفان

كأنّنا غير موجودين البتة.

في اليوم الثاني طُلب منا عبر الهاتف في الليل ألا نتناول وجبة الفطور حيث قام بزيارتنا في الصباح شاب، قام بسحب كمية من الدم من كل واحد منا وضعها في أنبوبين لينصرف طالبا منا أن نتناول طعامنا، بعد ذلك بيومين كنا على موعد مع طبيب برفقة شخص آخر قام الطبيب بفحصنا كل على حدة بشكل كامل حيث طلب منّا أن نتجرد من ملابسنا كلّها، لم يسلم من فحصه أي موضع من جسمنا بما فيها أعضاؤنا التناسلية، كان يفحص في صمت ويسجل ملاحظته على كراسه، بعد ذلك نكون على موعد مع الشخص الآخر يطرح مجموعة من الأسئلة كالتي جاوبنا عليه سابقا بشكل كتابي، كلّ جواب يسجله ويتفحص ورقة أُخرى اعتقدت جازما أنها استمارتنا السابقة، أضاف أسئلة جديدة. رأيُنا في الثورة التونسية، وما يجري في ليبيا، كانت أجوبتنا على العموم متشابهة إذ اعتبرنا أن كلّ هذه الأمور لا تهمنا في شيء وأن ما يجمعنا هنا رغبتنا في تحقيق مستقبل أَفضل لنا ولذوينا.

طول هذه الفترة التي بدأ الشك فعلا يتسرب فيها إلي قلوبنا، كانت المشكلة أننا مهما حاولنا أن نتخيل ماذا يُراد بنا نقف عاجزين. لم نتخيل أبدا أنَّ هناك تجنيد لم يَدُر ذلك بخُلدنا بتاتا. نشتم رائحة غير عادية، صحيح أَما ما هي؟ فلا نعرف لِنُكَذِّب بعد ذلك أَحاسيسنا أَمام جمال الطعم وبريقه.

تقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشك إلا شخص واحد هو الطيبي كان يقف سدا منيعا تجاه أي شك بل كان يترصده بكل حواسه ليُهاجم مصدره بكل ما أُوتي من قوة، أمّا ذكر طارق بالسوء فهذا كان يُعتبر في قاموس الطيبي وقانونه جريمة كبرى لا تمت بالرجولة

والشهامة بصلة في شيء، مستغربا كيف نملك الوقاحة لنقدح في رجل لم نر منه إلا كل خير.

– والله ماكتحشموش، نتوما كتبغيوغ ليكيعفسوكم، أمّا واحد يتواضع ويهدر معاكم هذا هو الجزاء ديالو، شوفو فين سكنكم وباز لي ماكيحشمش ما كيحشمش.

ثلاثة أيام أُخرى من الانتظار المر، ليظهر بعدها مدير مكتب التسفير كان يحمل حقيبة سوداء فتحها أَمامنا مُستخرجا رُزما من العملة الأَجنبية. كان منظرها كافيا ليسيل لُعابنا ويُنسينا كلّ شكوكنا وتحفظاتنا السابقة. ومجموعة من الأوراق عبارة عن عقود سيُطلب منا التوقيع عليها مع البصم، قمْنا بذلك دون أن نقرأ كلمة واحدة لم نعرف إلى اليوم ما هو مكتوب في تلك العقود، كانت أَعْيُننا كلّها مُنصبة على النقود التي بجانبها ننتظر بفارغ الصبر متى يتم اقتسامها بيننا لنستنشق عبيرها.

قال السيد المدير قبل أَن نوقع: إنه لا يدري إن كانت الأَخبار التي يحملها لنا سيئة أم جيدة.

– هناك تغيير بسيط في الخطة وعقد العمل.

تبادلنا نظرات الخوف والاستغراب فيما بيننا، لتنصبَّ أَنظارُنا بشكل جماعي وفي نفس الوقت إلى حيث النقود، نتأكد. حقيقة هي أَم خيال. مع وجودها لا يهم أَي تغيير المهم أَن نقبض العملة الصعبة.

أضاف السيد المدير: أَن مكتبه عرف مؤخرا بعض المشاكل مع الشركات الخليجية حيث كان يسعى جاهدا لتوظيفنا، وأنه كان سيعتذر منا ويُعيد لنا جوازاتنا لنغادر الشقة، وهذا ما يفسر بعض البطء في إجراءات الفحص ويُفسر المدة الطويلة والمكلفة في نفس

الوقت لمكتبه الذي يحرص أن ينال كل الموظفين المؤهلين للتعاقد معه أحسن معاملة ويُنزلهم أحسن منزلة، كان سيعتذر لكن أمام تدخل سي طارق شخصيا والذي اتصل به من أُوروبا حيث سافر بشكل مفاجئ، لكنه ورغم مشاغله الكثيرة اتصل ليطمئن علينا.

– هل هو قريب أحدكم يا شباب؟ هكذا تساءل المدير. هنا نظر إلينا الطيبي بكل احتقار.

أضاف المدير بعد أن رأى أن استفساره قد بلغ مبلغه فينا: أن طارقا طلب منه أن يقوم بالمستحيل من أجل أَن يجد لنا عقود عمل بنفس البنود المتفق عليها سابقا أو أحسن، لم يكن أَمامه من بد لأَنه لا يستطيع أن يرفض لسي طارق طلبا. إلا أَن يتصل بشكل مكثف ويومي ببعض أَصدقائه في ليبيا، حيث تمكن بشق الأَنفس من إيجاد أَربعة عقود بعروض خيالية تفوق عروض الشركات الخليجية، في شركات أمنية الهدف منها حماية بعض المؤسسات العملاقة هناك من هجومات تبقى محتملة مع أَن نسبة حدوثها تبقى ضئيلة، ولأَنه رجل ذو ضمير فإنه يُريد منا أَن نكون على علم مسبق بأن الأَمر لا يخلو من بعض المخاطر الصغيرة أَحيانا، مُتما كلامه بخشوع بأنّ الأَعمار بيد الله ولا يقتل الانسان إِلّا الجوع والفقر وأنّه قد تم إضافة مبلغ خمسمائة يورو لمبلغ الدفعة الأولى.

– ولكن ليبيا فيها دابة الحرب. علق الطيبي.

هنا فقط استيقظ صديقنا الطيبي، هنا فقط تساءل، كان نائما طوال خمسة عشر يوما لم يستفق إلّا في الدقيقة التسعين حيث يصعب تعديل النتيجة فضلا على الخروج بانتصار.

– باش تكونوا أنتم بعاد برشة على الحرب بعاد، هيا خمموا وقولوا لي توا عندي ما نقضي أنا لي عليّ عملتو مع سي طارق.

– احنا ما انعرفوا والو على الحراسة بالسلاح. أضاف العربي مستفسرا.

سيتم تدريبكم لمدة قد تصل إِلى أَربعة أشهر ولكن في الغالب لن تكونوا أنتم مضطرين للحراسة لأَنكم في الغالب حسب توصية سي طارق الذي يملك أسهما في بعض هذه الشركات ستكونون رؤساء لفرق حراسة هذا ما قاله لي سي طارق حرفيا.

ظَلّ صوت خَفي ضعيف يصرخ لآخر لحظة داخل أَعماقنا يطلب منا أَلا نفعل، لكننا تجاهلناه لم نَقو على مقاومة منظر الطعم، كان شهيا، لامعا براقا، كان الطعم العالمي طُعم العصر المفضل عند الكل فينا، كُنا أَمام مجموعة من الصيادين المحترفين والماهرين، لم نأخذ من المبلغ الذي كان أَمامنا إِلا خمسمائة يورو للشخص الواحد حيث قام كل واحد منا بإعطاء رقم هاتف من سيستلم النقود في المغرب، أعطيته رقم هاتف أبي بينما قام العربي بتقسيم المبلغ إلى نصفين بالتساوي الأَول لزوجته حياة والثاني لأمه، قام كل من الطيبي وزيدان بنفس الشيء.

أَعلمنا السيد المدير في الأَخير أَن لا تراجع بعد الآن وأَنّنا مُلزمون بالالتزام بالعقد الذي وقعناه لمدة عامين كاملين وأَننا سنتلقى التأكيد بوصول المبالغ إلى أصحابها في غضون يومين على أَبعد تقدير، كما وضع رجل على ذمتنا طوال هذه المدة لنتسوق بعض الملابس وما سنحتاجه للسفر أَو تمضية بعض الوقت مع النساء كما قال، إذ بإمكاننا أَن نصطحب إلى هنا ما نشاء منهن.

ظلت دُنيا غائبة طوال هذه الوقت هاتفها خارج التغطية، كما لم تجب على رسائلي بل لم تقرأها حتى. اتصلت بكل من يستطيع أَن يخبرني عنها شيئا أَو يستطيع أَن يُطمئنني.

أخي أجابني:

– إنه يتعين عليّ أن أهتم بمستقبلي فقط، يكفي هذا الحب المَرضي الذي لا يُوجد إلا في مُخيلتي، آن الأوان كي أكبر كما اعتبرني محظوظا بما أنا فيه وبالعقد الذي أمضيته حيث يتمنى أي واحد أن يحصل على نصف امتيازاته طالبا مني أن أتوسط له عند سي طارق ليحصل هو أيضا على عقد مماثل وأنه مستعد ليتقدم بطلب إجازة دون راتب من عمله الحكومي لعامين في سبيل عقد مماثل.

– سير خدم ليك واحد العامين واجي بشي طوموبيل، تلقى مائة دُنيا تستني فيك بأشكال مختلفة ونشط مع راسك قالو حب قالو، الحب هو الفلوس، فيق وحمد ربي.

حنان الوحيدة التي وعدتني بأنها ستقوم بالمستحيل لتعرف وتتقصى أسباب غيابها عن العالم الافتراضي بهذا الشكل المريب. بينما رفض زوجها السابق صديقي الطيب طلبي طالبا مني ما طلبه أخي بالضبط معلقا:

– كنا كنلعبوا وكنتصاحبو مع البنات كيما عباد الله، مالك اصاحبي درتيها بالصح ماكين بو حب. الفلوس الفلوس سول كاع البنات كيبغيو الفلوس وحتى دنيا كتبغي الفلوس دابة تفيق ما تخافش عليها.

قمنا بالتسوق كنت فاقدا للمتعة والرغبة، أفعل ما يفعله الآخرون وأشتري ما يشترونه دون أن أجد في ذلك أي متعة تُذكر. قالوا لي أن أنسى دُنيا.

كيف السبيل إلى ذلك؟

هل أملك أزرار الضغط في جسمي؟

هل يملكون هم من يطلب مني ذلك هذه الأزرار؟

أيكفي أن أضغط على زر النسيان لأنسى؟

أيكفي أن أضغط على زر الحب لأُحب من جديد؟

زر الكراهية زر الصداقة، زِر الموت، زِر الدمار، زر القتل زر، النسف، زر.. زر.. زر.. نعم الحياة أصبحت مجموعة أزرار لا غير، ربما تكون دُنيا قد ضغطت على أحدها ونسيتني تركتني أتعذب وحدي، أبكي أنا الذي لا أملك أزرارا، أنا الانسان ولست الآلة.

في الليل طلب الأصدقاء من السائق الذي يرافقنا دون أن يتكلم أن يجلب لهم نساء. امتنعت عن ذلك، حتى العربي المتزوج بدا منتشيا وهو يشرح للسائق واصفا إياه نوعية النساء اللواتي يجب أن يُضاجعهن.

في تلك الليلة تلقيت مكالمة من أبي وأُمي يتضرعان بدعائهما أن يسترني الرب أينما حللت وارتحلت، وأنهما قد استلما الحوالة المالية، نفس الشيء حصل مع الآخرين تأثرت كثيرا بدموع أُم العربي التي بكت هي وابنتها من الفرحة كطفلتين صغيرتين وألسنتهما تلهج بالدعاء للعربي.

لم تكن عائلتي محتاجة لمساعدتي لم نكن أغنياء، ولم نكن فقراء، كان عمل أبي التاجر يُدِر علينا ما يكفينا، لم يسبق أن طلبا مني أبدا مساعدتهما ماديا عندما كنت أعمل في طنجة، كانت تلك أول مرة أبعث فيها بشيء من المال لعائلتي لا أنكر فرحتهما بما بعثت، لكنني لم أتأثر بفرحتهما كما تأثرت لمنظر أُم العربي وأُخته. أحسست أنهما فعلا يحتاجان ذاك المبلغ، أحسست أن في دموعهما فرحة الخروج من ضائقة كانت تَقُضُّ مضجعهما وتؤرقهما، أخبرهم العربي أنه لن ينساهم أبدا وأنه سيبعث لهم بشكل دوري ما يحتجانه. في حين كان

زيدان والطيبي حريصين ألا يتشاركا معنا خصوصيتهما بعد الفجوة التي تتسع يوما بعد يوم بين العربي والطيبي.

في الرابع من شهر.. طُلب منا أن نقوم بأداء صلاة العشاء والفجر في مسجد اللخمي بصفاقس. استغرب كل من العربي وزيدان الأمر باعتبارهما لا يصليان ومع ذلك طُلب منهما مرافقتنا في نفس السيارة ومع نفس السائق، بعد صلاة الفجر طلب منا السائق أن نكون على أهبة الاستعداد لأنَّنا سننطلق الليلة.

الفصل 10

الطريق إلى داغش

ربما تطلع شمس الضحى من صوب الغروب،

ربما يبرأ شيطان، فيعفو عنه غفار الذنوب،

إنما لا يبرأ الحكام في كل بلاد العرب من ذنب الشعوب.

أحمد مطر

مع الساعة السادسة ليلا طلب مِنَّا السائق قبل الصعود إلى السيارة بشكل حازم أقرب إلى الخشونة. تسليم هواتفنا الجوالة وما تبقى معنا من مال. أمام استغرابنا طريقة كلامه وقبل أن نفتح أفواهنا بكلمة لنستفسر ونحتج نطق أخيرا حضرة السائق وهو يحرص كل الحرص أن نرى مسدسه بوضوح.

- تحبوا نتفارقوا على خير. تنفذوا كل ما هو مطلوب منكم بصمت دون أي سؤال وما نحبش نعاود كلامي مفهوم.

أمام هذا التهديد الذي كان كافيا لندرك وقتها أنَّ ما ينتظرنا ليس بالأمر الجيد، رضخنا بشكل تام لطلبه. طوال الرحلة التي دامت

أَكثر من عشر ساعات، رفض فيها النوم أَن يُداعب جُفوننا محاولين بكل ما أُوتينا من حواس أَن نحدد وجهتنا التي كانت آخرها لافتة مكتوب عليها «جرجيس» لم نر مدينة جرجيس، رأَينا اللافتة فقط، بعد ذلك كان الظلام رفقة الطريق الوعرة هما الرفيقان.

اعتقدنا أكثر من مرة بأَن السيارة ستتحطم لنُدفن هناك، لم تكن الطريق الوعرة التي اختار أن يسلكها سائقنا كافية لتجعله يُخفف من سرعته ولم نكن نجرؤ في المقابل أَن نفتح أَفواهنا ونحتج إلى أن توقف في أَرض خلاء تماما. أرسل بعدها إشارات ضوئية تلقى جوابها بالوقت ليس كما انتظرناها ليلة الشاطئ بكل حواسنا ولم نتلق أَية إشارة. وجدنا أَنفسنا أَمام مدخل كهف في واحة صحراوية لم نتبين منه أَي شيء، كان الظلام حالكا، تبادل السائق بعض الكلمات مع شخص عرفنا من لهجته أَنه تونسي الجنسية. سأله بغضب ظاهر وهو يغالب أثر النوم عن جنسياتنا ليجيبه الآخر بأَننا مغاربة. طَلب منا النزول من السيارة بشكل فض مستعملا كلاما قبيحا كأنه ينتقم من الفترة التي أُجبر فيها على خدمتنا وهو صامت.

– اهبطوا ز.. أُمكم المراركة نتاع وذني سهرتوني للصباح جرايركم المنيكة.

ساقنا صديقه الآخر كالنعاج إلى داخل القبو.

– شوفوا شي حاجة تكاو عليها للصباح ويزي من الأسئلة غدوة الحي تو نتعرفوا على بعض بالكدا ماتخليونيش نتغشش أوكي.

لن تستطيع الكلمات مهما أُوتي صاحبها من بلاغة وقدرة على الوصف أَن تصف حالتنا ليلتها. أسناننا تصطك، أطرافنا ترتعد، وأَلسنتنا منعقدة، لم نَقْو على تبادل الحوار حتى بالهمس بيننا.

كان القبو شبيها إلى حد كبير بالإسطبل الذي رابطنا فيه بُغية

الذهاب إلى إيطاليا، مع فرق بسيط الأول فوق الأرض، وهذا تحت الأرض، كان شبه ممتلئ، الكل نيام لم نتمكن بوجود الظلام من معرفة أي أحد. هناك من تفطن لدخولنا وكأنه اعتبر الأَمر عاديا ويحدث كل يوم، سمعنا صوتا يرحب بنا باستهزاء واضح.

– مرحبا بكم في تنظيم الدَّولة إِن لم تكونوا تعرفون ذلك وغالبا إِلا مكنتوش خونجية ولا مجرمين ماكومش باش تعرفوا.

أَراد العربي أَن يستفسر مني ماذا يعني تنظيم الدَّولة لكن همهمته قوبلت بطلب حازم وقاطع.

– ارقد ز..ر أمك خليونا نرقدوا الليلية الكلبة هاذي وأَنت الشرايبي يلزم زوز كفوف باش تن.. ترقد كيما العادة.

لست أدرى كيف غاب عني هذا الاسم، لست أدرى أَيَّة لعنة شلت تفكيري، كنت قد تصورت كل شيء إلا هذا، تصورت عصابة تهريب. مخدرات، سلاح،..إلا هذا. هذا التنظيم موجود في العراق. من الذي أَوصله إلى هنا؟ ليبيا فيها تنظيم الدولة لا.. لا.. لابد أَن يكون من قال ذلك يمزح يستهزئ بنا لا غير.

في الصباح كنا أمام مفاجأة لم تخطر على البال كانت بعض الوجوه معروفة، كانت ممن تشاركنا «القونة» معهم إلى إيطاليا بما فيهما المغربيان الآخران أَصيلي مدينة الدار البيضاء. لم أَتمالك نفسي، سألتهما عن الشخص الذي استدرجهما إلى هنا، ذكرت اسم طارق لم يعرفاه، حاولت جاهدا أَن أَصفه لكنني لم أفلح في أَن أتأكد أَنه هو، بينما استغربا هما أَسئلتي لأَنهما فاران من أَحكام قضائية طويلة الأمد في المغرب ويعرفان مسبقا ما هما مقدمان عليه.

كانت هناك وجوه أُخرى لا نعرفها، في ركن آخر من نفس القبو كان يرابط أَيضا أكثر من خمسة عشر أفريقيا. ويقابلهما من الجهة

الأخرى أكثر من عشر شباب كلهم ملتحون ينظرون إلى الآخرين بارتياب ظاهر. استقبلنا الشباب التونسيون بالعناق والترحاب حيث قال أحدهم.

- والله العظيم كنت متوقع وحاس بلي باش نشوفكم هنا.

كل ما كان يهمني أن أعرف حقيقة ما سمعته أمس في الليل. أكان صوابا أم لا؟

سألت بكل عفوية.

- أين نحن؟

جاوبني أحد التونسيين الفارين من العدالة.

- مروكي في القونة مقونين ماشين لإيطاليا اصاحبي هههههه.

- لا بالرسمي نحكي معاك جاوبني.

- والله مروكي كيما نحكي معاك يستنوا يتلموا أكثر من خمسين واحد باش يهزونا لإيطاليا نتاعهم مش لي كنا نلوجوا عليها احنا هاذيك ماهيش من وجوهنا متاع الهم. أما نتوما خطانا من التفدليك ماهيش بلاصتكم هنا وجوهكم متاع إيطاليا الأخرى زهورات يا صاحبي زهورات.

هنا التفت العربي بطريقة غريبة نحو الطيبي.

- شفتي صاحبك الراجل فين وصلنا السي القاري الفاهم.

لم يجبه الطيبي بتاتا مما استفز العربي ليقوم إليه ممسكا بخناقه

- باغيك تجاوبني دابة. شكون المكلخ فينا ماقاريش أنا ولا أنت؟

لم يقاوم الطيبي استسلم استسلام من لا روح فيه أبدا، لا شعلة

حاول كل من زيدان وبعض الشباب أن يخلصوه من قبضة العربي بينما تلكأت أنا لنتفاجأ بالطيبي يجيبه.

- أنا الحمار البغل االعربي، أنا نستاهل الشنق، سمحلي أخويا.

وانهار باكيا.

تراخت قبضتا العربي، لينهار هو الآخر حيث تحولت القبضة التي كانت تمسك بخناق الطيبي إلى يدين تحضنانه بكل قوة ويشاركه صاحبهما البكاء.

اقترب مني صاحب الصوت الليلي ليؤكد لي بما لا يدع مجالا للشك ومقدما لي تفسيرات لم تخطر للحظة على بالي وبصوت منخفض.

أَنت يا صديقي ونحن كلنا هنا في تنظيم الدولة، أتعرف كل تلك الأفواج التي نقلت كل قنوات الإعلام العالمي العاهر صورها وهي تعبر المتوسط إلى إيطاليا على متن قوارب هشة من كل جهات العالم، والغرب يصرخ متصنعا الخوف على أرواحهم ومُستنهضا هِمَم وضمير المنظمات الانسانية لمساعدة هؤلاء المساكين.

أتعرف مخيم بوشوشة في تونس؟ والتغطية الإعلامية المنقطعة النظير لهذه المآسي الإنسانية التي صنعوها. كلها مجرد مسرحية هزلية لتغطية الأفواج الحقيقية والتي تُعد بالآلاف وتُهجر وتُسفر يوميا بشتى الطرق برا وبحرا وجوا إلى كل بُؤر التوتر العالمية التي تفننوا في صنعها ، بمباركة ودعم متستر لكل الحكومات المتواطئة العميلة، من أَجل إشعال مزيد من النار، الآن يُهجر كل من استطاعوا أَن يصلوا إليه ووجدوه ضالا فقيرا جائعا في الشوارع الفقيرة لكل بلدان العالم الثالث، يُهجر ليصنعوا منه آلة دمار يحققون بها أَهدافهم يُجربون فيها أَسلحتهم ويتحاربون بهم فيما بينهم لتصبح الحرب

بالنسبة إلى الغرب مجرد لعبة يستسلم فيها المنهزم بكل روح رياضية للطرف المنتصر في انتظار مقابلة أُخرى.

ستسعى قريبا كل الدول الغربية التي استأثرت بحصة الأَسد من كعكة العراق، إلى إنشاء تنظيم هنا في ليبيا يُدافع عن مصالحها وقد يتحارب التنظيمان فيما بينهما ويقومان بعمليات ستسمى إرهابية في بعض دولهم سيسمونها إرهابية. وهم فقط من يعرف أَنها لا تعدو أن تكون حربا استخباراتية بينهم على المصالح والمكتسبات يتسترُون بها عن المواجهة المباشرة كي لا تتكرر مأسي الحروب العالمية.

الآن تقوم الدول المستعمرة لشمال إفريقيا سابقا بصنع تنظيم جديد لداغش سيُسمى تنظيم الدولة للمغرب العربي، اليوم سيُخلق عراق جديد في ليبيا، اليوم هو امتداد لنفس التهجير والتسفير الذي شارك فيه سابقا كل العرب والمسلمين في أفغانستان باسم الدين وهم يعتقدون أنهم يحاربون الشيطان ليكتشفوا في الأخير أَنهم يحاربون في صفوفه.

اليوم هذا المكان هو بيشاور باكستان، من هنا ستنطلق قوافل الجهاد الشيطاني لتُشكل تنظيم الدول الغربية لسرقة نفط ليبيا وثرواتها. عبدة الذهب يسعون إليه يبحثون عنه أينما وُجد، حتى في المنافسات الرياضية يجندون أبناء كل الشعوب الفقيرة ليفوزوا بالذهب «زيدانا» وأَبناء العالم الثالث يُسجلون الأَهداف لتقطف فرنسا.. المجد والذهب، ويكتفي من صنع المجد بالعمولة، نعم العمولة فقط. حتى نحن هنا سنأخذ عمولة، كل من استطاع أن يُنفذ ما يُطلب منه بحرفية وطاعة ليصنع مجدهم شريطة أَن يُحافظ على نفسه حيا، لأَن العمولة هنا تُصرف للأحياء فقط وحيث يصعب كثيرا أَن تبقى كذلك، ستُصرف للأحياء عمولة كما صُرفت

لكل جنود العالم الثالث الذين شاركوا في الحروب العالمية، صُرفت للأَحياء منهم فقط، في حين كان الأَموات أكثر من الأَحياء بكثير، ليظهر الغرب في الأَخير مُتحضرا وكريما وديمقراطيا.

أَصبح تجنيد أَبناء العالم الثالث موضة الحضارة الغربية في جميع المجالات، لم يعودوا قادرين على تكوين فريق للعبة من جنسهم. إِنهم يتآكلون اللّعنة تُلاحقهم.

اليوم ستُعلن مأساة عربية أُخرى تغريبه أُخرى ستسمى التغريبة الليبية. اليوم هو يوم الحضارة الغربية لم يُعد نظام العمالة الذي أُسس بعد الاستعمار المباشر يُلبي طلباتها ويحقق طموحها المادي، لأنه بكل مساوئه يحقق نوعا من الشراكة بين النظام الفاسد العميل الحاكم وبين الدولة المُسْتَعْمَرَة وبين الدولة المُسْتَعْمِرَة ،هذا النظام أَو بعبارة أَدق حصة الدولة المُسْتَعْمِرَة لم تعد كافية لتلبية حاجياتها والسقف المرتفع لمجموعة من القوانين والمنح التي سنّتها في بلدانها، اليوم أَصبح مطلوبا نظام أَللّا دولة فقط في الدول التي تتوفر على ثروات حيث تحولت هذه الثروات من نعمة على شعوبها إِلى نقمة جلبت لهم الموت والدمار بدل الخير والنَّماء.

تمت التجربة الأُولى بنجاح في العراق وبعض الدول الأَفريقية، دول غنية مُشتتة، مُمزقة، يتم خلق وزرع تنظيمات تابعة للغرب داخلها، تكون أَقوى من الدولة نفسها، ليتمكن الغرب من الاستحواذ على الثروة دون أن يُشاركه فيها أَحد، الآن انتقلنا من نظام العمالة إلى نظام العمولة التي يتمتع بها كل من يساعد هذا النظام وتسمى «عمولة الخيانة». جيش كامل وكبير من العملاء يضم داخله سياسيين خونة، صحافيين، قنوات إِعلامية مأجورة، وبعض فعاليات المجتمع المدني التي أَصبحت تُغدي هذا التشتت

والتمزق داخل الدولة عبر بث الفتنة والفرقة بينهم بتضخيم الاختلافات الإيديولوجية والدينية والعرقية والثقافية.. بما يخدم مصلحة الغرب، كما يكون مطلوبا منهم أن يغذوا التبعية للغرب عبر خلق أو ترويج مجموعة من الأفكار والبرامج التي تكرس في العقول التفوق الغربي.

المطلوب في ليبيا الآن هو نظام أللّا دولة. لَقِيَ القذافي نفس مصير صدام حسين، وسيسعون لتلقى ليبيا نفس مصير العراق، كل دول العالم الغنية حيث توجد الثروة ويوجد الذهب مُهددة بنفس المصير وكلّها توجد فيها الآن بذرة لإشعال الفتنة في أي وقت.

اليوم نفس سيناريو أفغانستان والعراق مع إضافة بهارات جديدة بحيث يكون الاسم مختلفا والطعم متنوعا، ليشمل أكبر عدد ممكن من الأفراد المرغوب تجنيدهم. المطلوب الآن اشعال صراع طويل الأمد في ليبيا، كل الأصناف البشرية القادرة على حمل السلاح مطلوبة متدينون، مجرمون، هاربون من العدالة، شباب تائه يبحث عن حلم مادي، علماء، مهندسون، رجال دين، رجال تعليم، هذا التنظيم الجديد يسع كل هذه الشرائح والأكثر من ذلك لا يشبع أبدا.

دخل سجان الأمس ليجد الشاب التونسي أو الصحافي كما سأسميه بعد ذلك بجانبي، نهره بكل ما أُوتي من قوة وقام بصفعه متوعدا إياه.

– والله ز..ر أمك كان مسكرتش جلغتك حتى نعطيك كرتوشة في راسك اخر مرة نشوفك تحكي مع واحد جديد يزي.

التفت إلي أنا أيضا راغبا في صفعي لتنقذني منه أصوات بعض التونسيين الآخرين وهم يصيحون.

– سيبوا لسعد الثاني سيبوا نتاعنا عاد المروكي معرفة قديمة.

عاد الصحافي المسكين من حيث أتى وهو يُداوي أثر الصفعات القوية على وجهه ليصطدم بنظرات كلها حقد وشماتة من الشباب الملتحي.

في حين أضاف لسعد الثاني حيث تمت تسميته بهذا الاسم أولا لرفضه الإفصاح عن اسمه الحقيقي، وثانيا للشبه الكبير بينه وبين لسعد رئيس «الكونة» السابق إلى إيطاليا.

– ماتقولوليش كانوا معاكم هاذوا زادة في القونة متاع بابا فرحات.

– ايه كانوا معانا وضاعت فلوسهم كيما ضاعت فلوسنا، أما باباك فرحات باش ني.. ني.. يبقى نهار من عمرنا يبقى واحد فينا حي ين..

شجعني هذا على سؤال الشباب عن هوية الشاب الذي كان يحدثني فاخبروني أنهما صحافيان تونسيان الأول اسمه الشرايبي والآخر أسمه الفطايري، تنكرا كشخصين عاديين في محاولة القيام بسبق صحفي عن الهجرة الأخرى إلى داغش وليس أوروبا ليتم استدراجهما إلى هنا بطرق لا نعرفها، ومن ذلك اليوم والشرايبي هذا لا يكف عن الهذيان.

– لو ماكانش ولد بلاد وتونسي راه قتلوه جماعة لسعد من النهار الأول، أما ولى ما يُرقد وما يسكت إلا خذا زوج كفوف باهيين من لسعد الثاني وهكاك باش يرجع غدوة يحكي مع أي واحد جا جديد راسو كاسح خاطر مايشعفش وهذاك علاش ماعادش ندافعوا عليه أما لسعد يحبوا راه ويسخفوا. الأوامر أوامر حتى إلا كان خوك فهمتني مروكي عاد.

عالم عاهر صحافي شريف حقيقي، يُقرر هو وزميله المصور،

أن يُغامرا بحياتهما ليقتحما الصعاب في رحلة بحث عن الحقيقة الغائبة والمُغيبة عن بعض الصحافيين الآخرين المرتزقة تحت مكيفاتهم ومكاتبهم، صحافي يُستدرج إلى هنا دون اعتبار لأي قانون للصحافة الذي سُنَّ ليحمي هذه الفئة، فجأة يختفي هذا القانون، يصبح غير موجود بل مُغيب تماما لأنهما اقتربا من الخط الأحمر غير المسموح الاقتراب منه. يُطلقون عليهم كلابهم الضالة البشرية والحقيقية ينهشون لحومهم كما حدث في سجن أبُو غريب لمن ينسى أو يتناسى فقط.

هذين الصحفيين اللذين تذكرت اسمهما حيث يُعتبران في بلادهما تونس مفقودين كل وسائل الإعلام هناك تتكلم عن اختفائهما، هنا يُهينهما صفعا وركلا مجرم هارب من العدالة، والأكثر إيلاما يَمُن عليهم بالصفح بعد كل الإهانات ويعتبر عدم قتلهما مِنَّة منه.

هذا الصحافي الذي وجدته هناك في ذلك القبو المظلم كان يحرص أن ينقل شهادته بكل جرأة متحديا قانون السجان، متحملا إهاناته كأنه يكتب مقالا صحفيا كان قد هيأه قبل أن يصطادوه، يريد أن يُرسخ في أذهان كل من يقابلهم ما يعتبره حقيقة في مقاله لربما وجد طريقه للنشر يوما.

لم يكن لسعد الثاني وحده من يُدير هذا القبو الذي قدرت مساحته حوالي عشرين متر طولا وعشرة عرضا مفروش بمجموعة من الحُصر مع وجود الكثير من الأغطية والأسرة الخفيفة المصنوعة من البابونج، حيث يتم إعطاء كل فرد جديد غطاء وسريرا يُفرش على الحصير.

ممنوع الخروج في النهار بتاتا إذ كان القبو مجهزا في آخره بخمس

دورات مياه تنبعث رائحتها لتشكل مع رائحة الدخان مزيجا آخر يمكن استعماله في صنع بعض الأسلحة الجرثومية. داخل دورة المياه لا يوجد صنبور للماء هناك دلو مملوء على آخره تبين لي من مطعمه وأنا أتوضأ أنه ماء بحر نتوضأ به ونسكبه في المرحاض بعد الغائط وهناك بطبيعة الحال من لا يُكلف نفسه مشقة سكبه ليتركنا نتقاسم معه رائحة أَحشائِه.

كان يشارك لسعد الثاني في إدارة هذا القبو عشرة أفراد مسلحين طول الوقت لا يتكلمون يشبهون في ذلك كثيرا السائق الذي رافقنا وكان مكلفا بخدمتنا. قام ثلاثة منهم بتوزيع علب لتر من الحليب مع خبز وقارورة ماء معدني لتر ونصف بالإضافة إلى الدخان حيث طُلب منا أن نأخذ نصيبنا منه وأن نتصرف فيه بالبيع مقابل أشياء أُخرى كالغذاء أو الحماية هناك من عرض علينا علبة الحليب مقابل بعض السجائر باعتبارنا غير مدخنين.

طلب مني العربي أن أُعطيه نصيبي من الدخان ليتصرف فيه بطريقته كما قال وباعتباره المُدخن الوحيد فينا، أعطيته علبة السجائر دون أن أسال عن برنامجه وخططه.

استعاد كل من الطيبي وزيدان بعض هدوؤهما بينما لزمني العربي كظلي يستمع لكل ما أقوله وأسمعه من الآخرين بانتباه شديد كأنه يقوم بتحليله ليتصرف على ضوء ونتيجة هذا التحليل.

عرفنا أنّ كل من كانوا هناك قد تم استدراجهم إلى هنا بطرق مختلفة. بالنسبة للفارين من العدالة كان الاتفاق صريحا وواضحا وبثمن أقل مما مُنحنا نحن بكثير إذ أُعطيت لكل واحد منهم ألف يورو فقط، بينما تم التعامل مع بعض الجنسيات الأُخرى الفارين من الحرب في ليبيا، مصريين سودانيين، تشادين، صوماليين الخ، كل

أبناء العالم الفقير كانوا هناك. كان أكبر همهم أن يهربوا من الحرب الدائرة في ليبيا ليجد تعيس الحظ منهم نفسه هنا دون أن يقبض مليما واحدا، وهناك أيضا من تم استدراجهم بنفس طريقتنا.

أما ما لم يخطر لي على بال. هو أن أجد من هو مقتنع تمام الاقتناع بما يسمى تنظيم الدولة، أو قيام دولة الخلافة من جديد. عند الزوال قام أحد الشباب الملتحي بالأذان لصلاة الظهر، استجاب جل من في القبو حتى الذين لم يكونوا من المصلين في «القونة» قرروا أن يبدأو عهدا جديدا منهم العربي وزيدان.

بعد الصلاة بسط الإمام الملتحي يديه وبصوت مرتفع طالبا منا أن نؤمّن على دُعائه لعلها تكون ساعة إجابة.

اللهم لك الحمد كثيرا، لك الحمد لنعمك التي لا تحصى، لك الحمد لك الحمد على نعمة الإسلام، لك الحمد على نعمة الإيمان، لك الحمد على نعمة الجهاد في سبيلك، هنا سمعنا هُتاف الآخرين حيث شاركهم فيه أكثر من واحد الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر

بينما انتظر الإمام كما يفعل المغني الذي يَدَّعِي الإحراج تصنُّعا من كثرة تصفيق الجمهور لينحني والابتسامة لم تفارق شفتاه مكملا:

الحمد لله على نعمة الخلافة.

كانت هذه الكلمة كافية ليسْكَرَ القوم، صار التأمين على الدعاء بصوت مرتفع ويصاحبه التكبير أحيانا.

- اللهم أمين. اللهم نصرك.

اللهم انصر خليفتنا عبدك المجاهد في سبيلك أبوبكر البغدادي.

اللهم انصر أئمتنا وشيوخنا وانصرنا يا رب.

اللهم انصره بنا نصرا تعز به الإسلام والمسلمين..

لم ينَلنا نصيب أبدا من دعائه نحن الحاضرون حتى الدعاء تحظي فيه القيادة الغائبة بنصيب الأسد.

بعد أن أكمل دعاءه أشار لي الامام بالاقتراب منه.

- السلام عليك أخي.

أجبته وأنا أُصارع الخوف الذي استبد بي لأنني لم أكن أُؤمن على دعائه حيث اعتقدت أنّه ربما تفطن إلى ذلك.

- وعليك السلام شيخ.

اعتبرني محظوظا لأنني هنا. مستنكرا ومستغربا كلامي قبل صلاة الظهر الذي قلت فيه بأنني لا أُريد أن أكون هنا وأنه تم التغرير بنا كما فُعل بالصحافي الشرايبي وصديقه، طالبا مني باعتبار علامة النور والإيمان التي تفيض من وجهي ألّا استمع وألّا أُخالط الزنادقة من أعداء الله، وأن الرب يُهيئ السُّبل لأحبابه حتى يتبعوا طريقه وإن ضلوا، مذكرا بالآية الكريمة «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» معتبرا كل من هنا والذين فقط يحتسبون عملهم وجهادهم لله من الفائزين بإحدى الحسنيين إما الجنة أو النصر لخليفة الأمة أبى بكر البغدادي نصره الله وأيده.

بخوف وحذر كبير سألت.

- هل سيُنصر خليفتنا بالسكّرين والمُدمنين؟

بصوت مرتفع يحمل في طياته نبرة الغضب أجابني الشيخ:

- الضرورات تبيح المحظورات يا أخي، وقد أفتى شيخنا.. في ذلك وقال لا بأس أمام الضرورة القصوى من الاستعانة بمن نشك في سلوكهم في صنع نصر الأُمة لعل الله يهديهم عن طريقنا ونكسب بذلك أجرا وثوابا، أو يستشهدوا فتُطهرهم الشهادة ونكسب بذلك

أيضا أجرا وثوابا عظيمين.

– شيخنا اعتبرني جاهلا. ضد من سنجاهد يا شيخ؟ هل سيتم تدريبنا ليتم نقلنا بعد ذلك إلى فلسطين المحتلة لتحريرها؟

نظر إليَ نظرة يُؤكد فيها أنَّه لامس جانب التهكم في سؤالي.

– أَجابني بالآية الكريمة واستسمحكم عذرا أن أُوردها في سياق كهذا.

«يأيها الذين امنو لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»

مضيفا أنه علينا طاعة الإمام في كل شيء دون أن نسأله لأنه هو من يمتلك النور والهدى باعتبار الأَئمة معصومين من الخطأ، ويرون أَشياء لا نراها نحن، بل تستعصي على فهمنا وإدراكنا والدليل قصة موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر حيث كان الأَخير يعرف ما لا يعرفه النبي موسى وقام بقتل صبي لأَنه الوحيد القادر على رُؤية المنفعة والمصلحة في ذلك.

– نعم كلامك صحيح يا شيخ. ولكن كيف نعرف الإمام؟ ومن صفاته حسب كل الكتب السماوية التخفي وعدم حب الظهور للناس، وعدم الرغبة في تحمل أَي مسؤولية دنيوية لأَنهم وصلوا درجة من التجلي تجعلهم يحتقرون الدُّنيا ومظاهرها والدليل أَن نفس وقلب سيدنا الخضر ضاقتا بصحبة النبي موسى وما أدراك وسيدنا الخضر لم يطلب البيعة لنفسه لأَنَّه يمتلك العصمة ويرى ما لا يراه الآخرون، مما يعني أَن كلّ من يدعي الإمامة لغرض دنيوي باسم الدين لا يعدو أَن يكون دجالا محتالا.

كانت هذه الكلمة كافية لأَن تُفقد صواب الشيخ ووقاره المصطنع، أَراد أَن يبطش بي. اعتبرني زنديقا أَقرأ الكتب الصفراء

التي سممت أفكاري وجعلتني من المنافقين الذين يشكلون أكبر خطر على الأُمة.

– أنتم أَخطر من الأعداء الحقيقيين يجب أَن تُطهر صفوف الأُمة من أَمثالكم قبل الحرب مع الأَعداء.

لولا تواجد العربي وهيئته العملاقة وتضامن الشباب التونسي والشرايبي الذي قام من مكانه مُهددا كل من يعترض سبيلي، لفتك بي الشيخ وجماعته وصلت بي الجرأة والوقاحة أَن اعتبر الخليفة الإمام المجدد دجالا. هذا خطير جدا ولن يسكت عليه أَبدا. اكتفى بتوعدي وأَنه لن يمر الأَمر دون عقاب طالبا من لسعد وهو يصيح أَن يقوم بجلدي.

كان أنصار الشيخ مستعدون لتنفيذ كل ما يُطلب منهم وهم يُؤمنون بذلك يؤمنون بأَنهم يجاهدون في سبيل الإسلام وأن ما يقومون به هو جهاد في سبيل الله، لم يكونوا يمثلون نسبة كبيرة في ذلك القبو ولا يمثلون نسبة كبيرة أيضا في صفوف المسلمين لكن لا يمكن أَن نُنكر وجودهم.

تجد أغلبهم يفتقدون إلى أَبسط تكوين في الدين لا يعرفون منه إلا إذا كان التبول واقفا حلالا أم حراما، لا يعرفون إلا أَن ظهور شعرة من شعر المرأة المتحجبة كُفر. فما بالك بالأُخريات، لا يعرفون إلا التحدث عن عورة المرأة، لا يعرفون إلا إن كان مص المرأة لذكر زوجها حلالا أم حراما، الأغرب أَن منهم من يعتبرون صلاة الرجل بالسروال غير جائزة لأنها تُظهر عورته، تفاجأت أَن أحد أَئمتهم خطب من المنبر وهو يضع نقابا على وجهه مخافة أن يفتن النساء المصليات بجماله طالبا من الأئمة الآخرين الحذو حذوه، هذا هو الدين الذي يُروج له أَشباه العلماء في شاشات التلفاز حيث لا

يحلو لهم الحديث إِلا على مهبل المرأة، هؤلاء الذين يحثون الناس على الزهد وهم يجلسون على كراسي من الجلد الفاخر ووجوههم تفيض نورا من الأكل الجيد ومن ملذات الحياة، هؤلاء هم من يساهم في زرع الإرهاب.

طلب مني لسعد الثاني وهو يجذبني بعيدا عنهم أن أَلزم الصمت إن كنت أُريد أن أَبقي حيا.

– الفلسفة نتاعك والتمخوير هذا كان باش ينفعك راهو نفعك من قبل ومخلاكش توصل إِلى هذا المكان، هنا الكلام الفارغ يهزك للمهالك رد بالك تعاودها في بلاصة أُخرى وين باش يهزوكم رد بالك عيش خوي.

وعد لسعد الشباب الذين تدخلوا لصالحي أَنه سيعتبر نفسه لم يسمع شيئا، لا لشيء إِلا لأَنني كما قال استطعت أن أَكسر شوكة هذا الذي يتصرف في القبو كأمير مُفوض من البغدادي نفسه، ناصحا إياي ألا أُعاود استفزازهم مرة أخرى ويُستحسن أن اعتذر إذا أَردت أَن يبقى رأسي فوق كتفي، وأَنه قد تلقى أوامر بأَن تتم معاملتهم هم بالذات بشكل جيد.

كل من سمع المجادلة أعجبهم ما اعتبروه تحديا للشيخ الأَمير وليس اقتناعا بكلامي، كان مجرد مناقشة ومُحاججة الشيخ الأمير هو في حد ذاته جُرأة زائدة. الوحيد الذي اعتبره أَميرا مُزيفا هو الشرايبي حيث علَّق.

– يمشي يزمر ماعندو وين يوصل ماتخافش ماهُمش هُم لي يحكموا وتوا تشوف بعينيك.

في الليل سُمح لنا بالخروج من القبو لمدة ساعتين حيث اكتشفنا وجود قبوين اثنين الأول للمؤونة والثاني حيث ينام لسعد ورجاله

كما يقومون بالحراسة طوال الليل بالتناوب، لم يُسمح لنا بدخول أَي من القبوين الآخرين، ولم يُسمح لنا بتجاوز حدود معينة لا تصل في غالبيتها ثلاث مائة متر، سألت الشرايبي عن إمكانية الفرار ليُجيبني:

بأنهم تلقوا تنبيها صارما بأَن المكان محاصر بأَسلاك غير مرئية مُكهربة وقاتلة، وأَنهم لم يرو الأَسلاك لحد الآن وليسوا متأكدين إن كان الغرض من إخبارهم بذلك هو إخافتهم أَم أَنَّ الأَمر حقيقي. معتقدا إِن كان هذا القبو المخصص لاستقبال المجندين ليتم توزيعهم بعد ذلك على المعسكرات التي سيتلقون فيها التدريبات ويقومون انطلاقا منها بتنفيذ العمليات التي تُطلب منهم من تصميم غربي، فإِنه يجزم بوجود هذه الأَسلاك وإن كان من تصميم هؤلاء الملتحين فهو لا يعتقد ذلك فإن الأمر لا يعدو أن يكون كذبة. مضيفا: أنه حتى دون الأسلاك فإن أمر الهروب صعب جدا، مباشرة بعد أن تقوم بتخطي الحد المسموح لك به ولو سهوا يتم إطلاق النار عليك، حيث قُتل إلى حد الآن أكثر من ثلاثة أشخاص حسب ما قيل له لأَنه شاهد مقتل واحد فقط بعينيه.

في الليل أَيضا تقوم مجموعة من الأَشخاص بالتناوب بتنظيف القبو وبملء دِلاء المراحيض بماء البحر الذي يُستخرج من صهريج أَرضي.

كما يتم توزيع العشاء في الخارج، وهو عبارة عن لحم مجفف مع خبز ومرق معلب مع مشروب غازي للفرد، كان الأَكل على العموم مقبولا إِن لم نقل جيد مما يشير إِلى غنى فاحش لمن يُمول هذه المعسكرات.

طلب مني العربي بكل حزم تارة وبالتوسل أطوارا أُخرى أَن اعتذر من الشيخ الذي واظبت على الصلاة وراءه رغم كل ما

حدث، أذعنت في الأخير لرغبته ليس عن اقتناع ولكن عن خوف حقيقي وصل في أحيان كثيرة إلى حد الرعب، حيث كان ينظر إليَّ هو وجماعته بغيظ، نظرات كلها وعيد، تجاوزت الشرايبي وزميله أصبحت العدو رقم واحد عند جماعة الخلافة.

في اليوم الثالث بعد انتهاء صلاة الظهر قمت من مكاني وتوجهت حيث يجلس الشيخ، أشاح عني في البداية بوجهه بينما قبلت كتفه طالبا منه المعذرة معتبرا قلوب الشيوخ أمثاله قلوب ملائكة، لا ولن تحمل الحقد أبدا على إخوانه المخطئين والذين لم يهتدوا بعد إلى الطريق الصحيح.

أعجبه ذلك كثيرا، أرضى غروره، بدت أنيابه ظاهرة، أقول أنيابه ولا أقول أسنانه عمدا لأنني اعتقد أنهم لا يملكون إلّا الأنياب. وهو يبتسم من شدة الرضى.

- بارك الله فيك يا أخ.. وبارك في علمك الذي نتمنى أن يستقيم بقراءة أمهات الكتب لشيوخنا الأفاضل.

- منكم نستفيد شيخ. وهذا ما شجعني على القدوم إليكم والاعتذار منكم.

- أعرف أخي أعرف. أنك كنت ضحية الأفكار المسمومة لبعض الكتب ولبعض الزناديق الذين لا يصلون ولا يصومون.

هنا نظر بشزر إلى حيث يجلس الشرايبي الذي لم يعجبه أبدا ما أسماه تملقي المُنم عن جهل وجُبن فظيعين كان متخفيا داخل ما حفظته من كلمات عن ظهر قلب ليس إلّا حسب رأيه.

- المهم الآن أخي في الله، أنك تُبت وخير الخطائين التوابون وإن الله ليفرح بتوبة عبده، فكيف لا نفرح نحن، سأحرص إن

شاء الله أن تكون في معسكر من معسكرات الجهاد حيث يكون فيه الكثير من الأخوة الحقيقين وليس هؤلاء الزنادقة الذين ابتُلينا بهم. والآن دعني أقوم برقيتك لعل الله يأتي بالفرج على يدي وأخلصك من الشياطين ووسوستهم إن شاء الله.

- يا.. آتني ببعض الماء والملح.

استسلمت له وأنا أتصنع الخشوع ليبدأ طقوسه وهو يقرأ بسرعة أشياء لم أتبين معانيها ومخارج حروفها، ويقوم في الوقت نفسه برشي بالماء الممزوج بالملح وتدليك جبهتي وموضع القلب في صدري. حيث أكد لي في الأخير فوائد هذا الطب النبوي العظيم رغم إعراض الناس عنه متشبثين بما يُسمى الطب الحديث، لكن الحمد لله وبمجهودات بعض الأئِمة أمثاله عادت الرقية الشرعية تظهر من جديد لتمنح الاستقرار والصحة الجيدة للعائلات التي كانت تتهدّدها شياطين الإنس والجن بكل شر، حتى أصبح بعض الأزواج غير قادرين على الانتصاب نتيجة عين الحسد وأعمال السحر الشيطانية، مُضيفا: أن الرقية تقضي على كل هذه الأمور، كما تُساعد على الإنجاب لمن تشكو العقم من النساء، وتقضي ببركة الله على الـأمراض المستعصية والتي لم يجد لها الطب الحديث دواء كالسرطان والبرص وغيرها..، كما تجلب الرزق.

معتذرا في الأخير عن عدم استطاعته القيام بها هنا بشكل كامل حيث تتطلب المكان الطاهر وبعض البخور التي تُجلب خصيصا من مكة والهند والمغرب كما يحتاج للعسل المصفى الذي تم جنيه في عهد النبي سليمان.

نعم قد تصل تكلفة الرقية الشرعية إلى الملايين أحيانا، لكنها تبقى أقل بكثير مما يُطلب من الناس المساكين في المستشفيات الخاصة

حيث لا تكون النتيجة مضمونة، بينما نتيجة الرقية الشرعية وبشهادة كل من جربوها بقلوب خاشعة بحول الله كانت مضمونة، شريطة أن تُعقد النية الصافية من المريض وهذه هي المشكلة الوحيدة التي تعترض فعالية هذه الرقية لأن بعض المرضى هداهم الله يكون إيمانهم ضعيفا ونواياهم كذلك مما يُصعِّب علينا عملنا لكن بحول الله دائما بعد المحاولة والرقية الثالثة يتم الشفاء.

قمت من مكاني وأنا أَتصنع الراحة والطمأنينة النفسية، في حين كنت أَغلي من الداخل محتقرا نفسي كما كان ينظر إليَ كل من الشرايبي وزميله بكل احتقار أيضا، آلمني ذلك كثيرا، رفض كل من الشرايبي وزميله توديعي عندما طُلب منا أن نُغادر. بينما اعتبرني الآخرون محظوظا متسائلين إن كنت أُحس بالتحسن فعلا أم لا، لم يكونوا في حاجة إلى إجابة اصطف الكثير من الشباب في رغبة قوية أن ينالهم عطف الشيخ وبركته إذ ظهرت كل امراضهم فجأة، طالبين منه أَن يتكرم ويقوم برقيتهم ليخلصهم من النحس والتابعة..

هذا ما زاد من غضب الشرايبي تجاهي حيث اعتبر أَمثالي من المُستثقفين حسب رأيه هم من يقومون بالدعاية المجانية لأَمثال هؤلاء الدجالين والمشعوذين باسم الدين بل استغرب كيف أُصلي وراءه.

– سامحني فيك كنت بالرسمي غالط فيك برشة ماتحكيش معايا اكهو.

في حين سألني العربي بكل عفوية.

– زعمة ي.. كيحيد داكشي؟

بعد صلاة الظهر تلك والتي اعتذرت فيها للشيخ نزولا عند رغبة العربي في الظاهر، وتلبية لنداء الرعب الذي سيطر على قلبي

في الحقيقة، دخل لسعد وهو يحمل ورقة في يديه طالبا منا السكوت وأَن الذين سيسمعون أَسماءهم والتي ستكون مرفقة بأَرقام يجب عليهم حفظها عن ظهر قلب لأَنها ستكون المُعرف الجديد الذي سيتم به التعامل معهم من هنا فصاعدا وعليهم بالاستعداد، لأَنه سيتم نقلهم إلى معسكراتهم التي سيتلقون التدريبات الضرورية فيها. وأَنهم غير معنيين باستراحة الليلة.

بدأَ بأسماء الملتحين تباعا، وأَسمائِنا نحن الأربعة أَيضا تباعا، مما يعني أَننا في وسط تنظيم منظم ويعرف ما يفعل بشكل دقيق وليس عشوائيا كما يعتقد أَغلب الناس، كنا تقريبا أَربعين شخصا ممن تمت المناداة عليهم لم يكن معنا الصحافي الشرايبي وصديقه وهذا الذي حزَّ في نفسي كثيرا إذ تمنيت أَن أَحظى بصحبتهما. لم يشفع لي الفراق في أَن يسامحني الشرايبي ظَل مشيحا عني بوجهه طوال نصف اليوم المتبقي في ذلك القبو لم أره بعد ذلك بتاتا ولم أَسمع أَخباره.

الفصل 11

المعسكر «الداغشي»

«إن العدل أقلّ تكلفة من الظلم.. والسلم أقلّ كُلفة من الحرب»

بعد غروب الشمس مباشرة، ظهرت شاحنة كبيرة من العدم كأنها مارد جني، طُلب منا أَن نصعد، وجدناها مجهزة بكراسي خشبية تحيط بها من كل الجوانب، استطاع الذين صعدوا الأوائل أَن يحتجزوا مكان، بينما تكدس الآخرون في الوسط وهم يفترشون بعض أَمتعتهم، استمرت الرحلة حوالي سبع ساعات كلها في طُرق وعرة بما يجعل النوم شيئا صعب المنال لن يجد طريقه إِلى جفنيك لكثرة الاهتزازات التي تجعلك ترغب في أن تتقيأَ أَحشاءك. هذه المرة كنا مستسلمين تماما، استسلاما يصل إِلى حدود الرضا الناتج عن اللامبالاة وليس الاقتناع.

توقفت الشاحنة بعد أكثر من سبع ساعات من السير، في مكان عبارة عن واحة صحراوية بأشجار النخيل المتناثرة بشكل

غير منتظم هنا وهناك خالٍ تماما لا تظهر فيه أية مظاهر للحياة. تلقى السائق بعد خمس دقائق من وقوفه إشارة ضوئية ليستمر في طريقه حيث أضواء الشاحنة مطفأة استقبلنا أشخاص بلباس جنود طلبوا منا بشكل حازم النزول والاصطفاف في مجموعات من خمس صفوف. ليتم بعد ذلك مناداة الشباب الملتحي حيث تَمَّ اصطحابهم إلى مكان لم نعرفه، نفس الشيء تحركت الشاحنة من مكانها قليلا لتختفي كأنها لم تكن موجودة، كأننا في عالم سحري. الأرض تقريبا عبارة عن مجموعة من الربوات المتقاربة لكنها تبقى منبسطة حيث تتيح لك الرؤية لمسافة بعيدة جدا. ومع ذلك لم نتمكن من تحديد مكان الشاحنة والشباب الملتحي، بعد ذلك قام الشخص الذي استقبلنا رفقة سبعة شباب مسلحين بالترحيب بنا بخطابين متنوعين ومتناقضين كان يحفظهما عن ظهر قلب:

السلام عليكم.

أنتم الآن في معقل من معاقل جهاد هذ الأُمة، في معسكر الأمير أَبو عائض التونسي، أَنتم أَملها في أَن تتخلص وتخرج مما هي فيه من ذُل وهوان إِلى العز والنصر تحت قيادة أَمير المؤمنين نصره الله وأَيده على أَعدائه، أَنتم هنا الرابحون إما النصر أَو الشهادة حيث ينتظركم ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، تنتظركم الحور العين وكل فواكه الجنة الله أكبر الله أكبر الله أكبر

وقتها فقط تفطن حيث كان ينتظر كما ينتظر المغنون التصفيق لمقطع كانوا يظنون للحظات أنه سيُلهب الجماهير ليكتشفوا العكس. إِننا لم نتجاوب معه إِطلاقا ولم نردد الهتاف وراءه هنا تذكر بأنه اختلط عليه الأمر، وأَن هذه الخطبة العصماء معدة لغيرنا، ليتدارك أمره في غضب ظاهر فبدأ خطبة أُخرى تصلح لأَمثالنا:

أنتم هنا بموجب عقد مع تنظيم الدولة وقعتموه بكامل وعيكم وبرضاكم وتم إِخباركم بأَن لا فرصة للتراجع بعد التوقيع

كأنه قرأ أفكارنا ورغباتنا في الاستفسار والاحتجاج على طريقة العقد المُلغمة.

ليُضيف: أَنتم هنا لا تملكون الحق حتى في السؤال وليس لكم الخيار في ذلك، خياركم الوحيد هو أن تُنفذوا ما يُطلب منكم بكل حذافيره لأَن هذا هو السبيل الوحيد فقط الذي يضمن استمرارية جريان الدم في عروقكم.

أَنتم هنا ستعيشون وفق مجموعة ووفق مجال محدود، أَي محاولة للتواصل مع مجموعة أُخرى أَو اجتياز المجال المسموح لكم به يعتبر جريمة عقابها الموت، لا تُوجد هنا سجون، هنا فقط الرصاص الكفيل بأَن يُنهي حياتكم أَو أَن يرسُم لكم طريق الخلاص إِلى الحرية والمجد والغنى، حريتكم مجدكم وغناكم في أَن يُحقق التنظيم كل الأَهداف التي أُنشأ من أَجلها، هذا فقط ما يمنحكم حريتكم، ولكي يُحقق هذه الأهداف يحتاج إِلى رجال أَقوياء يُنفذون ما يُطلب منهم بحرفية وطاعة لأَنكم بذلك تخدمون أَنفسكم أَولا والتنظيم ثانيا.

لا تُضيعوا تفكيركم وقواكم في أَشياء أُخرى وفي البحث عن طُرق أُخرى هذا هو الطريق الوحيد للخلاص، لن تستطيعوا الفرار وإِن بدا لكم المكان خاليا فهو ليس كذلك، لا تملكون أَي نسبة نجاح وحتى إِن استطاع أحدكم الهروب وهذا شبه مستحيل فإِنه سيجد في الخارج كل شرطة العالم تبحث عنه في صورته، في بصماته، في اسمه، في صوته، لَن يستطيع الاختباء نحن فقط من يملك الزر القادر على أَن يجعل من اسمائكم ما نريد. أَنتم بعملكم لكم الخيار في أَن تكونوا

مجندين بواسل أَو إرهابيين مُطاردين أَين حللتم وارتحلتم، نُخبركم بذلك حرصا على أَلّا تُضيعوا طاقة تفكيركم وجهدكم في أَشياء لا تنفع، ركزوا على تدريبكم وعلى تنفيذ الأَوامر الصادرة إِليكم بكل حرفية. الآن ستدخلون إلى مهاجعكم حيث سيتولى الجنود المكلفون بتدريبكم توجيهكم.

تصبحون على خير.

فجأة فُتح باب في الربوة التي وراءنا والتي لا يتجاوز ارتفاعها متران على أَبعد تقدير على شكل هضبة رملية تبدو عادية بحيث يستحيل أَن يُدرك أَحد أَن ما كان وراءنا باب كبير عرضه أَكثر من ثلاثة أَمتار، كل شيء فيه يُوحي بأَنه منظر طبيعي لا غير. لا تستطيع أَن تُميز بين لون الباب ولون الرمال للحظة تريد الإمساك به وأَنت تعتقد أَن حبات الرمل ستكون بين يديك.

في الداخل كان شيئا آخر وجدنا أنفسنا داخل باحة واسعة مضيئة إِضاءة خافتة تُتيح الرؤية بشكل واضح، يوجد في ركن منها مكتب أَنيق وراءه خزانة بملفات منظمة، كما تُفضي إِلى خمسة أَبواب مرقمة من واحد إلى خمسة. المكان كله يوحي أَنّه حديث البناء وأَن الاشغال لم يمر زمن طويل على انتهائها.

كنا السكان الأَوائل لهذه الغرفة حيث طُلب منا الدخول إلى الغرفة رقم واحد ذات الباب الحديدي على شكل مربعات صغيرة تتيح لمن في الباحة النظر داخل الغرفة في حين لا تتيح لمن في الغرفة النظر إِلى الباحة.

على الجانب الأَيسرُ من الغرفة أَسِّرة حديدية من طابقين أَنيقة نظيفة يتوسطها ممر عرضه مترين يُفضي في الاتجاه المعاكس للباب إِلى مجموعة من الصناديق الحائطية مرقمة من واحد إلى أَربعين كل

واحد منها يحمل رقم صاحبه، حيث طلب منا أَن نضع أَمتعتنا. تجد نفسك بعدها أَمام باب يفضي إِلى المراحيض على اليمين، المقدرة بستة مجهزة بصنابير المياه كما يوجد على اليسار نفس العدد من الأَدواش المجهزة أيضا بتوسطها حوض كبير بعشرة صنابير ماء، معلقة عل حائطه مرآة مستطيلة الحجم وكبيرة. فوق باب مدخل الغرفة الذي يُفضي إِلى الباحة تجد تلفاز أَربعين بوصة «سامسونج» مع لاقط هوائي مثبتة على الحائط تتيح لك متابعة كل المنافسات الرياضية وبعض الأَفلام التجارية التي تتخللها أَحيانا مشاهد جنسية، لا يملك أي واحد الحق في التحكم في «ريمورك» اللّاقط، أَنت مجبر على أَن تشاهد كل ما يُعرض عليك فقط. علّق أَحد الشباب التونسي على ما رأيناه منبهرين.

– هاو نعيم التنظيم كان في بالي هكا راني انخرطت فيه عندي مدة.

كانت كل الانطباعات الأَولية تصب في هذا الاتجاه أَنستنا حذرنا وخوفنا الذي وصل إِلى حد الرعب في السابق، لم ندرك بعد ماذا تعني كلمة حرية كان اشتياقنا، جوعنا، عطشنا للمكان الجيد والنظيف هو المسيطر على أَحاسيسنا هو الذي دفعنا إِلى التعبير وقتها بشكل إيجابي عن كل ما رأيناه أحيانا نقول كذبا دون أَن نعي ما نقول بأَنّنا مُستعدون للتخلص والتضحية بحريتنا مقابل حياة كريمة يتوفر فيها الأَكل الجيد والملبس.. لم نكن ندري أَو نعرف بأَن الحرية هي الركيزة الأَساسية لأَي حياة كريمة، وأَن من دونها لا معنى ولا طعم لكل شيء آخر مهما كان.

كُنّا مشدُوهين وأَفواهنا مفتوحة كأَنّنا في نعيم حقيقي، وهذه هي الخاصية التي تتميز بها الحضارة الغربية بدون منازع، تُسقيك

السم في كأس العسل تشربه وأنت تبتسم معتقدا أن ما تشربه هو إكسير الحياة وأنك من المحظوظين في هذا العالم. لتدرك مرارته بعد فوات الأوان، لا بل تُدرك حجم التدمير الذي يحدثه في داخلك يجعلك لا تعرف نفسك بل تتمنى الموت لا الحياة التي كنت تعتقد أنك ستعيشها مُستمتعا بملذاتها.

الباب الثاني والثالث كانا لغرفتين مثل غرفتنا، أمّا الباب الرابع فيفضي إلى المطعم والخامس يفضي إلى المقهى التي يسمح لنا بالجلوس فيها أوقات الراحة وعُطل نهاية الأسبوع.

الذي يعيش في قبو مثل هذا وفي تنظيم كهذا لا يستطيع أن يدرك أبدا غير المجال الذي يعيش فيه، يستحيل أن يدرك أو أن يرى منظرا غير المنظر الذي اعتاد أن يراه كل يوم نفس المنظر يتكرر، إذ تُطبق أوامر صارمة تصل إلى الموت في حالة اختراق مجال آخر. أنت هنا ملزم بتطبيق النظام بكل دقة لأن هذا هو السبيل الوحيد الكفيل ببقائك حيا، هنا تذكرت كلام الصحافي التونسي بأنّه وقف مشدوها أمام التنظيم والتسيير الدقيق لهؤلاء باعتبار هذا التنظيم نفتقده نحن كمجتمعات وكدُوَّل على العموم في كل شيء في إدارتنا ومستشفياتنا مما يجعل هذا التنظيم غريبا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، سيتجلى لنا ذلك بوضوح في أشياء كثيرة من بعد.

لست أدرى أهو الحظ أم هي العناية السماوية، ليلتها تم تعيين العربي رئيسا للغرفة حيث طلبوا منه مرافقتهم ليتم تلقينه دوره الجديد.

رئيس الغرفة هو المكلف بفرض النِّظام داخل الغرفة تستطيع يداه أن تمتد لأي واحد دون أن يملك الآخر الحق في الرد عليه، هو المكلف بتنظيم الأدوار في كل شيء. في الحمام، في الأكل وأهم شيء

النِّساء اللواتي يتم جلبهن بشكل دوري. رضاء رئيس الغرفة عليك يعني أن تدخل إلى مهجع الفتاة الأول حيث يشترك في مضاجعتها خمسة أشخاص بالتناوب نصف ساعة للواحد على أبعد تقدير، هناك أكثر من ميزة في عمل رئيس الغرفة تجعله متميزا فهو من أصحاب القرار هو الوحيد الذي يستطيع أن يُخاطب الجنود الآخرين ونقل ما نريد إليهم، بطلبه فقط يمكن للطبيب أن يزور غرفتنا في الليل ليفحص أحد المرضى..

عاد العربي مُستأسدا طالبا منا التزام الصمت والهدوء حيث شرح لنا بحماس القائد ما هو مطلوب منا وأنّه علينا طاعته وتنفيذ كل أوامره، بعد أن أكمل خطبته طلب منا الخلود للنوم، كان سرير رئيس الغرفة مُميزا بجانبه مكتب صغير فيه درج يحوي قلما ومجموعة أوراق، أمر العربي بأن يكون سريري الأقرب إلى سريره رغم أنني لامست في كلامه بل أوامره بعض الفظاظة، ضحكت في داخلي مستغربا كيف بات أسيرا لِسحر المنصب الذي يكون أول من يكتوي بناره بعض الأقارب، كانت فظاظته مع كل من الطيبي وزيدان أكثر مني بكثير، المسكينان حاولا تهنئته ليقابلهما بسيل من السباب طالبا من كل واحد منهما أن يخلد إلى النوم بصمت، انسحبا في ذل وهما يعتقدان كما اعتقدت أنا أن العربي تغير وسينتقم من الطيبي أشد انتقام.

استيقظت حوالي الساعة الواحدة بعد الزوال حيث كانت تشير الساعة الحائطية المعلقة فوق التلفاز كان العربي مستيقظا كما بدأت الحركة في الغرفة تدُب. شرع العربي في ممارسة مهامه مُطالبا بالانضباط وعدم الصياح والحفاظ على نظافة المراحيض والأدواش، في حين كان أغلب الشباب يتساءلون إن كان باستطاعتهم التدخين وكيف السبيل إلى إشعال سجائرهم.

العربي نفسه اصطدم بهذه المشكلة التي لم يعرف لها حلا ليستعين بالجندي المرابط في مكتبه وسلاحه لا يفارقه، دخل الأَخير وهو يشير إِلى عدة أَماكن حائطية حيث يمكن استخراج ولاعة كالتي توجد في السيارات ليقوم المدخن بإشعال سيجارته وإِرجاعها إِلى مكانها، الحراس لم يكونوا يتكلمون معنا أَبدا، كان كل شيء يُنقل إِلينا عبر العربي حيث يتكفل بإِيصال كل ما هو مطلوب منا، يصبح واحد منا مع أَفضلية في التعامل فقط في التداريب حيث كان المدربون يتواصلون معنا بالسب والشتم في أَغلب الأَحيان وبالمزح في بعض الأَحيان.

طُلب منا بعد ذلك أن نخرج في صف منتظم وأن نقف في وسط الباحة في أَربعة صفوف عشرة في كل صف القصير ثم الطويل، وأَن يكون هذا وضعنا كلما دعينا للخروج للباحة.

في الباحة تمت مناداتنا بأرقامنا كل من يسمع رقمه يجب أَن يقول بصوت مرتفع حاضر، بعد العد طُلب منا أَن نتوجه إِلى المطعم. حيث كان كل شيء مُنظم طاولات حديدية بلون الالمنيوم متينة وصلبة مع كراسي من نفس اللون وبنفس الصلابة مثبتة على الأَرض لا يمكن لأَقوى رجل تحريكها من مكانها. تجلس لتجد أَمامك طبقا من نفس اللون يحتوي على الغذاء داخل مربعات محفورة، كان الطعام ليلتها عبارة عن مرق الفاصولياء دافئة مع شريحة لحم محترمة من لحم البقر وسلاطة مع تفاحة وكأس بلاستيكي مغطى من الشاي الساخن. هذا على العموم ما يكون عليه طبق الغذاء غالبا مرق البقوليات أَحيانا تُقدم عوضها العجائن الإيطالية اللحم دائم الحضور بأنواعه ويستبدل أَحيانا بالسمك.

في الصباح كوب كبير من القهوة الممزوجة بالحليب مع خبز أَو

فطائر باريسية جبن أَو مربى أَو بيض وكأس من العصير. في المساء دوما حساء مع فاكهة وسلاطة.

يوم السبت يختلف الأمر يكون العشاء مميزا أَحسن من الغذاء وتقدم معه قارورتان من الجعة ونصف لتر من الخمر الأَحمر كل ذلك في قوارير بلاستيكية رخوة. يقوم بخدمتنا ثلاثة أَشخاص يرتدون كلهم ميدعا بيضاء لا يتكلمون، نراهم أَيضا ثلاث مرات في الأَسبوع يتدربون معنا يقومون بجمع الفتات من الخبز المتساقط على الأَرض وكذلك بجمع الأَطباق التي أَنهى أَصحابها الأَكل لتوضع كلها على طاولة متحركة وتترك جانبا، لا يتم أَبدا فتح باب المطبخ في حضورنا، كما لا يُسمح لنا بتاتا بطلب المزيد من الأَكل أَو الخبز، قد يحدث أَحيانا أَن يسقط طبق أَحدنا على الأَرض ليكون أَمام خيارين فقط أَن يجمع بقايا الطعام من الأَرض ويأكلها وهذا ما يحدث كثيرا أَو ينصرف إِلى المقهى.

بعد الأَكل عموما يكون مسموحا بولوج المقهى التي يكون بابها مفتوحا وتتسع في كراسيها وكبرها إِلى أَكثر من مائة وخمسين شخصا يسمح لنا بالجلوس فيها كلنا مجتمعين، سكان الغرف الثلاث أَيام العطل. وعند مشاهدة أَبرز مباريات كرة القدم العالمية كل غرفة يكون مكانها محددا بدقة ولا يسمح لنا تجاوز أَو مشاركة أَفراد الغرف الأُخرى أَي شيء لا حديث ولا مناقشات. كان هذا نوع من العذاب المقصود الذي مُورس علينا عمدا.

في اليوم الأَول طُلب منا بعد المقهى حيث كنا السكان الوحيدين لذلك القبو الذي سيستقبل في اليوم الموالي سكان الغرفة الثانية وفي اليوم الذي يليه سكان الغرفة الثالثة لتبدأ التداريب في اليوم الخامس لوصولنا. سأعود لليوم الأول لأننا كلنا تشاركنا نفس

المسار بعد خروجنا من المقهى حيث يجب أن نصطف في الباحة في أربعة صفوف دائما الصف الأول الذي يحمل رقم واحد والصف الثاني والثالث والرابع، حيث تكون الأولوية في كل شيء للصف رقم واحد، عندما يطلب منا مثلا غسل ملابسنا أو الاستحمام يقوم بالدخول أولا الصف الأول حيث يتسع مخدع الدوش لشخصين يفصل بينهما جدار خفيف.

وبعد ذلك الثاني فالثالث فالرابع في كل شيء كان يجب أن نُحافظ على هذا النظام وبهذا الترتيب الصارم مالم يقُم رئيس الغرفة ببعض الاستثناءات طبعا حسب اجتهاداته. في الباحة وبعد إعادة النداء بأرقامنا كأننا يمكن أن نتبخر داخل القبو، طُلب منا الدخول إلى الغرفة بنفس النظام وفتح صناديقنا حيث وجدنا داخلها بدلتين للنوم بدلتين رياضيتين مع أحذيتهما وبدلتين عسكريتين بلون التراب حتى ليخال المرء أنَّه يمسك حياته بين يديه وليس بدلة.

مع حذائين بنفس اللون. ووجدنا كذلك غيارات داخلية وثلاث مناشف مختلفة الحجم بالإضافة إلى محفظة كان بداخلها كل لوازم النظافة لنا وللملابس. الغريب أن الملابس كانت على مقاسنا بالضبط، لنتذكر كلنا الاستمارة التي طُلب منا فيها ذكر مقاستنا كل شيء منظم بشكل غريب يجعلك تشك في نفسك بأن هؤلاء يعرفون عنك أكثر مما تعرف عن نفسك لم تكن الاستمارة التي كان مطلوبا منا في تونس في ذلك المكتب الغريب مجرد مسرحية كما قال العربي بل كانت استمارة حقيقية لمكتب حقيقي يقوم بعمله على أحسن وجه.

طلب منا بعد ذلك الدخول للحمام حسب نفس الترتيب كان الماء دافئا في الأول وغريبا مطعمه اعتقد للوهلة الأولى أنه بمطعم الكلور القوي كان يشبهه، لكن لم يكن هو، تشعر مباشرة بعد أن

يلمس جسمك في رغبة جامحة في أن تقوم بحكه كله استمر على هذا النحو دقيقة تقريبا ليعود ماءً عاديا وطبيعيا، بعد ذلك كلنا تشاركنا نفس الإحساس ونفس التساؤل لكن لا يوجد من يجيب.

خرجنا من الحمام بملابسنا الجديدة التي طُلب منا ارتداؤها كأننا فريق كما كُنَّا أكثر نظافة من قبل اختفت كل روائح العرق الكريهة التي كانت تنبعث قوية نفاذة من البعض. اشتغل التلفاز فجأة حيث كان ينقل لنا إحدى مقابلات البطولة الأوروبية على القنوات القطرية بصوت عربي فصيح، ويبشرنا طالبا منا ألّا نُفوت لقاء «الكلاسيكو» لقاء الكون بين ريال مدريد وبرشلونة مما يعني أن لا أحد سيستمع لصراخ آلاف الضحايا في هذا العالم، لا أحد سيلتفت للجرائم اليومية التي تُرتكب في كل أنحاء العالم، لا أحد سيلتفت لآلاف الشعوب التي تتم سرقة خيرات بلادها كل يوم، لا أحد سيلتفت للشعوب التي تتم أبادتها لأسباب عرقية ودينية كل يوم، بورما العراق، أفريقيا الوسطى، الشيشان..، الكل مشغول بمتابعات «الدربيات» العالمية كل أسبوع نتابع «دربي» محليا أو أجنبيا بطولة أُوروبية أو محلية لنتحدث عنها ونحللها ونتعصب لها ونستعمل كل الضمائر التي تؤكد أن ذلك يعنينا.

- كنا باش نربحوكم لكن الحكم غشاش.

نعم نحن من سيربح وليس هم.

ليجيب الآخر.

- ديما برشلونة ديما ميسى احنا عندنا ميسي. ونتوما آش عندكم؟

هم عندهم ميسي أصبحت الضمائر العربية تبكي وهي تنوح من الاستعمالات الخاطئة لها. أُسبوع ونحن نتحدث عن لقاء كروي

ليُعاد في الأُسبوع الموالي لقاء آخر المنهزم من المتفرجين يُمني النفس بالتعويض والمنتصر يمني النفس بانتصار آخر. في الأَخير ستسمع تعليقا من أَحدهم في الجيبوتي يقول مثلا.

– نحن فريق الريال ربحنا أَكثر من كأس.

عندما تعتقد شريحة كبيرة من شبابنا بأنها شريكة في ربح وهمي والأَكثر من ذلك تَنسُبه إِليها بكل فخر كأنه جزء لا يتجزأ من انتصاراتها. لا نكتفي بذلك بل أَصبحنا نشتري الوهم ونحن نعتقد أَننا سنربح كل الرهانات اليومية والأُسبوعية، العقول سُلبت وسُلبت معها الأَموال أيضا ونحن نضحك سعداء. أَتُوجد مأساة أكبر من مأساتنا؟

في الصيف يختلف الأَمر تصبح الأَجندة كلها ممتلئة بكل نجوم العالم والمحليين في كلّ البلدان مهرجانات في وضع هكذا كله ضجيج، هل هناك من سيستمع لصراخ الملايين من الأبرياء الضحايا، بينما العالم كله منشغل في كل هذا تذكروا أن هناك أناس تُقصف، تُدمر، تُقتل، وثروات تسرق. هل من مستيقظ؟

الغريب أَننا نحن من هم في وضع كهذا، وفي معسكر كهذا، انقسمنا بسرعة البرق بعد سماعنا النداء، «البرشلونيون» يهتفون من اتجاه «والرياليون» من الاتجاه الآخر، كانت تلك أَكبر مشكلتنا لم يكن يهمنا ما نحن فيه كل ما يهم وقتها، من سيربح؟ بل كنا متعصبين إِلى أَبعد الحدود قد يصل التعصب أحيانا إِلى حد البكاء لخسارة فريقنا الذي سيتقاسم معنا بعض أَرباحه. يُنظر للذين يبكون في سبيل فريقهم كالملائكة التي لم تحتمل قلوبها الرقيقة مشاهدة نجم «كرولاندو» أَو «ميسي» غاضبا باكيا. في حين على نفس الشاشة سيشاهد نشرة الأَخبار تخبره قتل المئات من أَبناء جلدته قصفا،

ذبحا، حرقا، ورغم ذلك لا يتحرك له ساكن. نحن المجندون في تنظيم داغش نفكر ونتفاعل بالبكاء والسب والشتم مع لقاء «الكون» وننسى ما ينتظرنا من مصير مُظلم، بل طوال أُسبوع كامل قبل المقابلة ونحن نتكلم ونتكهن بالنتيجة ونتحدى بعضنا بعضا، كأَننا نحن من يملك مفاتيح اللعبة بين يدينا.

طُلب منا في الساعة السابعة والنصف ليلا بعد تناول وجبة العشاء الخروج إِلى الباحة وفق نفس النظام، ليفتح باب القبو للخارج حيث سُمح لنا باستراحة لساعتين نتنفس فيها الهواء ويمنع فيها التدخين منعا باتا. في حين يُسمح لنا بإخراج القهوة أَو الشاي والمشروبات الغازية التي احتفظنا بها من العشاء في كؤوس بلاستيكية.

كان المجال المسموح لنا التجول فيه مُحدّدا بدقة بالغة حيث تحدّه أَشجار النخيل التي بدت لي ليلتها متضامنة معنا تُحس غُربتنا كشجرة عبد الرحمان الداخل الذي أَحس بالغربة في الأَندلس وهو ملك ليأخذه الحنين والشوق إلى بغداد حيث دُفن الأَهل والاحباب. فبماذا سنشعر نحن؟ الممنوع علينا الاتصال بالعالم الخارجي، أَهلنا وأُسرنا لا يعرفون عنا شيئا ونحن لا نعرف عنهم شيئا، ومع ذلك منّا من هو منشغل بنتيجة مقابلة الريال وبرشلونة، أي غباء هذا؟ أي تحول نحن فيه، يجب أَن نبكي أَن نقوم بإضراب جوع أَن نموت لكننا كنا جُبناء جُهالا. والجبن المقترن بالجهل قابل للتحول إِلى أي شيء. نعم كان يمكن أَن يكون الخيار لنا كان يمكن أَن نرفض.

الشرايبي رفض لكنه ظل وحده، حتى أَنا خذلته أَنا الذي كنت أَعتقد كذبا أَنني فهمته خذلته بجبني، بخوفي، الشرايبي كان يتلقى الصفعات وهو يشعر بالفخر والاعتزاز، لم تثنه عن تنبيه كل

من يدخل المعسكر إلى الوضع الذي ينتظره، كان يسهر الليل ينتظر القادمين الجدد إلى الجحيم ليقول لهم أين هم ليحثهم على الثورة على العصيان ليخرجوا مما هم فيه لم تثنه الصفعات والإهانات بل زادته إصرارا. في حين كنا كلنا جبناء أنا لم يعد يُهمني إلا نفسي تسارعت بجبن فظيع أتمسح أذيال شيخ مشعوذ دجال طالبا غفرانه، لو كان هناك عشرة فقط من أمثال الشرايبي في ذلك المعسكر لما قام أبدا، لو كان.. لو كان..

لكننا هنا وهناك رغم الفقر والاحتياج البطالة، العهر، الطفل اللقيط في الاحشاء، السائل المنوي المتعفن في المسالك، الملابس المهترئة، الأرجل الحافية كل هذا لا يمنعنا من التفكير والخوف على مصير برشلونة أو ريال مدريد.

كرهنا أنفسنا لنحبَّهم نسينا وضعنا المُزري لنتذكر ترتيبهم في بطولاتهم نتذكر أمجادهم كؤوسهم حفظناها عن ظهر قلب، أين هي أمجادنا؟ أين هي أهدافنا؟ ضاعت كما ضعنا نحن أبناء عاهرات نستحق ما نحن فيه فلنمت وليحيا الغرب الذي نحبه دون أن نشعر أَصبح حبه مغروسا في أعماقنا نتنفسُه.

في قمة غفوتي وسرحاني اقترب مني العربي مُعطيا ظهره للنخلة، طالبا مني بحزم أن استمع إليه دون أن أجيب أو أقوم بأَية حركة، كان يتكلم وهو يتظاهر بمضغ شيء ما ووجه إلى الأَرض.

أَخبرني: بأنه يعتذر على الفظاظة التي عاملني بها وبأنه مضطر لذلك باعتبار أن المكان كله مراقب بكاميرات دقيقة موجودة في كل مكان تستطيع معرفة ما تقوله انطلاقا من حركات شفتيك، كما يستطيعون معرفة نوع البراز الذي تخرجه مؤخرتك، وأن كل ما يجري من كلام وحوار يتم تحليله لتتخذ مجموعة من الإجراءات

وفقه طالبا مني أَن ابتعد عن كل ما يمكن أن يُثير الانتباه والشكوك وأَن أَتخلص نهائيا من فلسفتي التي تُؤدي إلى الموت محتفظا بتعليقاتي لنفسي دون أَن أُشاركها مع أَحد وأَنه ممنوع عليه بتاتا أَن يخبر أَحدا بهذه المعلومات لكنه أَخبرني، لأنه يحبني ويعتبرني أَخا له.

زاد ما سمعته منه من سخطي وزاد يقيني من كل كلمة قالها الصحافي التونسي الشرايبي لم أَستطع سماع المزيد كان ما قاله يُغني عن كل تعريف، قمت من مكاني رافعا يدي معبرا عن سخط حقيقي، لانخرط في بكاء مر اجتمع حولي أكثر من واحد ليخففوا عني ما أنا فيه.

استطاع العربي بفطرته ويقظته التي فاقت كل التوقعات أن يتغلب على الآلة كان كمن فَهِم كيف يتم تسيير النظام هنا، حيث يستطيع أَن يُغافله دون أَن يُسجل ذلك ضده، أن يُمرر ما يريد في غفلة منه، قوارير الخمر للجنود، للمدربين تُحسه أَحيانا بأَنه يعرف مكان تواجد الكاميرات، قال لي مرة أَنه يشك في كلّ شيء حتى الطيور في الخارج عندما تحلق يعتقد أنها تحمل كاميرات، كان يعرف متى بالضبط يمكن اختراق النظام ليفعل ذلك بمهارة منقطعة النظير.

حاولت مرارا وأنا في المعسكر أن أرسم صورة لمن يتحكمون في هذا النظام ويوجهونه لكنني لم أفلح، كيف هم؟ كيف هي وجوههم؟ كيف اهتدوا إلى هذه الطريقة العبقرية المحكمة ليتحكموا في عقول الناس في كلّ أَنحاء العالم وهم في منازلهم أَصبح الناس في كل العالم جل العالم لا يرون إلَّا ما يُريه النظام لهم ولا يسمعون إلا ما يُطلب منهم أن يسمعوه ولا يأكلون إلَّا ما يطعمونهم في انصياع تام، قد يحاول الأَب دامعا باكيا شاكيا ظروف الحياة بأَن يُقنع ابنه

أَن يرتدي سروالا ممزقا لكن دون جدوى لن يستمع إِليه لن يقتنع بكلامه بظروفه، الأَب نفسه لن يقتنع وسيعتبر ذلك نحسا وعين حسودٍ جعلته هكذا تستوجب حجابا من عراف مغربي. لكنهم هم أَيُّ سحر يملكون دون أَن يتكلموا يكفي أَن يُريك السروال الممزق ليتهافت الملايين لشرائه بأغلى الأثمان، حتى مأكلنا، مشاربنا لا نرى السعادة واللذة إلّا في ما ينصحونَنَا بأَكله وشربه، قد يخرج طبيب مُعين صائحا هاتفا بكل الدلائل العلمية التي يحملها بين يديه بأَن هذا الطعام مُضر بالصحة مسرطن..، سنكذبه كما كذبنا الأَب لن نقتنع بكلامه كما لم نقتنع بكلام الأب بل أَحيانا يجد هو نفسه غير مقتنع بما قاله لتشاهد أبنائه، زوجته يأكلون وهم يتلذذون ما حذر هو من تناوله. أُريد أَن أَعرف شكل هذه الكائنات، هل هم بشر؟ ومن أي صنف؟

في الليل كان الهدوء والسكون مخيما في الغرفة استطاع العربي بكل الوسائل القمعية المعروفة أَن يفرض النظام، المدخنون يدخنون بصمت ورغم ذلك لم نكن نشتم رائحتهم لنتفطن إلى وجود خمسة مخارج للتهوئة في السقف تفتح آليا وتقوم بشفط الهواء الملوث لتستبدله بهواء آخر نظيف. الكل بدأ الآن يدرك ما هو فيه. سيطرت عليَّ صُورة أُمي وأَبي وأَنا أَتخيل منظرهما وهما يحاولان الاتصال بي دون جدوى.

سيطرت عليَّ صورة دنيا باكية دامعة لن تعيش السعادة التي حلمنا بها. أبوها سيُصادر جسدها مهبلها ليبيعه باسم الشرف والزواج لمن يدفع أكثر، لن يُؤخذ رأيها ليُتهم الدين باطلا ويُحملوه زورا مسؤولية الوضع المرزي للنساء، سيظلون يتاجرون باسم الدين، سيحرمون الفتاة من قيادة السيارة باسم الدين، سيُصادرون تفكيرها وجسدها باسم الدين، سيزوجونها غصبا شيخا عجوزا

باسم الدين، بينما هم يتمتعون بالخمر والجنس والسرقة مع الشيطان، هنا في هذا المكان. كان العربي واجما سارحا ينظر إِلي بين الفينة والأخرى ليقول في الأخير.

– توحشت أُمي، توحشت ولادي توحشت حياة مرتي، زعمة يتكتب لي عمر جديد ونشوفهم.

– نعم هنا تحتاج إِلى تدخل القدر ليُسطر لك بكل قوة تتحدى تنظيمهم عمرا جديدا لتعيش. في الصباح بعد عرض الباحة قبل الإفطار كنا على موعد مع الطبيب حيث تم اقتيادنا إِلى المقهى لنجد خمس غرف صغيرة استُحدثت، في نفس الغرف التي يتم تقسيمها إلى نصفين لنضاجع النساء اللواتي يتم جلبهن بشكل دوري وبنفس الترتيب أَيضا، وجدنا في كل غرفة طبيبا قام بفحصنا بشكل دقيق ليقوم في الأَخير بأخذ عينات من دمنا. عند الخروج نجد حلَّاقا ينتظرنا خارج الغرفة يطلب منا الجلوس بإشارة من يده، ليقوم بسرعة فائقة بحلق شعر رؤوسنا، اتجهنا بعدها إلى المطعم حيث فطور الصباح. استشعرنا وجود أَصوات وحركات في الغرفة رقم اثنين لكن لم يكن مسموحا لنا بتناول الطعام معهم كنا نتشارك فقط التدريب والمقهى دون أي اتصال فيما بيننا.

في اليوم الخامس بدا البرنامج اليومي الحقيقي والذي سيتكرر بنفس الوتيرة كأَنه يوم واحد مع اختلاف بسيط ليس مع نفس المُجندين، المدربون فقط ومن يقوم بالخدمة الذين أصبحت منهم أَنا والطيبي وزيدان فيما بعد بفضل ذكاء العربي واستماتته، الذي استطاع أن يفهم قبلنا مالم نفهمه نحن إلا من بعد، هم فقط من رافقنا طوال هذه الرحلة التي استمرت سنوات.

تبدأ التداريب دائما بعد الغروب لتستمر من خمس إلى ست

ساعات. في الأَول شرح لنا المدرب أَن أَكبر عدو يمكن أَن يترصد أَي مقاتل على الأرض هو الغارات الجوية. وأننا محظوظون في هذا التنظيم لأننا نملك من الأدوات التي تظهر لنا في الوهلة الأولى بسيطة لكنها فعالة تجعل من المستحيل التام على أي طائرة من طائرات العالم الثالث رصدنا.

كانت الحصص التدريبية الأولى مخصصة لكيفية التصرف في حالة حدوث غارة مفاجئة، ونحن نتواجد في أَماكن مختلفة كان أَولها في القبو حيث تُطلق سفارات الإنذار والتي لا تُحدث أي ضجيج أو صوت كأنك تسمعها أَنت فقط تنبعث كطنين النحل في أذنيك، من أين تنبعث؟ الله أَعلم. كلنا سمعناها لكن من أين لا نعرف، إذا كان تواجدنا في الغرفة أَثناء سماع صفارات الإنذار تلك مباشرة يتحول حائط في الغرفة إِلى باب يُفضي إِلى دهليز مظلم، ويعود الحائط إِلى طبيعته عند مرور آخر واحد منا، بحيث يستحيل اكتشاف أَنَّه كان هنا باب. طُلب من بعضنا المكوث في الغرفة ليتمكنوا من رؤية عودة الباب إِلى حالته الطبيعة وطُلب منهم محاولة فتحه لكن دون جدوى.

الدهليز يفضي بعد حوالي خمسمائة متر من المشي في صف واحد بشكل منحن إلى قبو آخر كالذي نسكن فيه بنفس عدد الغرف مع تغيير بسيط حيث توجد في المقهى آليات عسكرية متطورة من سيارات صحراوية مدافع قنابل رشاشات. إِلى غير ذلك أخبرونا أن هذا القبو تم بناؤه بطريقة تجعله يصمد أَمام هجوم نووي فضلا عن الصواريخ التي لا تستطيع اختراقه.

أَما المطعم فهو مجهز بكل ما يضمن الحياة هنا لمدة سنة كاملة دون الحاجة إِلى مؤونة من الخارج، بالإضافة إِلى وسائل اتصال غاية في الدقة والتطور. أَمَّا في حالة حدوث غارة ونحن نتدرب فما علينا

ليلا وحتى في الصباح إلا أن نستلقي على بطوننا ووجوهنا لتكون نسبة رصدنا كمخلوقات بشرية صعبة للغاية لأن بدلتنا العسكرية مصنعة خصيصا للتمويه، حيث تظهر عند اتخاذنا هذا الوضع منسجما بل جزء من الرمال الصحراوية لا يمكن رصده إلا من قبل طائرات خاصة تمتلكها مجموعة قليلة من الدول الغربية فقط.

كان الأسبوع الأول من التداريب عن أفضل الطرق لتجنب الغارات الجوية ليضيف لنا المدرب قائلا: إذا استطاعت أي طائرة أن تنال منكم مع هذه التداريب وهذه الإمكانيات، فهي دون شك طائرة تابعة لإحدى الدول الغربية القليلة الممتلكة لهذا الصنف لأنها الوحيدة القادرة على رصد هذا النظام لأنها جزء منه بل هي من صنعه.

بعد الأُسبوع الأَول عادت التداريب إلى نسقها الذي ستستمر عليه دائما. في الساعات الأُولى نجري مسافة حوالي ثمانية كيلومترات لا نصطدم فيها أبدا بأي فريق آخر من المعسكر رغم يقيننا التام أَنهم موجودون يكفي أَننا رأينا الشباب الملتحي يغيب من أَمامنا. بعد حصة الجري وبعض الحركات الرياضية نتدرب على كيفية استعمال القنابل اليدوية وأَسمائها وفعاليتها، كل نوع على حدة، والأَسلحة الرشاشة التي لم يكن صوتها يتعدى المجال الذي نتدرب فيه، في هذه الفترة تم انتقاء المتميزين في كل شيء، ليتم نقلهم إلى أَماكن أُخرى لا نعرفها، أَظهر العديد من الشبان مهارات منقطعة النظير في التصويب إِذ كان بعضهم قادرا على إصابة أَهداف غاية في الدقة ومن مسافات مختلفة، وكذلك التفنن بطرق لا تخطر على بال في التعامل مع بعض الأَسلحة بالفطرة، أَحيانا يقف المدرب نفسه مشدوها أَمام اقتراحات أَحدهم.

كنت فاشلا في كل المجالات، لم أتمكن من تعلم أي شيء كنت فاشلا في التصويب حتى في التمارين الرياضية كنت الأخير، علق على ذلك مرة أحد المدربين التونسيين قائلا.

- مافهمتش شكون البهيم لي جابك لهنا أنت.

بعد شهر بالضبط من إقامتنا هناك طُلب منا يوم السبت أن نصطف في المقهى وأن ندخل إلى حجرات الكشف الطبي ليجد كل واحد منا فتاة في انتظاره حرص العربي أن أدخل أنا الأول إلى إحدى الحجرات مخالفا بذلك نظام الترتيب.

- اخترت ليك وحدة واعرة كتحمق ومازالة صغيرة قول العربي ماكيخممش فيّ.

دخلت على الفتاة وهي مُستلقية على السرير شبه عارية، كان وجهها شاحبا تُصارع خوفا رهيبا بداخلها، شفتاها لم يستطيع أحمر الشفاه أن يخفي لونهما البني من آثار شرب السجائر في السابعة والعشرين على - أبعد تقدير- من عمرها، نظيفة تنبعث منها رائحة صابون نفاذة وليس العطر، لم تتكلم أبدا، اقتربت منها أردت أن أسألها عن اسمها وعن جنسيتها لم تجبني، أشارت إلى مهبلها وقامت بنزع تبانها الأبيض في الحال. شعَرت الفتاة بترددي إذ لم يسبق لي أن رأيت فتاة عارية بشكل حقيقي أمامي غير دُنيا وفتيات السيد جوجل على الانترنيت. قامت بلمس عضوي وهي تنزع سروالي. كان كافيا رؤية التبان الأبيض وأن تلمس قضيبي بشفتيها لينتصب، ويحملني خيالي بعيدا لتغيب هي تماما كأنها غير موجودة، لتتجسد صورة دنيا أمامي كأنها موجودة كأنني أُلامسها هي كأنني سأُضاجعها هي.

تذكرت ذلك اليوم الذي فاجأتني فيه في غرفتي في طنجة سمعت دقا خفيفا على الباب فتحت لأجدها أمامي ترتدي جلبابها الأبيض

المزركش بخيوط خضراء وصفراء، أميرة هي عروسة بشعرها الطويل المشدود إلى الخلف على شكل ذيل حصان جبهتها البيضاء الناصعة البياض. لم تمهلني من الباب بينما أُغلقه بساقي، لم تكلمني، لم تُسلم علي انخرطنا في قبلة لارتشف من شفتيها الحمراوين بأحمر الشفاه أو من دونه، قُبلة دامت أكثر من نصف ساعة كانت كافية هي وحدها بأن تُعبر وتداوي كل الشوق والأحاسيس التي في الصدور، بنفس الصمت جرّدتني من سروالي ودفعتني بلطف فوق السرير وهي تتجرد من جلبابها لتظهر ملابسها الداخلية البيضاء والتي تحرص على ارتدائها لتزيد من إغرائي، بياضها يمتزج مع بياض جسمها الغض ليعطيها منظر حورية ملاك نزلت من السماء إلى الأرض حيث أُقيم أنا.

لم تكن حبيبتي يومها تمص قضيبي كان منظرها بشفتيها الحمراوين وبياض بشرة وجهها الغض وسواد عيناها التي تشكل مع سواد شعرها الطويل الحريري الذي يغطي بكل لطف بعضا من جسدي العاري صورة حورية ملاك.. لم تكن حبيبتي تمص قضيبي، كانت تعزف على الكمان تحول قضيبي بين شفتيها إلى كمان تعزف عليه ألحان الحياة والمتعة ببراعة، تتوقف بين الفينة والأُخرى تسترجع فيها أنفاسها وتلقي عليَّ نظرة. عيناها تلمعان بفعل السكر من اللذة والمتعة، نظرت إلي بكل حب تستطلع رأيي في عزفها قلت لها بصوت لست أدرى من أين انبعث من داخلي.

- أُحبك أجبببببك

تركت قضيبي لنلتحم في قبلة أُخرى لمدة أكثر من خمس دقائق بعدها تجردت من كل ملابسها ومكنتني من فرجها دون تحفظ أو خوف حيث أقوم بحك قضيبي عليه وأنا انتظر بفارغ الصبر أن

أَسمع الكلمة المعتادة التي تزيد من هيجاني تنقلني بجنون إلى عالم المتعة واللذة.

– عففففففاك دخلو عففففففففففاك عفاك دخلو كلو كلو كامل عافففففففاك

كان مجرد سماع هذه الكلمة كافيا لِيتدفق سائلي المنوي، ظل سماع هذه الكلمة بالذات هو ما يحول بيني وبين افتضاض بكارتها، أَقذف بسائلي على نهديها الذين تحولت حلمتيهما إِلى اللون الأَحمر ليمتزج مع بياضهما ويشكل منهما رمانة متوسطة الحجم في بداية نضوجها، فرج حبيبتي أَحمر كوردة في مزهرية ناصعة البياض، وردة بأَريجها ورائحتها التي تحرص على تعطيرها ببراعة وحرفية تجعله معطرا طوال الوقت لا يتأثر عطره أَبدا بكل الإِفرازات الأُخرى، حتى عندما أَسألها عن سر هذه الرائحة العطرة فيه كانت تجيبني:

– من ربي حبيبة طبيعي طبيعي هههههههه

حبيبتي وهي مُستلقية على ظهرها تُصبح متوهجة كمصباح بفعل اللذة والمتعة يختلط اللون الأَحمر مع الأَبيض ليشكلا مصباحا رائعا ينير لحظتي ينير حياتي ساقاها منفرجتان تظهران جمال وردتها المتفتحة بأَريجها وعطرها نهدان يمتزج فيهما اللون الأحمر مع البياض، لن أتكلم عن حمرة الوجنتين ولمعانهما هما وشفتاها، كان النظر إِليها هكذا وهي مستلقية كملاك كحور كافيا ليجعل منها حلمي، حياتي، وطني، حبي، كانت المتعة كل المتعة أن أنظر إِليها هكذا فقط، هذا الجسم الجميل بشعره الحريري الأَسود الطويل يحمل بداخله قلبا يُحبني أَنا فقط يهتف باسمي فقط. بعدها أَقوم بلحس مهبلها كما قالت هيَ حيث يتحول لساني إِلى قضيب مُنتصب ينقلها إِلى عالم اللذة والمتعة تُحسه داخل مهبلها كأَنه قضيب حقيقي

يعبث بجدران مهبلها بمهارة لا أَتركها إِلا وهي متقوقعة كالمحارة طالبة مني بصوت رخيم كله غنج أَن أَكف وأَنَّها ارتوت، ولكنني لا أكف دوما وقبل أَن أَتركها أَقوم بعض شفتي مهبلها عضا خفيفا لأَسمع ذلك الصياح الممزوج بالتأوه واللذة.

– آه قسحتيني حبيبة حرام عليك كنت عارفة غتعودها.

بعدها تعتليني كفرس جامحة بشعرها المتطاير يمينا ويسارا وحُمرة وجنتيها كم مرة توقفت لأَلتقط لها صورا وهي كذلك، لم تكن تمنعني أبدا تصفني بالمجنون، مرة سجلنا صوتا وصورة عمليتنا كاملة بكل تفاصيلها، احتفظت هي بنسخة واحتفظت أَنا بأُخرى، هواتفنا تحمل صورنا في كل مكان وبجميع الأَوضاع ونحن عاريان ونحن نُقبل بعضنا بعضا كأَنَّنا نُخلد بذلك هذا الحب نجعله حيا لا يموت، يومها مارسنا الجنس هكذا لثلاث مرات متتالية كل مرة كانت أَقوى من السابقة.

يقولون أَن الرجل يشبع من جسد حبيبته بحكم التكرار، أَنا لم أُجرب هذا الإِحساس لم أَشبع منها أبدا، أَنا في عطش دائم لحبها، وعندما أَسألُها نفس السؤال كانت تستغرب مني قول ذلك، كيف أَتصور أَنها ستشبع مني يوما إِنها لا ترى في الرجال إِلّا أَنا لا تتصور نفسها في حضن أَحدهم وبأَنها تفضل الموت على فعل ذلك.

– أَنت الوحيد الذي يملك مفاتيح قلبي وأنا لا أعطي جسدي لمن لا يملك مفاتيح قلبي.

أُصدقها من كل قلبي لأَنني مثلها، ليلتها بكت على صدري متهمة نفسها بالجبن وأَنَّها تستطيع أَن تعيش معي في غرفتي وستكون سعيدة بذلك وأَنها لم تحلم يوما بسيارة ولا قصر وأَنها فكرت مرارا وتكرارا في الهروب معي وأَن نعقد قراننا رغم رضى أَبيها، أُمها

قرأت ذلك في عينيها الوحيدة التي قرأت ذلك قالت لها:

– لا تفعليها بُنيتي أنا أُحس بك ستُورثينني الذل من أَبيك والجيران والعائلة لن يرحمني أحد سيقوم الجميع باضطهادي، بقتلي إن فعلتيها فأنت بذلك تقتلينني.

أَخبرتها أُمها بأنها تُحس بها وأَنها ورثت لعنتها بل ترى فيها نفسها، صارتا صديقتين تحكي لها ما لا تحكيه لأعز صويحباتها.

– أَخبرتها أَنَّك لا تريد فض بكارتي رغم طلبي منك ذلك، أَجابتني مؤكدة أنك تحبني بصدق وأَن هذا صنيع المحبين المخلصين، صارت تساعدني في لقائك عندما يغيب أَبي تطلب مني أَن أُسافر إِليك أَن أَستمتع بصحبتك أن أُقبلك أَن أَرتوي منك ربما لأنها تعرف مسبقا بأَن حبنا لن ينجح لن يستمر في هذا العالم الذي سن قوانين تُحرم الحب.

– اصنعي بنيتي جنة من الذكريات الجميلة ستجدينها وحدها في أَيامك الكالحة لتعطيك ابتسامة ستكونين في أمس الحاجة إِليها اذهبي وتمتعي بالحب فهو أجمل متعة على هذا الكون.

اليوم حبيبي سأَقضي معك يومين من الحب، في تلك الليلة نمنا عاريين متعانقين متدثرا بشعرها ونحن نستمع إلى معلقة عنترة بن شداد من اليوتيوب بصوت فالح القضاع، كان يعجبها اسم القضاع يثيرها يبكيها

–حط لنا شي حاجة بصوت القضاع.

كان صوته ولازال كم اشتاق إلى سماع قصيدة من إِلقائه الآن يجعلك تحس بطريقة إِلقائه وقراءته حلاوة الشعر العربي تستطعمه ينقل إِليك صوره يجعلك تسافر إِلى أَرض العرب لتقابل عنترة وعبلة وقيس والمتنبي.

استفقت من سرحاني والفتاة أَو بقايا فتاة تمنعني من لمس مهبلها، لحظتها عدت من سفري نظرت إليه كأنني أراه لأول مرة، لم يكن فرجا لم يكن مهبلا لم يكن وردة كان حفرة عبارة عن مصب للقمامة قمامتنا نحن الذكور لم تكن هي تتلذذ بممارستها الجنس كانت تُذبح كالشاة تُذبح آلاف المرات.

هؤلاء النسوة كل من يعترض طريقهن لا يرى فيهن غير أَنهن منبع اللذة، نساء كهؤلاء يحملن بين أَفخاذهن لعنة وليس فرجا يبعث على اللذة بل منبعا للعذاب، تخيلتها تقول لي بأنها تفكر أن تخيط فرجها أَن تترك مكان لخروج البول فقط، لأنها تعبت من الذبح لم يُنظر لها أَبدا كامرأة ككائن حي دائما يُنظر لها كفرج كعورة لا تمارس الجنس بإرادتها، الجنس يُمارس عليها فقط لا تشعر بلذته تشعر بعذابه.

اعتذرت منها ارتديت سروالي وخرجت محتقرا نفسي احتقرت قضيبي كان سكينا، لم يكن وقتها كالكمان عندما كانت تعتليه دنيا كان سكينا وقحا ملوثا غرسته في جسم فتاة بريئة، استغربت. كيف تتلذذ بعض الوحوش البشرية بممارسة الجنس عندما يغتصبون امرأة كيف يتسنى لهم التلذذ ومن تشاركهم العملية تصرخ في وجوههم مستغيثة، بل كيف يتلذذ إِنسان عادي بممارسة الجنس مع طرف لا يشاركه نفس الرغبة.

المرأة كائن مقدس كل الشرائع السماوية حرمت قتله حتى في الحروب، حُرم قتل المرأة لأن جسدها مقدس وعندما يُدنس هذا الجسد فاللعنة تلحق من ارتكب هذا الجرم، والمرأة التي لا تحترم جسدها وتقدسه وتجعله مشاعا بين الناس تنالها اللعنة أَيضا، هذا الجسد مقدس يجب ألا يُمس ولا يُعطى إِلَّا باسم شيء مقدس وسام مثله، الحب فقط المقترن بالرضا هو من يُعطي للمرأة الحق في أن

تهب نفسها وجسمها وباسمه فقط لمن تحبه و يحبها، يجب أن يكون القلب طاهرا في محراب الجسد المقدس، الحب يصنع من الجسدين الملتحمين فيه أجمل لوحة لأنه الوحيد الذي يجعلنا نتشارك اللذة والمتعة الحقيقية للجنس ونحن نعبر عن احتياجاتنا بأصوات نبرتها تخرج لحظتها من موضع مقدس، تراتيل ترانيم هيَ سمها ما شئت لكنها في تلك اللحظة فقط هي الوحيدة المقدسة لأنها تجسد بناء الحياة واستمراريتها تجسد خلقها.

في فترة التدريبات كان معسكرنا يستقبل كل خمسة عشر يوما تقريبا زيارات كانت لأجانب يكون برفقتهم أشخاص من جنسيات مختلفة استطعت مرة تَميز جنسية اثنين منهم رغم الظلام لأن اللباس كان واضحا، مرة كان معهم خليجي ومرة أخرى إيراني بجبته السوداء وعمامته، يكون غالبا الفريق الزائر متكونا من خمسة إلى ستة أفراد يُعاينون عن كثب تدريباتنا وأحيانا نتوقف كي يتم استعراضنا أمامهم، لكن أن يكون في إحدى هذه الزيارات طارق هذا مالم يخطر على البال، نعم طارق بشحمه ولحمه لا يمكنني أن أُخطئ صورته وهيئته كان أنيقا كيوم الفندق. رأيناه نحن الأربعة للحظة أردنا أن نصرخ هاتفين طارق كأننا وجدناه ورأيناه عند مدخل المدينة القديمة لصفاقس. تفطن المدرب لهمهمتنا طالبا منا السكوت بشكل حازم.

لحظتئذ اعتقدت أنه نظر إلينا مبتسما ابتسامة الشماتة أو شيء من هذا القبيل. كان طارق مع الوفد الزائر متبخترا في مشيته كالطاووس. لم يمض على غياب الوفد الذي يصاحبه طارق ساعة تقريبا حتى تمت المناداة على العربي ليصحبه أحد الجنود الذين كان منظره ولباسه مختلفا عن باقي الجنود الذين اعتدنا رؤيتهم في القبو والتداريب.

هنا كل شيء يظهر فجأة ويختفي فجأة لا تعرف من أين ظهر، تبدو الأرض منبسطة تتيح لك الرؤية على أبعد مسافة لكن ذلك لم يكن إلا خدعة بصرية تجعلك تعتقد فعلا أنك تسكن تحت الأَرض في مملكة من ممالك الجان عندما نخرج من القبو ويُغلق الباب من ورائنا يظهر المكان خاليا تماما موحشا لا يوجد فيه أحد تشك بأَنك خرجت للتو من مكان تحت الأرض فيه حياة وماء وكهرباء. إذا حدث وتهت أكثر من اللازم وفكرت في العودة إلى القبو كن متأكدا أنك لن تهتدي إليه أبدا.

عُدنا إلى الغرفة دون العربي. كانت الظنون تعصف بنا، الغريب والغريب الذي لا يمكن أن يكون منطقيا وأمام ما نحن فيه من بؤس نتيجة طريقة تفكيرنا التي تجعلني أَحيانا كثيرة أعتقد جازما أنّنا نستحق ما نحن فيه، صحيح أنّنا ضحايا لكل شيء لكنَّنا نبقى ضحية الجهل الذي يُشكل أكبر عدو لنا طريقة تفكيرنا مُشوهة عليلة مريضة، تفتقد إلى أَبسط مقومات التفكير السليم والمنطق. بعد رؤيتنا لطارق وعودتنا إلى الغرفة استبشر الطيبي خيرا برؤيته قائلا:

- طارق جا يقدر يدبر علينا ويخرجنا من هنا هو ماشي خايب راجل مزيان.

أردت أن أقتله أن أفعل شيئا أن أَصرخ شاتما سلالة أبيه كلَّها، أن أَلعن اليوم الذي التقيت فيه به، أن أَلعن أحلامي التافهة التي قادتني إلى هنا أن أَلعن اضطراري عجزي طموحي. أن أَلعن حبي لدنيا، حبي المتطرف الذي أَنساني دراستي، أَنساني مستقبلي، أَنساني نفسي، عشت فيه ومن أجله، كل طموحي وأهدافي في الحياة لم تتجاوز رغباتي الحيوانية فقذفتني الرياح إلى هنا، صرت ورقة خفيفة تتلاعب بها رياح الحياة كيف شاءت. غبي أنا من أُسرة غبية، وفي مجتمع غبي.

هذا هو المطلوب الغباء المنوم الذي يجعلك ترى الأشياء على عكس حقيقتها، ترى الطعم طوق نجاة، ترى السروال الممزق موضة وأناقة، ترى في انتصار الريال انتصارك، في حين لا تعدو كل هذه الأمور والاشياء بالنسبة إلينا أن تكون خسارة وخسارة فادحة أيضا.

عاد العربي صحبة الجندي الذي فضل انتظاره في الباحة، أخبرني وهو يتصنع مضغ شيء تخرج الكلمات من فمه مبعثرة بالكاد تُفهم، طالبا مني الاستماع فقط لأنه سيتم نقله إلى الخدمة في جناح الإدارة حيث رأى عالما آخر لا يمكن للعقل البشري أن يتصوره وأن هنا في هذه الصحراء وتحت هذه الأرض جنة حقيقية، سيتم نقله لأن طارق طلب ذلك، طالبا مني أن أهتم بنفسي وألا أُثير أية مشاكل، وأن طارقا قد سأل عني بكل غل وكراهية وربما سعى للإيقاع بي، وأن أنتبه جيدا وسيفعل كل ما بوسعه من أجلي.

كان العربي يُغالب دموعه بشكل واضح في حين كان ينظر إليه كل من الطيبي وزيدان وهما يستفسران عن طارق وهل قابله وماذا بشأنهما هل سيتم إخراجهما من هنا وهما يعتقدان أن العربي قد نجا بنفسه وخلصها في حين لم يهتم بما نحن فيه ونحن أصدقاؤه، تمت تبرئة طارق واعتباره رجلا طيبا، في حين تم تجريم العربي واتهامه باستئثار شفاعة طارق الطيب لنفسه بذُله وتملقه فقط.

بعد خروج العربي عُين رئيس غرفة جديد احتفظت بسريري بجانبه، واحتفظت بمهمتي غير الرسمية. مساعد رئيس الغرفة باعتبار الأول والثاني لا يجيدان الكتابة والقراءة يُجيدان الصفع والركل فقط وهذا ما كان مطلوبا في صفة رئيس الغرفة، كما احتفظ الرئيس الجديد بامتيازات العربي في الاستئثار بحصتي الأسبوعية من الدخان والمشروبات الكحولية لنفسه، واحتفظت أنا بكل امتيازاتي

السابقة مع العربي لا يجرؤ أحد على الاقتراب مني أو مضايقتي كما أتمتع كما في السابق بجميع الاستثناءات. تُغسل ملابسي مع ملابس رئيس الغرفة لا أشارك الآخرين تنظيف القبو والباحة..

بعد مغادرة العربي مَهْجعنا بشهر تقريبا، بدأ موسم قطف الثمار في المعسكر، حيث يتم كل شهر مناداة ثلاثة من غرفتنا لا نراهم بعد ذلك أبدا، إلى أين يذهبون؟ لا أحد يعرف، في حين يتم تعويضهم بسرعة، ذهبت بعض ظنوننا الإيجابية أو هكذا تَم توجيهُهَا عن قصد، بأنه يتم إطلاق سراحهم وينتقلون إلى مكان فيه من الحرية أكثر مِمَّا هو موجود هنا حيث يستطيعون التواصل مع ذويهم وربما التمتع بإجازة تُصرف فيها كل المستحقات المتفق عليها وتذاكر الطائرة ذهابا وإيابا لرؤية الأهل والأحباب.

كانت الرغبة في التواصل مع ذَوينا أكثر ما يُؤرق سكان المعسكر لأَن كل واحد منهم يحمل داخله قصة تدمي القلوب. في الأخير كما جرت العادة أن نعرف دائما. اكتشفنا أنهم فعلا ينتقلون إلى مكان فسيح بل أَفسح من الكرة الأرضية نفسها حيث يستطيعون التواصل هناك مع ذويهم ممن سبقوهم إلى عالمهم الفسيح الذي لا يؤمن بالحدود. سيسعى العربي بكل ما أُوتي من قوة وببسالة الفُرسان أَن يُجنبنا نحن الثلاثة هذا المصير لتظهر لنا التفاصيل التي ظلت غائبة عنا بعد أَعوام من ذلك.

لم يبق من الذين لم تتم مناداتهم من الفوج الأول للغرفة رقم واحد إلا نفر قليل من بينهم أنا والطيبي وزيدان، كان الطيبي مُستعجلا ويعتبر عدم مناداته نحسا يُلازمه معتقدا شأننا كلنا أن المناداة هي الخلاص للذين اظهروا براعة والتزاما كبيرين في التداريب، كُنا كالخراف التي تُوجد في الحضيرة المُعدة للذبح وهي لا تدري ذلك بل هي سعيدة بوجودها في مكان يُقدم لها فيه الأكل

والشراب دون تعب، لا تكتفي بذلك يمكن أَن تتناطح فيما بينها وهي لا تدرك أَنَّه لم يبق من عمرها إِلَّا القليل.

الأَشخاص الذين كانت تتم مناداتهم كانوا يتصرفون داخل الغرفة بسعادة تفوق الوصف، سعادة من سيُطلق سراحه ويُكافىء، كانت الفرحة بمناداتهم تجعلهم يتباهون بها ويتهمون من لم تتم مناداتهم بأَنهم كُسالى منحوسون، يتباهون بأَنهم أخيرا سيرون شمس الحرية، لست أدري من أَين استُمد هذا الاعتقاد؟ الذي أَصبح راسخا في مخيلة كل منا كحقيقة ثابتة.

ونحن في المطعم نتناول وجبة العشاء تمت مناداتنا نحن الثلاثة طالبين منَّا أَن نعود إلى الغرفة لحمل متاعنا والعودة إِلى المطبخ، استبشر الطيبي خيرا، كاد أَن يطير من الفرح. وتمنى لو أُتيحت له فرصة البقاء في الغرفة قليلا مع الآخرين ليتباهى بخلاصه، رغم أَنَّ الطريقة التي تمت مناداتنا بها مختلفة تماما عن الطريقة التي تتم بها مناداة الآخرين. حيث يدخل جندي لا نعرفه بعد العشاء إلى غرفتنا وهو يبتسم، يحمل في يديه ورقة قبل أن يقرأها يقول:

– أَين هم المحظوظون الثلاثة لهذا الشهر؟

انتظرنا في المطعم ونحن نحمل أمتعتنا إِلى أَن تم خروج الجميع، ليتم إِعلامنا بأَننا من ذاك اليوم فصاعدا أَصبحنا من عملة المطبخ وأَننا سنستلم عملنا ابتداء من الغد حيث سيكون في الأَشهر الأُولى منحصرا داخل المطبخ ولا يسمح لنا بولوج المطعم إلّا بإذن رسمي.

كاد الطيبي أَن ينهار اتهم العربي هذه المرة صراحة والذي لم نره منذ سنتين ونصف تقريبا بأَنه وراء كل المصائب التي تحدث له وبأنه كان من الممكن أن تتم مناداته لولا سعي الأخير إِلى تعطيل هذا المشروع العظيم.

في قبو المطبخ حيث فُتح لنا الباب المؤدي إِليه والذي لا يفتح أَبدا أَثناء تواجد المجندين في المطعم. كان هناك فتيات أَول مرة نرى فيها نساء بهذا الشكل منذ زمن طويل بملابسهن العادية وهن يقمن بأَعمال كالتي اعتدنا أن نراهُنّ يقمن بها في منازلنا، لم تكن أَية واحدة منهن ذات جمال، كلهن متوسطات الجمال، مقبولا إِن لم نقل أَقل من المتوسط. كن عشرة نساء لم تتجاوز أَكبرهن الأَربعين من عمرها، وخمسة شباب من جنسيات مختلفة واحد من باكستان وثلاثة تونسيين والآخر جزائري كنا نشاهدهم أحيانا أَثناء تقديم الوجبات اليومية للطعام والتدريبات، تعيش الفتيات في غرفة صغيرة والشباب في الغرفة المقابلة. الغرفتان تتشابهان بشكل كامل في تصميمهما مع الغرفة التي كنا نقطنها.

الشيء المميز الذي أتاحه لنا العمل في المطبخ. الأَكل الجيد، ممارسة الجنس مع من ترضى من العاملات، كن يتوفرن على حبوب موانع الحمل وعلب العازل الطبي، التي تُقدم لهن بشكل دوري مع لوازم النظافة، وكذلك أتاح لنا العمل هناك رؤية مناظر وأشياء لم تكن متاحة من قبل إِذ يتوفر المطبخ على باب كبير من الخلف يُفتح كل أُسبوع أَو عشرة أيام ليستقبل شاحنة المؤن والتي على ضوئها يُحدد برنامج الأَكل لأسبوع أَو عشرة أيام حسب نوعية المُؤن التي تم جلبها.

يتلقى رئيس المطبخ برنامج الأَكل مكتوبا في ورقة مع المؤن إضافة إِلى الخبز والفطائر التي يتم تجميدها فورا، ليتم سحب العدد المطلوب منها كل يوم وتسخينه قبل أن يُقدم للمجندين. تتم بين الفينة والأُخرى دوريات مراقبة من أَشخاص لا نعرفهم نكتشف فيهم ربما تخمينا ليس إِلَّا طبيبا واحدا مكلفا بمراقبة النظافة. هذا الباب تستطيع من خلاله وأَنت تُرصف شحنة المؤونة وتقوم بإِفراغ

الشاحنة التي تأتي دوما ليلا أن تشاهد بعض تحركات القبو الآخر تحركات ليس إلا.

أما في اللحظة التي يفتح فيها الباب والتي تستمر دقيقة على أبعد تقدير بين دخول الشاحنة وخروجها تستطيع أن ترى بوضوح تام الربوة أو المعسكر الآخر الذي لم يكن إِلَّا مركز الأَمير والإدارة التي تُسَير كل هذه المعسكرات. داخل المطبخ هناك طاولة نتناول عليها الطعام مجتمعين نساءً ورجالا.

أتاح لنا العمل في المطبخ والمطعم بعد ذلك معرفة مجموعة من الحقائق. لم يُسمح لنا بدخول المطعم ليس لأَنه مطلوب منا أَن نتدرب أولا، فالأَعمال التي نقوم بها لا تحتاج أَي تدريب، في البداية كنا نقوم نحن الثلاثة ويشاركنا اثنان من عمال المطبخ بالتناوب بترصيف المؤَن وغسل الأَواني وتقشير الخضر واللحم وتنظيفها، حيث يبدأ عملنا على الساعة الرابعة صباحا دائما ساعة ونصفا قبل انتهاء المجندين من تداريبهم حيث يعرجون على المطعم مباشرة بعد الاستحمام الإِجباري.

يستمر العمل في المطبخ والمطعم ساعتين يتم خلالها إفطار حوالي مائة وخمسين فردا بين مجندين وجنود يسهر على هذا العمل نصف الفريق بينما يقوم الفريق الآخر بإعداد وجبة الغذاء والعشاء ليلتحق بهم نصف فريق المطعم بعد تناول كل المقيمين في الغرف وجباتهم.

يقوم النصف المتبقي بغسل الأَطباق وتنظيف المطعم والمقهى بالتناوب ننتهي من عملنا حوالي الساعة الثامنة صباحا، يكون فيها كل العمل منجزا بنسبة تسعين في المائة، بعد الواحدة بعد الزوال يستيقظ فيها نصف الفريق بالتناوب ليقوم بتحضير أَطباق وجبة

الغداء ويسهر على تقديم الوجبة لكل النزلاء بعد تنظيف الأَطباق والمكان يكون بذلك قد أكمل عمله وله الحق في الخلود إلى الراحة، بينما يكون الفريق الأول في راحة يقوم الفريق الآخر بتحضير أَطباق العشاء وتقديم الوجبة.

لم يكن مسموحا للفتيات ولوج المطعم بتاتا كما تم إِعفاؤُهن من التدرايب الرياضية التي نكون نحن الذكور ملزمين بها كل يوم في الأُسبوع تقسم بالتناوب حيث يشترك في كل حصة تدريب رياضية ثلاثة منا فقط يعودون بعد انتهائها ولا يشتركون في التداريب القتالية.

رئيس المطبخ تونسي الجنسية حيث كان يعمل قبل استدراجه للمعسكر في أَحد النزل في تونس، شاب لطيف، مُستقيم والأَكثر من ذلك عادل، لا يرضى بالظلم أبدا، مما جعل العمل الشاق في المطبخ بكل ما تحمل الكلمة من معنى مُحتملا. ورغم ذلك فقد كُنَّا نتحسر ونشتاق في أَحيان كثيرة لوضعنا السابق في غرفة التداريب.

تعمق لدينا إحساس كبير أنه تمت إِهانتنا باعتبار الآخرين لا يقومون بشيء إِلَّا التداريب والنوم ولعب الورق ومضاجعة النساء وفي الأَخير تتم مناداتهم ليتحرروا. العربي يتحمل المسؤولية فيما نحن فيه بنسبة مطلقة عند الطيبي بينما بنسبة أَقل حسب زيدان.

كان عندي أنا المتضرر الأكبر من وجودي في المطبخ مقارنة مع ماكنت أَتمتع به من امتيازات في الغرفة السابقة شبه يقين أَن العربي وراء تواجدنا هنا كان ذلك واضحا لكنني كنت متأكدا أَن القصد منه ليس الإهانة ولا يمكن أَن يكون كذلك أَبدا.

التزمت بكل تعليمات العربي منذ دخولي إلى هذا النفق بكل دقة، لا أُناقش أحدا أصبحت على غير طبيعتي، كثيرا ما أُفضل الصمت

حتى اعتقد زملائي في المطبخ كما اعتقد الآخرون سابقا أن بي مس من الجنون، إذ تنتابني في أحيان كثيرة نوبات من الضحك الهستيري وأحيانا أُخرى نوبات من البكاء، فضلا على الابتسامات البلهاء التي أُوزعها دون سبب، خلقت عالمي الخاص أَصبحت أَعيش داخله استحضر ذكرياته المُفرحة فتنتابني حالة من الضحك كأَنّني أُعيد عيشها من جديد وأَكثر من مرة ربما ضحكت من موقف طريف حدث سابقا ضحكا لم أضحكه وقتها، أُعيد تحليله فأَجد أَنّه كان من الظرافة ما يجعله يستحق من الضحك أكثر مما فعلت وقتها، فأُقرر أَن أُعطيه حقه كاملا وأنا أَتخيل الأَشخاص الذين شاركوني تلك المواقف واستحضرهم كأنهم معي.

أَحيانا أُخرى أَتذكر ما أَنا فيه وأتذكر رفض أَب دُنيا لي، وكيف أَهانني واستهزأ بعملي ودخلي، وكيف صارت دنيا بعد ذلك هدفا سهلا لسخريتهم وتهكمهم. إِنّها ارتضت أَن ترتبط برجل لا يملك من متاع الدنيا شيئا، أَتذكر أُمي وهي تسعى لتبحث لي عن عروس معتقدة أَنني مسحور يجب أن يُفك سحري، كيف وأنا الوسيم حديث كلِ فتيات قريتنا، لا أحبِ الأعراس ولا أُحب حضورها لا أَرقص لا أُغازل بنات الخال والأَعمام والجيران.

- ولدك آخالتي.. مانعرف مالو معقد هكا.

هذا هو التعليق الذي تحرص أُمي دوما على أَن تنقله لي على لسان من تقابلهن من الفتيات، وهي تحرضني على الخروج من قوقعتي والتمتع بشبابي.

منزو في غرفتي كالنفساء، نعم كانت تشبهني أُمي بالنفساء، وأنا احتضن كتبي في ركن غرفتي، حدث مرة أنني لم أَخرج من المنزل لأسبوع كامل لم أَر أَحدا، أَكتفي بالحديث مع دنيا عبر الهاتف

وأُطالع. اعتقدت أمي وقتها أَنّني جُننت فعلا، قامت بتبخير الغرفة وقراءة المعوذتين، نصحتها إحدى جارتها بتشغيل سورة البقرة في الغرفة لمدة أَربعين يوما هي الوحيدة الكفيلة بطرد الجنية التي تسكُنني وتجعل كل النساء في عيني قبيحات كمنظر الضفدع حسب تحليل الجارة وتفسيرها.

وجدت في عالمي فرصة لأُطبق حكمة العربي كلما حافظت على فمك مغلقا استطعت أَن تعيش أَكثر، هذا هو المطلوب حاليا حسب تعبير العربي ونصائحه. كنت أَستمع إِلى قصص زملائنا في المطبخ والتي لن تكون إِلّا مأساوية واستغرب نظرة الاندهاش عند البعض عندما يستمع لإحدى هذه القصص وهو يستغرب أو يتصنع الاستغراب في حين أَن قصته هو التي كان يسردها قبل قصة الآخر ربما حملت من المآسي أَكثر مما سمعناها في القصة الموالية. تعلمت الصمت والاستماع بينما انغمس الطيبي في علاقة حب جارفة مع فتاة من المطبخ المُدهش أَنهما كانا يعتقدان أنهما في إعارة عمل إِلى الخليج أَو الغرب.

- نعتبر راسي مهاجر عام ولا عامين ونرجع في الأخير باش نرجع وباش يخلصونا شفت الولاد كيخرجوهم دابة يجي وقتنا ونخرجو يمكن فيها خير نجمعوا شوية فلوس.

لم يتخلص الطيبي من الصورة التي رسمها لنفسه عندما حاول أَن يُهاجر إِلى إيطاليا يتزوج فتاة في إيطاليا يستطيع من خلالها أَن يحصل على الإقامة أو «الأوراق» حسب المفهوم المتداول أَعتقد أَنه اختلط عليه الأَمر كما اختلط عليَّ وأَنا أقوم بغرس سكيني في بقايا الفتاة في المهجع باحثا عن اللّذة بل باحثا عن دنيا.

أَصبح الطيبي يرى في فتاته في المطبخ إقامة ووطنا لا أُنكر أَنها

استطاعت أن تُخفف عنه الكثير أصبح أَقل توترا، راضيا بما هو عليه كما كفَّ تماما عن شتم العربي واعتباره سبب بليته. تطور به المرض إلى مرحلة ربما أقوى، حيث أَصبح هو والفتاة يعيشان على أَساس أَنهما يتمتعان بأَجر عال يقومان بِعَد النقود الموجودة حاليا في البنك بأَسمائهما والتي تنتظر خروجهما لِيجدا النعيم والمال والحب، يتخيلان نوع المنزل الذي سيشتريانه.

تشاجرا مرة لأَن الفتاة كانت تحلم باقتناء شقة في بلدها لتُمضي فيها عطل الصيف وتنعم بالقرب من عائلتها، رفض الطيبي هذا الحلم بشدة مُتمسكا بموقفه أنّ على المرأة أن تطيع زوجها وأَن تعيش حيث يعيش هو، استمر الخصام ثلاثة أَيام ونحن نقوم بتقريب وجهات النظر وتلطيف الأَجواء.

أَقْنعنَا الطيبي بأن يسمح لها بزيارة أَهلها مرة كل سنتين على الأقل امتثالا للشرع والشريعة، طالبين منها هي أَن تنسى أَمر الشقة حاليا، وأَن على المرأة الصالحة أَن تختار الوقت المناسب لتتناول فيها بعض المواضيع أَو بعض الطلبات التي لا يحب معظم الأَزواج تلبيتها ومن المستحسن أَن تكون هذه الأَوقات في الليل وهو يقوم بغرس عضوه في مهبلها باعتبار هذا الحل مُجرب عند أَغلبية النساء وذا مفعول سحري على الرجل.

وجدنهما في اليوم الرابع في ثلاجة اللحوم يمارسان الجنس بعنف جعلت أَصواتهما تصل إِلى مسمع كل مَنْ في الغرفة. في حين لم يكن زيدان على علاقة حب مع صديقته أكثر منها علاقة جنسية محضة كان مسموحا بممارسة الجنس مع العاملات خارج أوقات العمل وفي الاستراحات، لم تعد أَسماؤنا مدرجة في قائمة الذين يتمتعون بالجنس الدوري مع الفتيات اللواتي يتم جلبهن.

استمرت الحياة على هذا النسق سَنتين لم نسمع خلالهما أي خبر على العربي ولم نره، حتى اعتقدنا أَنَّه ربما لم يَعُد موجودا في المعسكر. علق الطيبي على ذلك:

– هذاك يكون دبر على راسوا وخرج من هنا ولا مشى مع سي طارق تلقاه دابة معاه في الوطيل في تونس ناشط و احد شلاهبي منافق.

حتى بعد كل ما حصل لا يذكر الطيبي اسم طارق إِلَّا مقترنا «بسي» مِمَّا يستدعي أَن نُراجع التلاقيح التي تلقيناها ونحنِ صغار ربما تكون للجبن والخنوع والجهل أكثر منها للحماية من الأَمراض الفتاكة.

كانت مفاجأة أكثر من سارة كدت أطير من الفرح بوجود العربي في شاحنة التموين، في غرفة اللحوم أكد لي أنه لايزال قبو لسعد الثاني يستقبل المجندين وأَنه أَحيانا يذهب إِلى هناك ليجلب البعض منهم وأَن هناك قبو آخر للنساء وإن كان عددهن أَقل بكثير من الرجال حيث يتم تجنيدهن بنفس الطرق التي يتم تجنيد الرجال بها.

أكد لي العربي: بأننا في شبه قاعدة عسكرية مُجهزة بكل ما يلزم لدك أَي دولة من دول إفريقيا إن لزم الأمر، فيها ما لا يخطر على بال من التجهيزات ومن الرجال ومن وسائل الاتصال مُنبها إياي أَن لا أُحاول الهروب حتى وإن بدت الفرصة واضحة ومتاحة أمامي بشكل جيد، مؤكدا ومركزا على هذه النقطة بالذات ويؤكد أيضا أَنها كانت السبب الحقيقي وراء مجيئه اليوم إِلى هنا. وأَن لا أُخبر أَحدا بطبيعة الحال بما دار بيننا من حديث. أَخبرني: بأَنَّه السبب في وجودنا هنا وأَن ذلك كلفه كثيرا من التملق والذل الذي وصل إِلى حد أنه

كان مستعدا للحس مؤخرة أَجنبية لِذَكَر شاذ بل قد قام بغزوها فعلا. وأَننا هنا في أَمان تام الآن.

لم تستمر زيارة العربي كثيرا إذ كان مجبرا على العودة مع الشاحنة تلقيت منه وعدا أَنَّه سيعاود زيارتنا لأَن موقعه كما قال أَصبح هناك أَفضل. سألته عن الشرايبي، هل مازال في قبو لسعد؟ وإن كان سمع بعض أخباره أَجابني بأنني لا أَعرف أين أَنا بالضبط ولو كنت أَعرف ذلك ما سألته هذا السؤال.

بعد زيارة العربي بشهر والتي لم تتكرر كما كنت آمل إذ سجلت إحدى الكاميرات وقوفه معي أكثر من اللازم ليتم التحقيق معه لأكثر من أسبوع كما سأعرف من بعد ذلك بكثير. بعد زيارة العربي سُمح لنا نحن الثلاثة بالعمل في المطبخ وولوج المقهى حيث يُمكن أن نتشارك مع الآخرين مشاهدة مباريات كرة القدم والمنافسات الرياضية الأخرى. لم نتعرف على أَي أحد من الغرف القديمة، كانت كل الوجوه جديدة تماما ومُتحمسة كما كنا نحن أَول الأَمر، مُنخدعة بالأكل الجيد والمكان النظيف والخطب الكاذبة.

لم أر كذبا مُحكما أَقوى من هذا أبدا، أَبدا كالعادة لم يُسمح لنا بمخالطة أي مجموعة كان علينا أَن نتحرك وفق المجال المحدد لنا، بعدها بكثير عرفنا لماذا تتبدل الوجوه كل عام تقريبا؟ إلا وجوهنا ووجوه الجنود هي الباقية تشبه في ذلك بقاء الجدران تقوم بعملها بصمت رهيب ولا تتكلم.

بعد أَكثر من خمسة أَعوام في المعسكر عامين في القبو والباقي كله في المطبخ خمس سنوات تداول على ذلك القبو بغرفه الثلاث ما يَفوق ألفي مُجند هذا العدد يؤكد عدد العمليات التي نُفذت في العالم وجُند لها هذا العدد من هذا القبو فقط، حيث حاولت أن أُخمن

عند قيامي بالتداريب عدد الربوات الرملية المتواجدة في هذه الواحة الصحراوية، مستنتجا أَن تحت كل ربوة هناك قبو يوجد فيه مجندون.

في بداية العام الخامس لم تعد تتبدل وجوه المجندين في المطعم، بحيث لم يتم تعويض الذين غادروا مجددا أبدا، لينخفض عدد الموجودين حسب أَطباق الطعام التي كنا نحضرها من مائة وخمسين طبقا باعتبار الجنود إلى ثمانين طبقا باعتبارهم أَيضا. وكذلك تراخي القبضة التنظيمية حيث أَصبح يتغاضى الطرف القيادي عن تواصل المجموعات فيما بينها. غياب تام للتداريب العسكرية.

بينما احتفظنا بالفسح الليلية حيث يُسمح لنا بالخروج لتنفس الهواء ثلاث ساعات في كل الفصول ماعدا فصل الشتاء حيث تكون الفسحة حسب رغبة المجند وغالبا ما يفضل الكل قضاءها في المقهى في لعب الورق «الرامي» ومشاهدة الأَفلام والمقابلات الرياضية أَنصار الريال وبرشلونة لا ينفذون أَبدا، كل هذا كان مقبولا بالنسبة إلى المجندين لكن أَن يتم حرمانهم من الزيارات الدورية للفتيات فهذا كان فوق التحمل، إذ كان يكفي أَن تخاطب أَحدهم في موضوع حتى يجيبك على موضوع آخر، لاكتشف دور هؤلاء النسوة في الحفاظ على استمرارية الطاقة والرغبة في المعسكر، كانت زيارتهن الشهرية للقبو عيدا بأتم معنى الكلمة، الكل مستبشر علامات الفرحة على الوجوه الترقب ومحاولة رشوة رئيس الغرفة ليمكن أَحدهم من مضاجعة الفتاة الأَجمل وأَن يكون هو أول من يعتليها.. الآن يمكن أَن تسأل أَحدهم هذا السؤال مثلا:

- زعمة قريب نخرجوا من هنا؟

يجيبه الآخر على شكل سؤال كأن مسألة الخروج من المعسكر السجن لا تشغل باله بتاتا.

– زعمة وقتاش باش يجيبو لينا البنات الواحد باش يترشق الزح.

في الأخير فُقد الأَمل في عودة بنات حواء، لينتشر اللواط بشكل سريع كأنه وباء خطير لم تعد في الليل حسب شهادة الجنود تسمع إلا التأوهات الذكورية فيما بينها، في حين تلقى الجنود أوامر بعدم التدخل وترك الأمر على ما هو عليه بل انخرط عدد كبير منهم مع المجموعة، حسب ما نقل لي أحد الجنود يوم الغارة. لم يسجل في ذلك العام هذا فقط.

شهد المعسكر تدهورا في كل المجالات. المؤن أَصبحت شحيحة وذات جودة رديئة مما أثر على جودة الطعام وكثرته. نحن في المطبخ كنا في مأمن من كل هذا باعتبارنا نحن من يتحكم في الطعام، حتى دوريات المراقبة اختف كأنها لم تكن موجودة. الجنس، الفتيات يسكن معنا كان يكفي أَن تعبر عن رغبتك حتى تتجاوب معك الأُخرى دون قيد أَو شرط، إلا حبيبة الطبيبي أَو زوجته التي ارتدت في هذه الفترة حجابا وأَصبحت متحجبة، لم تعد تتناول معنا الطعام حيث أَعلنا هي والطبيبي زواجهما واحتفلنا بذلك بمأدبة فاخرة بينما كان الآخرون يعانون من الخصاصة والجوع. العربي أَصبح يزورنا كثيرا كان جد مترقب وقلق ويطلب مني أَلَّا أَهرب مهما حصل إذا جدّ جديد وهو ليس موجودا في المعسكر باعتباره أَصبح المرافق الرسمي لشاحنة المؤن الشحيحة.

الفصل 12

المجزرة والملاك

«كيف يمكن أن تشنّ حربا على الإرهاب
فيما الحرب بحد ذاتها إرهاب»
هوراد زين

يوم 20يونيو من سنة ..20 طُلب منا جميعا رجالا ونساء الخروج إلى فسحة مُطولة على غير العادة حيث ستبدأ من الساعة السادسة مساء مما يعني أَن أَوان الغروب لم يحن بعد، الكل استبشر بهذه الفسحة الجميلة ليرى منظر الأَرض عن كثب في النهار حيث مر على آخر رؤية لها على شكلها الحقيقي بشكل واضح أَكثر من خمس سنوات.

آخر لحظة قبل الخروج، أهو القدر الذي سطر لي وبعض ممن نجوا ليلتها عمرا جديدا، لست أَدري وأَنا أَهُم بالخروج سمعت أَنينا قويا في غرفة الفتيات، أَعلمت رئيس الغرفة التونسي بذلك، أَخبرني بأنه على علم مسبق بذلك وأَن إحدى الفتيات طريحة الفراش منذ ثلاثة أَيام.

- نخرجو الكل ونخليوها ما يجيش.

تزامن ذلك مع توجع الفتاة بشكل غريب وصل إلى درجة الصياح طالبة النجدة وحضور الطبيب، وجنتاها احمرتا من الحرارة. طلب مني الشيف الخروج وسيقوم هو بالاعتناء بها ريثما تهدأ ويلتحق بنا.

طلب مني ذلك لتحمسي الشديد لرؤية الرمال والشمس في غروبها، ترددت في الخروج كان حماسه للفسحة ورؤية الشمس يضاهي حماسي لكن الواجب الذي يمليه الضمير فقط هو من أجبره على التضحية بجولته التي ربما لن تتكرر، قررت أن أخرج عاقدا العزم على العودة قبل الغروب حتى أُتيح الفرصة للشيف أن يشاهد هو أيضا الشمس في حين كان هو قد حسم أمره في البقاء بجانب الفتاة المريضة.

وصلت إلى الباب وأنا أَهُم بالخروج. كأَن هاتفا في داخلي يصيح هاتفا أَلَّا أَخرج يشبه كثيرا ذلك الهاتف الذي ناداني يوم العقد في تونس أَلَّا أُوقع ولم استمع إِليه. يومها قلت: سأَستمع إِليه وعدت، استغرب الشيف بقائي إِذ لم تكن تربطني بالفتاة أَي علاقة بتاتا بل كنت أُعتبر أنا والشيف حالة شاذة في المطبخ حتى صار الكل يتندّر بنا مستهزئا كوننا لا نملك أَعضاء تناسلية وإن كانت موجودة فهي عاجزة على الانتصاب، لم نكن نمارس الجنس إلا لِماما مع فتيات المطبخ رغم أَن الجنس كان المتعة الوحيدة لمتساكني المطبخ. مارست الفتيات الجنس مع كل شباب المطبخ دوننا استثناء. لدرجة أنهم لم يَعُدن يخجلن من ذلك، بل يقمن بإِجراء المقارنة بين الذكور أَيُّهم كان أَداؤه أقوى، بينما يتحدث الذكور أَي الإِناث كانت أفضل.

كانت الفتاة تغلي من الحمى الناتجة عن التهاب حاد في اللوزتين.

قمت مع الشيف بتقديم ما نستطيع تقديمه رغم إِعلامه لرئيس القبو بمرضها منذ يومين حيث كان يأمل أَن يزورها طبيب لكن دون جدوى. وهذا ما جعل بعض الشك يتسرب إِلى قلب الشيف التونسي. هذا الشك الذي سيتأكد في أَبشع صوره التي لم تخطر لأَحد منا على البال.

تمام الساعة السابعة والنصف عاد أحد التونسيين الآخرين لأنه لم يتحمل وهج الشمس الحار في الخارج ولم يتحمل ضوئها. حيث أصيب بدوار رهيب ما إن تمعن في الشمس وتبعته فتاته، وهي تظن أَنه يريد اغتنام فرصة فراغ الغرفة ليضاجعها لم تتحرج من قول ذلك أَمامنا، بعد ذلك انشغلنا كلنا الأَربعة بمساعدة الفتاة المريضة بوضع ضمادات مائية على رأسها والرفع من معنوياتها.

طُلِب مني البحث في غرفة المؤن عن بعض الليمون لنصنع لها به عصيرا، أَو بعض الخل، هناك استرعى انتباهي الباب المفتوح والذي يُفتح دائما بشكل «أُتوماتكي» فقط لدخول شاحنة المؤن استبشرت خيرا لاعتقادي أَن شاحنة المؤن على وشك الدخول حيث ستكون محملة بكل شيء بما في ذلك بعض الدواء.

قررت أَن انتظر دخولها وأُفاجئ العربي، اختبأت في ركن من أَركان الغرفة المظلمة وبدأت انتظر، استرعى انتباهي حركة غير عادية في القبو المجاور أَحيانا أُشاهد أَشخاصا عسكريين يخرجون بزيهم الكامل ويعودون. بعد لحظة قَدِمت سيارة رباعية الدفع من نوع «جيب» خرج من القبو المقابل أربعة أَشخاص بأزيائهم العسكرية، ركبوا السيارة وانطلقوا بسرعة فائقة بدأَت اشتم رائحة غريبة تذكرت قول العربي أَلَّا أَهرب مهما حدث ومهما بدت الفرصة سانحة.

الآن تبدو الفرصة أكثر من سانحة لم يشهد المعسكر منذ خمس سنوات خلت هذا التسيب. لم أجد الليمون ولا الخل في الثلاجة عدت إلى الشيف. لم أخبره بشيء. تعلمت ألَّا أتكلم ألَّا أنقل ما أرى كنت أُطبق تعليمات العربي بكل حذافيرها.

مع الساعة الثامنة بالضبط سمعنا قصفا قويا ارتعدت له فرائصنا وشهبا كأنَّها البرق. لم تُفتح أبواب النجاة التي تدربنا عليها سابقا، استلقينا أرضا كل واحد منا اختبئ في ركن من أركان الغرفة. كان الشيف التونسي يصيح طالبا منا ذلك.

– تفرقوا باش مانموتوش جميع تفرقوا كل واحد وزهرو.

لم يتوقف القصف كُنَّا نعتقد أنَّه فوق رؤوسنا وأنَّ انهيار القبو مسألة وقت فقط لكن القصف لم يستهدفه كانت بنايات المعسكر كلها أغلى من الأرواح التي قُصفت دون رحمة.

بلغ منا الرعب مبلغه، تذكرت الطيبي وزيدان، تذكرت العربي تذكرت أُمي، أَبي، إِخوتي، دُنيا. بدا شريط حياتي أَمامي قصيرا جدا والأكثر من ذلك بدا تافها إلى أَبعد الحدود، بكيت في صمت طوال القصف وأَنا أَستمع لنواح الفتيات والشيف يطلب منهن السكوت والصمت والتضرع إِلى الله.

نصف ساعة كاملة من القصف وأنا لاأزال قابعا في ركني في غرفة المؤن التي تتيح لي بشكل واضح رؤية ما يحدث خارجا في القبو المقابل. هدأ القصف أَخيرا، توقف كأَنه لم يكن لم أَبرح مكاني بعدها بنصف ساعة عادت نفس السيارة تحمل نفس الأَشخاص ليدخلوا القبو بلباسهم العسكري الأزرق الجميل.

منظرهم وأَناقة لباسهم ظلت كابوسا مرعبا يغزو أَحلامي لسنوات عديدة بعد ذلك، صرت أَخاف من كل من يرتدي زيا يشبه

أزياءهم كانت رؤيتهم فقط كفيلة لتتسارع ضربات قلبي ويتصبب العرق من جبيني. من كانوا؟ لا أعرف كل ما عرفته وقتها كشاهد احتفظ بشهادته لنفسه لم أَتشاركها مع أَحد ولم أَتطرق إِليها أبدا في كل التحقيقات التي خضع لها كل الناجين من القصف ليلتها. كل ما عرفته وأَنا متأكد منه أَن من قصف المجندين الأَبرياء المُغرَّر بهم كانوا من المعسكر نفسه.

بعد أَن توقف القصف تجمدنا في مكاننا لم نستطيع عمل أي شيء، كان الخوف يُسيطر علينا، انتظرنا عودة الجنود لم يعد أحد، كان الإحساس بأَن هناك من سيقتحم علينا المكان بالرشاشات ليقتلنا هو المسيطر على قلوبنا. كنا نرتجف، اسناننا تصطك.. طلب منا الشيف أَلَّا نبرح أَماكننا.

الأَبواب كلها مفتوحة بدأنا نسمع أَصوات بعض الناجين الذين استطاعوا الفرار والدخول إلى القبو وهم يتصايحون، أخبرونا أَن أغلب من كان خارج القبو قُتلوا عن بكرة أَبيهم بما فيهم الجنود. المكان المُخَصص لفسحتنا نحن العاملين في المطبخ، لم يكن بعيدا عن الباب الخلفي للمطبخ راودتني الرغبة أَن أَخرج لأَتقصى أخبار زيدان والطيبي لكنني لم أجرؤ، لم أقو على الوقوف حتى، ناهيك عن السروال المبتل خرج الماء لا إراديا لم أَشعر به وقتها أبدا.

عندما بدأَت أَهدأ قليلا أَحسست بالبلل، العاشرة ليلا شاهدت شاحنة المؤن قادمة. هرع العربي إلى الداخل وهو يناديني بأعلى صوت، أَجبته بأَنني هنا لم يتكلم احتضنني وانخرطنا في بكاء مر، أحسست باطمئنان عند رؤيته لكنه هو أيضا هذه المرة كان أكثر من خائف قد بلغ به الرعب مبلغه.

– كيصحبني مُتي قتلوك ولاد الحرام.

- شكون ولاد الحرام العربي مابقيناش عارفين ولاد الحرام من ولاد الحلال لا احنا شكون ولاد حلال ولا ولاد حرام؟

- اسكت اسكت ربي يستر مازال ما منعناش.

- علاش البلاصة ديال أبو عائض محلولة حتى هي قاليك قتلوه جاو كيقلبو عليه.

- اسكت كلهم ماتو مابقى حد حي الباقي أُمو داعية عليه وما نعرف.

طلب مني العربي أن أُغير ملابسي المتسخة وأَرتدي زيي العسكري.

عدت حيث العربي والجنود السبعة المرافقين للشاحنة والسائق ونحن الناجين من المطبخ والتحق بنا بعد ذلك ثلاثة شبان لم يخرجوا من غرفهم في القبو وبعض الناجين الذين شاهدوا القصف بأُم أعينهم.

في تلك الليلة والتي أَسميناها ليلة المجزرة. لم نفعل شيئا طلب منا العربي عدم التحرك لأَن في ذلك خطرا على حياتنا حيث اقترح السائق الهروب بالشاحنة لأَنه يعرف المسالك ويستطيع أَن يوصلنا إلى أَقرب مدينة ليبية، كان رفض العربي قاطعا وغريبا بينما أيده ثلاثة شباب آخرين وإثنين من الجنود وفتاة.

قام السائق بتشغيل الشاحنة وانطلق، لم يكد يمر على خروجه أَكثر من سبع دقائق على أَبعد تقدير حتى سمعنا انفجارا هائلا مُضيئا. أكد العربي بإيمان من يملك اليقين التام أَن هذا انفجار الشاحنة.

في منتصف الليل أَضاءت السماء من جديد لكن هذه المرة بمروحيات قادمة من مكان آخر، كانوا أَكثر من عشرة على ما يبدو،

حطت اثنتان منهما على مقربة كبيرة منا ليدخل الركاب كلهم إِلى القبو الآخر لم نتبين أشكالهم. بينما حطت المروحيات الأُخرى على أَبعاد متفرقة وقريبة استنتجت بإن كل واحدة حطت أَمام ربوة قبو، كهف..، خرج بعد نصف ساعة عدد من الجنود محملين بمصابيح قوية يحملون رشاشاتهم كان منظرهم هكذا كافيا ليتسلل الرعب إِلى قلوبنا ويسكنها من جديد، كلنا كنا متأكدين بأن هذه هي النهاية منا من بدأَ بالتشهد في حين كان عويل النساء مسموعا تتقطع له القلوب. دخلوا غرفة المؤن وهم يضيئون بمصابيحهم القوية طالبين ممن هو موجود أن يخرج حاملا يديه فوق رأسه. تقدمنا العربي وركبنا تصطك.

طُلب منا أَن نتبع أَحد الجنود. في الطريق كانت أَشلاء الجثث تملأَ المكان رأَيت جثة كل من الطيبي وزيدان أَغلب الظن أَن القصف استهدفهما وهما يحاولان الفرار والدخول إلى القبو، لم أَستطع التمعن في جثتيهما كثيرا لأَن إِضاءة مصباح الجندي تحولت إِلى الاتجاه الآخر لكنني عرفتهما كما عرفهما العربي كانت ملامحهما واضحة وهما شبه متعانقين فوق الرمال التي خرجا ليتمتعا برؤيتها على ضوء الشمس لكنها ارتوت بدمائهما كما ارتوت منذ آلاف السنين بدماء كل أبرياء العالم، قد يصادفك رأس بشري ساق، كتف، رئة ، شيء من هذا القبيل، رائحة الدماء تفوح بشكل يجعلنا نرغب بل نتمنى أَن نموت بسلام، بسُم بشيء آخر غير هذا الذي أَمام أعيننا، تمنينا أن يقتلونا رميًا بالرصاص وسنعتبر أَنفسنا محظوظون فالموت بالرصاص أَرحم مما رأَينا يجعل من جثتك جثة انسان، يُحافظ على انسانيتك، يجعلك كاملا بملامحك قابلا للتعرف عليك، صعب أَن تفكر وأَنت حي أَنه من الممكن أن تكون جثتك كما ترى لا كما تتصور، مجموعة أَشلاء متناثرة يصعب تصور ذلك فكيف بمشاهدته. تم اقتيادنا إِلى ساحة

أمام القبو الذي كان أمام باب المطبخ الخلفي من الجهة الأُخرى.

إلتقينا ناجين آخرين رجالا ونساء كلهم قد بلغ منهم الرعب مبلغه كنا أكثر من خمسون شخص على أَبعد تقدير، بدا أن المرافقين للجنود لم يعجبهم ذلك بل تذمروا كثيرا. كل مرة يتكلمون فيها بهواتفهم بلغة أَجنبية كنت قادرا على فك رموز بعض كلماتها مستغربين وجود الناجين بشكل لم يكونوا يتوقعونه، هذا ما كان يُنقل عبر وسائل الاتصال. حيث طلب مني العربي باستمرار أن أُترجم له ما يُقال وأن أنقله له حرفيا. بينما كان الكل يبكي مؤكدا أَنَّه بريء ولا ذنب له، لم تتوقف النسوة عن النواح والعويل مما جعل أَحد الجنود يطلق النار في الهواء مهدد بقتلنا، إن هو سمع صوت صراخ ونواح مجددا، عندما ترجمت للعربي ما يقال على اللاسلكي كانت إِجابته مُرعبة.

– مشينا فيها خويا مشينا. باغي نشوف ولادي، مابغيهومش يترباو يتامى كيما تربيت، باغي نشوف ولادي. فرحاتك أَنت ماعندكش ولاد.

– باش عرفت مشينا فيها.

– انا غانعاود ليك كلشي دابة.

طلب منا الجنود أن نفترش الأرض ونجلس بصمت إن كنا نريد أن تبقى رؤوسنا فوق أكتافنا. انتظر العربي قرابة الساعة ليبدأ سرد قصته لي أو شهادته.

ذلك اليوم الذي رأينا فيه طارق وتمت مناداتي، رافقني الجندي حيث يوجد الأخير، دخلت من باب هذا المبنى، وجدت طارق في أحد مكاتبه وجدته في صورة أُخرى غير التي كان يقابلنا بها سابقا، متغطرسا فخورا بنفسه وعمله لم ينتابه أدنى إحساس بالندم أو

الشعور بالذنب بل بالعكس أخبرني أنه تم تجنيدنا من قبله بالصدفة ولأنه تم تجنيدنا من قبله فهذا شرف عظيم لنا باعتباره لم يعد مطلوبا منه أن يُجند أحدا مركزه الحالي لم يعد يسمح له بذلك.

قدمني بعد ذلك إلى مهندس أجنبي يتكلم العربية بشكل طليق طالبا مني أَن أَسهر على خدمته وأنه اختارني أنا من بين الكل لأَنه تعاطف معي باعتباري أَبا وكذلك أشياء أُخرى لم يذكرها لي، قال أَنني سأَعرفها وحدي وسأَشكره على ذلك كثيرا واكتفى بالضحك.. انصرف طارق بعد أَن قدمني إلى المهندس الذي أُلحقت بجناحهُ.

هنا داخل هذا القبو الذي أمامنا يُوجد ما لا يمكن أَن يخطر على البال، إدارة بأَتم معنى الكلمة بمكاتبها ووسائل اتصالاتها..، تتوسط مبانيها حديقة حقيقية بعشبها الأخضر، وورودها، ومسبح، ملعب كرة قدم، ملعب تنس، تتوسط حي سكنيا صغيرا يسكنه كل الموظفين العاملين هناك. بالإضافة إِلى مرافق الحياة العصرية من مقاه، بار قاعات رياضة، قاعة للأَلعاب الإِلكترونية كل ركن من أَركان هذه القاعدة الضخمة مُكيف حيث قدرت مساحتها الإِجمالية بهكتار تقريبا، كان عملي مرافقة شاحنات المؤن والشاحنات التي تجلب المجندين الجُدد ومساعدة عمال الصيانة عندما أكون مضطرا للبقاء في القبو.

هذا في الظاهر أَمَّا في الباطن فالمهندس كان يطلب مني أَن أغزو مؤخرته. حيث كنت أَزوره عندما يطلب مني ذلك لأقوم بعملي الحقيقي على أَحسن وجه وأَعود إلى غرفتنا التي تشبه كثيرا غرفتكم هنا وهي مسكن لكل عمال وعاملات النظافة والسائقين.

عندما يكون صديقي المهندس منتشيا ومخمورا يقول أَشياء كثيرة، يسألني عنها في الغد لأُنكر سماعي أَي شيء وأَنني كنت

مخمورا مثله، هذا منحه مزيدا من الاطمئنان وجعله يسترسل كلّما انتشى وسكر أكثر أخبرني.

المجندون الذين يتم استدعائهم من أقبيتهم، غرفهم لم يكن يتم تحريرهم كما تعتقدون وكما جعلوكم تعتقدون ذلك عمدا. كان يتم نقلهم إلى قبو آخر يسمى قبو العمليات يتوفر على نفس عدد الغرف المتوفرة هناك يتم فصلهم مباشرة كل واحد في غرفة حيث يجد مجموعة أُخرى من المجندين لا يعرفهم وغير مسموح له أن يتعرَّف عليهم بتاتا. كلهم قد جُلبوا بنفس الطريقة من أقبية أُخرى يترأس كل مجموعة من هذه المجموعات مجند مُلتح من أمثال الذين قابلناهم في قبو الاستقبال عند لسعد الثاني. هذا القائد الملتحي الذي يتم تهيئته بشكل غريب حيث يتلقى أغلبهم تدريبات مخالفة تماما لتدريبات باقي المجندين الآخرين حتى ليعتقد الفرد منهم بأنه خالد بن الوليد وسيقوم غدا بدحر الروم من صقلية.

في هذا القبو تبدأ تداريب أُخرى مكثفة حيث يتم تمثيل العملية المزمع تنفيذها في مكان ما من هذا العالم الصغير عشرات المرات، قد تكون في أي دولة أخرى لا تخطر لك على البال، لا يسمح للمجندين بالاختلاط مع بعضهم بعضا كل واحد ينام في غرفة خاصة، حيث قسمت الغرف المشابهة لغرفتنا إلى مهاجع منفصلة عن بعضها بحيث تتسع تلك الغرفة لِعشر مهاجع تقريبا، يجد فيها كل ليلة فتاة مختلفة وكل ما يحبه تتم دراسة الطبائع النفسية لكل مجند بحيث يجد الأشياء التي يحبها ويفضلها من مأكل، خمر، أقراص هلوسة، نساء.. كل شيء موجود حسب ذوقه. ليتعمق إحساسه ويتأكد بأنه قد تمت ترقيته فعلا وأنّه في وضع أحسن مما كان عليه في السابق، يتلقون كل يوم مع التداريب وعودا كثيرة بأنهم سيصبحون أحرار، أغنياء مباشرة بعد انتهاء العملية المزمع تنفيذها وأن التداريب التي تلقوها

هنا قد خلقت منهم فعلا أبطالا حقيقيين.

يكون مطلوبا منهم دائما القيام بعمليات حساسة وخطيرة كالتي يشاهدونها أحيانا على شاشات السينما وهذا ما يفسر الحماس والوحشية التي تتم بها تلك العمليات الإرهابية. القائد تكون غرفته متميزة وكذلك جواريه. لكن الأوامر أو بعبارة أُخرى القوانين تنص على أن كل من شارك في عملية من المجندين ذوي الاستعمال الواحد «utilisation jetable» يجب أن يموت فورا.

تكون بانتظارهم فرقة خاصة لتتخلص منهم مباشرة بعد الانتهاء من العملية المزمع تنفيذها، وأنه لم يسجل إلى حد الآن في تاريخ ما يسمى بالإرهاب الحديث أية محاكمة حقيقية لأي مجموعة إرهابية نفذت عملية من العمليات التي ينقلها الإعلام العالمي عبر شاشات التلفاز رغم أن العمليات التي لا يتم الإعلان عنها ونقلها أكثر بكثير من التي تُعلن وتُنقل صُورها، تُتخذ جميع الاحتياطات وتدرس كل الاحتمالات لكي لا يخرج أي مجند شارك في أي عملية إرهابية حيا، تصل في أقصاها إلى تفجير مكان العملية بكامله لمجرد الشك أن أحدهم لم يتم القضاء عليه، حيث يكون مصيرهم الموت كلهم وفي جميع البلدان حتى الفقيرة منها.

أحيانا لا يقومون بأي عملية إذ تكون بالغة الصعوبة وتحتاج إلى فرق ذات تدريب على قدر عال من الكفاءة. حيث يتم إقحامهم في الأخير إلى مسرح العملية بعد أن تكون انتهت وتم تنفيذها بنجاح ليتحملوا هم مسؤولية الحادث وَوِزرَه ويتم قتلهم أيضا كما حدث عند اقتحام القنصلية الأمريكية في ليبيا، تم التقاط صور لإرهابين ملتحيين على أنهم من قام بالعملية في حين تم احضارهم بعد أن تم كل شيء، وتم قتلهم بعد ذلك كالنعاج. بعدها تم تسويق خبر

اقتحامهم للقنصلية الأمريكية مرفقة بالصور من طرف إرهابيين متشددين ليصدق العالم كل هذا الهراء، في حين يستحيل أن يتم اقتحام سفارة أو قنصلية أمريكية والوصول إلى الرجل الأول فيها في كل بقاع العالم بتلك الطريقة مالم تكن الإدارة الامريكية هي نفسها من فعلت ذلك ومهدت الطريق إليه لغاية في نفس يعقوب. أضاف العربي:

عندما علمت بذلك قمت بالمستحيل من أجل نقلكم إلى المطبخ باعتبار الجنود والعاملين هم الوحيدون المستثنون من هذه العمليات والوحيدون الذين لا تتم المناداة عليهم.

أخبرني العربي: بأنه تم قتل القذافي بطريقة تتنافى مع كل الشرائع السماوية والوضعية، وأنهم قاموا بتصويز فيلم مُزيف وهم يُخرجونه من جُحر كما أخرجوا صدام من قبل، في رسالة لا غبار عليها واضحة وضوح الشمس لكل قادة العرب أنهم يعتبرونهم مجرد جرذان تعيش في جحور وليس قصورا.

القذافي الذي تركوه أربعين سنة وهو يعتقد أنه زعيم روحي وميداني لكل أفريقيا، يُغذون فيه هذا الإحساس هذا الأنا الذي يكبر عنده وعند كل قادتنا عام بعد عام، ويكبر معه الجهل والفقر والاقصاء في بلدانهم وشعوبهم هذا الجهل الذي يصبح في غفلة وبقدرة قادر صلصالا يصنعون منه ما يشاؤون أحيانا ثوار يقتلون قائدهم بطريقة مشينة لا تقبلها أية شرائع، جهل يجعل منا ننفذ كل ما يطلبونه منا دون أن يقولوه، دون أن يطلبوا منا ذلك. بل نعمل لحسابهم وفي صفوفهم ونحن نعتقد بأننا نحاربهم.

لم يُحاكم القذافي كما حُوكم الزعيم الصربي ميلوسوفيتش المجرم الذي قتل ملايين الناس لتظهر صوره وهو في كامل أناقته ويُعامل

معاملة الأبطال في المحكمة الدولية، في محاكمة كانت مسرحية أكثر منها محاكمة. اعتُبر القذافي مجرما وصدام كذلك ليقتل الأول ويمثل بجثته أشنع تمثيل تترك في متناول الرعاع الجهال الذين ساهم القذافي في جهلهم وعمق ذلك يلتقطون صورا مع جثته وعلامة الفرح على مُحياهم يلتقطون صورا وهم يمسكون بشعر القذافي أو لحيته علامة الانتصار والانتقام من جثة رجل ميت.

يعتقدون أنه عدوهم بينما في تلك اللحظات التي كانوا منشغلين فيها بالتقاط الصور، كان العدو الحقيقي يبسط نفوذه على كل البلاد وعلى ثرواتها ويقتل عبر فرق خاصة كل من في قلبه ذرة وطنية ليترك مجموعة من القوادين والعملاء يُقدمهم لنا على أنهم الممثلون الشرعيون لليبيا الجديدة. بينما تسارع شيوخ أمريكا من المُتأسلمين عبر قنواتهم ليُكفروا القذافي ويُدخلوه النار التي يملكون مفاتيحها هي والجنة، يُدخلون إليها من يشاؤون ويستثنون منها من يشاؤون. أُعدم صدام في يوم عيد الأضحى كرسالة واضحة من أمريكا وظلها في الأرض إيران أنه لا اعتبار ولا احترام لشرائعنا ولأعيادنا.

قال لي العربي: إن الأمير أبو عائض لا يعدو أن يكون مُجندا مثلنا وأن ليس له من الأمر شيء حيث يعيش في جناحه مع جواريه يُطلب منه بين الفينة والأخرى مباركة عملية معينة وتبنيها، بينما لا يُسمح له بالاتصال مع المجندين الآخرين بتاتا، باستثناء الملتحين منهم حيث يلتقي بهم كل يوم جمعة ليحاضرهم كان ذلك يُرضي غروره ويجعله يعتقد أنه يقوم بعمل الأمير والإمام. بل كان يظن بجهل منقطع النظير أنه سيُمنح منصبا سياسيا رفيع المستوى واليا أو أميرا على منطقة كبيرة عندما يتم تحرير الأمة من الشياطين ومن الفاسدين الذين هم نحن وإخوانه من العرب والمسلمين.

أحيانا يعترف بعدم رضاه عن مجموعة من الأُمور لكنه يطلب من أَتباعه الصبر باعتبار الضرورات تبيح المحظورات ويعدهم بعهد في حكمه لا ظلم فيه، حيث سيسوده العدل والطهارة لن تُرى النساء في بلاده أو في إمارته كاسيات عاريات وسيقوم بغلق كل الخمارات حيث سيسود العدل وتسود الشريعة على المنهاج الصحيح الذي لا غبار عليه والذي يمثله هو فقط بل يتهم الفرق الإسلامية الأخرى بالمُبدعة والضالة وأَن عليها الرجوع عن غيها وإِلَّا سيُحاربها حتى تعود بحد السيف صاغرة.

في الأَخير نكتشف أننا كلنا مجندون في الخارج والداخل تختلف الطريقة ويختلف المعسكر ليس إلا. قال لي العربي ليلتها: الأشخاص الذين يدخلون هذا المكان كمجندين تكون فرصة خروجهم من هنا أَحياء منعدمة جدا، وأَن عليهم في حالة تم القبض عليهم والتحقيق معهم أَن لا يذكروا أبدا أَسماء وأَلَّا يشيروا إلى صور من قام بتجنيدهم لأَن الغاية من التحقيقات ليست لإظهار إن كانوا أبرياء أو متورطين، لأن هذا يعرفونه بالدلائل ولهم صور وأشرطة عن كل العمليات ويعرفون عن كل مجند ما لا يعرفه هو ربما عن نفسه. ولكن الغاية منه هو اختبار المعلومات التي تملكها والتي ربما تسقط في يد الصحافة في حالة إِطلاق سراح المجند لتزيح النقاب عن شبكة التجنيد التي تتورط فيها شخصيات سياسية بارزة من جُل الدول المتعاونة بل ربما أصبح ممن كانوا يقومون بالتجنيد سابقا الآن في موقع سياسي متقدم جدا في بلده، وهذا ما لا يسمح به أبدا.

قال لي العربي: بأَن المهندس قبل أن يُغادر حيث تم تسريح الكثير من الموظفين في تلك الفترة التي تزامنت مع حالة التسيب وتراخي القبضة الأَمنية في المعسكر، قال له بأنه يملك فرصة وحيدة للنجاة رغم أَنَّها ضئيلة لكنها تستحق أن يُحارب من أجلها،

نصحه أَلَّا يهرب أبدا مهما بدت الفرصة سانحة، وَأن فرصة نجاته تكمن في بقائه حيا وأن يتم التحقيق معه على أَساس أَنه إرهابي وفي التحقيق كلما كنت غبيا وكانت معلوماتك شحيحة كانت فرص نجاحك أوفر.

ليلتها لم يعرف النوم طريقه إلى جفوننا. النساء تبكي بصمت مخافة أن يسمع أَحد الجنود نحيبهن ويقوم بتنفيذ وعيده والرجال في حالة ذهول. لم يُعرف بعد ما هو مصيرنا وماذا سُيفعل بنا؟ كنا ننتظر بين الفينة والأُخرى بأَن تحوم طائرة فوقنا لتقتلنا جميعا. بعد أَن غادر كل الأَشخاص الذين يحملون أَجهزة اتصالات والتي كانوا ينقلون عبرها عددنا من الرجال والنساء لأطراف لا نعلمها طالبين من الجنود المناوبة على حراستنا أَن يتم إطلاق النار على كل من يحاول الهرب.

في وسط هذا الجحيم وتحت وطأة هذه الآلة البشرية التي تقتل دون رحمة دون اعتبار لبشرية الانسان مهما كان، دون اعتبار لكل القوانين العالمية التي ظلت حبرا على ورق والتي تدعو إِلى احترام حياة الإنسان باعتبارها أَغلى ما في الكون.

لازال القتل من أَكثر الهوايات المحببة عند الأقوياء فوق هذه الأرض، حتى أَصبح منظر الجثث التي تعرضها وسائل الإِعلام يوميا منظرا عاديا في بورما، في أَفريقيا الوسطى، في البوسنة والشيشان إِلى عهد قريب في العراق في ليبيا في.. في.. في.. لكن أَن تشاهد ذلك عبر الشاشات أَمر وأَن تشاهده أَمامك هكذا مباشرة أَمر آخر، مختلف تماما، مرعب فالشاشة تنقل الصورة رغم بشاعتها تبقى أَكثر نقصا لن تنقل رائحة اللحم البشري وهو يتحلل أَمامك في ظرف قياسي حيث تختلف رائحته وهو يتحلل ويتعفن عن روائح اللحوم

الأُخرى من الحيوانات والتي ربما اصطدم أَحدنا يوما برائحتها.

يكفي أَن تتخيل أَو أَن تحلم فقط مجرد حلم أَنك مشيت فوق أَشلاء بشرية دمها ساخن، العيون جاحظة تنظر إِليك، الأَيادي تمتد إِليك طالبة العون، النصر، وأَحيانا كثيرة مستفسرة، لماذا تم قتلها هكذا؟ لماذا سُلبت حياتها هكذا. لماذا؟ ألا تستحق أن تعيش. لماذا؟

في وسط هذه الآلة الصماء قد ينبعث نور من قلب أَحدهم ليقول: لا، لن يستطيع أَن يقول لا، لكن باستطاعته أَن يقول كفى دما كفى قتلا في تلك الليلة قُدر أن وُجد أَحدهم في الدقيقة الأخيرة ليقول بحزم وشجاعة كفى إنه الكولونيل «إريك ملافو».

قضينا ليلتنا في العراء، لم يتسرب النوم أَبدا إِلى جفوننا أَخبرني العربي في تلك الليلة كل ما يعرفه، أَخبرني أن المهندس الشاذ كان ملاكا حقيقيا في صحراء الشياطين تلك حيث تُصنع الذئاب، أَخبرني أنه بواسطته لم تتم المناداة علينا وتم نقلنا إِلى المطبخ، كيف أَمن له بعض المال لزوجته وأُمه، كيف أَخبره بأنهم بخير وكيف أَخبره بموت أُمه مشاركا إياه حزنه، كان نافذته إِلى العالم الآخر تمنى لو كان موجودا لربما فعل شيئا من أجلنا.

كان نحيب النساء مكتوما يفضحه سكون الليل يجعله مسموعا ليشكل سمفونية الحزن البشري عبر تاريخ طويل من الألم والآهات، كنا نحتضن خوفنا نحتضن بين أَيدينا وقلوبنا أَرواحنا ننظر إِليها بكل حب طالبين منها أَلا تهجر أَجسادنا.

في الصباح خرج من القبو خمسة رجال عسكريون يتوسطهم رجل طويل أَبيض الوجه صارم الملامح يُغالب أَثر التعب البادي على وجهه بشكل واضح، يرافقه مترجم، كان الرجل الطويل يتكلم والآخر يعيد ما يقول بالعربية قبل أَن يبدأ خطابه طلب إِن كان بيننا

من يجيد لغة أَجنبية ثانية أَن يرفع يده. رُفعت عشر أياد بما فيهم أَنا والشيف التونسي بينما لم أَكن على معرفة سابقة بالآخرين، طُلب منا أَن نُشكل مجموعة ونصطف فيها منعزلين بمترين تقريبا عن البقية، بعدها بدأَ خطابه:

أنتم هنا في بؤرة من بؤر صناعة الإرهاب قد تمّ القضاء على بعضهم بينما قُدرت لكم النجاة، أَنتم الآن في قبضة العدالة التي ستُسلَّمون لها وستُعاملون على هذا الأَساس حيث سيتم التحقيق معكم في كل الجرائم المنسوبة إِليكم وأَوّلها تهمة الانتماء إِلى تنظيم إرهابي. أَنتم الآن رهن الاعتقال والقضاء وحده والقضاء وحده هو من سيقول كلمته فيما هو منسوب إِليكم.

كان الكولونيل يركز على كلمة القضاء بشكل قوي كأن الخطاب موجه لأشخاص آخرين وليس نحن ليتضح لي بعد ذلك الأَمر بشكل جلي. لحظتها استشعرنا بعض الأَمان الذي لم يكن بإمكانه تبديد مخاوفنا وشكوكنا في أَن كل ما يقوله مجرد خطاب إِنشائي.

أَضاف العربي وهو يخترق مجموعته مقتربا مني قائلا:

- نقدرو نمنعوا ماتنساش لي قلت ليك رد بالك يوقع ليك كيما وقع لمول الكاميون لي بغى يهرب قتلوه كلام المهندس كلو صحيح ماتنساش.

بعدها بقليل خرجت الجرافات التي أَرعبنا صوت محركاتها ظنناها أول الأمر طائرات. أَعيننا كلها اتجهت صوب السماء كان رعبا حقيقيا تسارعت فيه نبضات القلوب، خرجت لتحفر حفرا كبيرة وتحمل الجثث والمتبقي منها كأنها تحمل اسمنتنا، رملا، شيئا آخر تدسه في التراب تتخلص منه، تمنيت أَن أسال سائق الجرافة عن إحساسه.

- هل يستطيع النوم في الليل؟
- هل يتمتع بالأكل والشراب دون أن يشعر بالغثيان؟
- هل يضاجع زوجته؟
- هل يُقبّل أبناءه؟

تمنيت أن أساله وأسال الطيارين الأربعة نفس الأسئلة، تمنيت أن أسال هذه الأسئلة وغيرها كل من تمتد يده إلى بشر إلى كائن حي ظلما وعدوانا وغدرا، تمنيت أن أسأله للذين تمت مناداتهم ما هو إحساسهم وشعورهم عندما طُلب منهم تفجير قنابلهم في أماكن معينة، يلعب فيها أطفال يتسوق فيها الرجال والنساء، شاهدنا كل هذا نحن مجموعة اللغة الثانية حيث كنّا نتبع الجندي، طلب مني العربي ألّا أنساه إذا وجدت بارقة أمل في النجاة.

- إلا منعتي أنت وما قدرتي دير والو لخوك العربي ماتنساش ولادي ولادي الله يخليك خويا نوصيك ونعاود نوصيك.

دخلنا القبو الجديد كنا نرتعد من الخوف لم نعد نتذكر أي شيء نسينا الجوع نسينا.. النوم كلّ ما كنا نطلبه أن نظل أحياء، أن تعيش موقفا يجعل حياتك على المحك أعتقد أن هذا أكبر ابتلاء أو محنة ممكن أن يتعرض لها إنسان، وبالأخص الذين لم يكونوا يتوقعون ذلك فجأة حيث كنت تعتقد أو جعلوك تعتقد أنك في أمان، وأن من تتم المناداة عليهم يُسرّحون رجالا أغنياء ميسوري الحال، تكتشف فجأة أن كلّ ذلك لم يكن إلا كذبا وأنك لا تعدو أن تكون في شبكة صياد ماهر تُصارع عبثا للخروج منها، أمَلُك الوحيد يكمن أن تصل حيا إلى ظهر السفينة وأن يكون في صدرك ما يكفي من الأكسجين لتبقى تلك اللحظات حيا حتى يتم رفضك من الصياد نفسه باعتبارك سمكة هزيلة حقيرة غبية لن يجني منها أي شيء. يقذف بك من

جديد إلى البحر لا يهمه إن كنت جثة أو حيا، يرميك باحتقار شديد لكن ذلك بالنسبة إليك يكون كافيا لتنجو بحياتك وتستعيد حريتك من جديد.

دخلنا قاعة مُعدة على ما أظن للاجتماعات، طُلب منا الجلوس ليقوم بعدها جندي بإعطاء كل واحد منا فطيرة خبز باريسية وكوب قهوة مع قارورة ماء صغيرة.

بعد نصف ساعة دخل ثلاثة جنود يحملون استمارات مكتوبة بلغة أجنبية طلبوا منا أن نجلس متباعدين، قام أحدهم بتوزيع استمارتين لكل واحد منا مُنبها إيانا بأن المدة القصوى لملئها والإجابة عن الأسئلة هي ساعة ويُمنع منعا باتا طلب المساعدة من الغير وكل شخص يثبت غشه يُطرد من القاعة ليعود مع الجموع خارجا.

كانت الاستمارة تشبه كثيرا الاستمارة التي تم ملؤها في تونس مع اختلافات بسيطة هذه باللغة الأجنبية وتحتوي أسئلة كثيرة عن الثقافة الغربية بعد أسئلة السن، مهنة الأب والأم إلى غير ذلك تصطدم بالسؤال التالي.

- كيف تم تجنيدك؟
- اذكر اسم الشخص أو الأشخاص وأوصافهم إن أمكن؟

كانت توصيات العربي حاضرة وقتها بكل قوة لولاها لذكرت دون تردد أوصاف المسمى طارق.

حيث ذُكرت معايير في الورقة تحدد لون الشعر، العينين، الطول إلى غير ذلك لتساعدك على وصف من تعتقد أنه كان وراء تجنيدك.

لم أُجاوب عن هذين السؤالين تذكرت نصيحة العربي وكذلك قول الفتاة الغائبة الملامح في مكتب صفاقس بأن عدم الجواب عن

بعض الأسئلة في اختبارات كهذه هو في حد ذاته إجابة.

– هل شاركت في عمليات إرهابية من قبل؟

– لا

هل تجيد استعمال بعض الأسلحة؟

– لا

هل تعرف بعض الشخصيات الغربية المؤثرة في العالم أُذكر ثلاثة منها ولماذا تعقد أنها مؤثرة باختصار؟

ذكرت باستور. باعتبار أَبحاثه ساهمت في تطوير حياة البشر.

نوبل. باعتبار أَبحاثه دمرت العالم على عكس ما كان يأمل في أَن تجلب الرخاء له.

وذكرت فيكتور هيجو باعتبار قصته البؤساء بغض النظر عن قيمتها الأدبية العالمية، تجسد بُؤس الإِنسان الحالي الذي أَرى فيه بؤسي.

– هل قرأت كتبا أَجنبية من قبل أُذكر أحدها مع اسم مؤلفها إن أمكن؟

– الشياطين. دوستويفسكي

– ما هو المعْلم من بين المعالم الثلاثة التالية تراه مناسبا ليكون رمزا للحضارة الغربية. ولماذا؟

– تمثال الحرية بنيويورك.

– ساعة بقبقن بلندن.

– برج ايفل بباريس.

كانت إجابتي أَنني أُفضل برج ايفل لأنه يمثل حسب اعتقادي قدرة الإِنسان على صنع الحياة والمتعة داخل الحديد وليس العكس، كما تمثل الرؤية من أَعلى برج ايفل تطلع الانسان لرؤية عالم جميل يتسع لكل الناس دون حواجز وفوارق، بينما يمثل تمثال الحرية في اعتقادي جمود هذه الأَخيرة بين صخوره لتظل جامدة إِلى الأبد، وتمثل ساعة بقبقن في مدينة الضباب تحذير الإِنسان أَن الوقت يمر..

– ماهي ديانتك وأَهم تعاليمها في ثلاث أَسطر.

– أنا مسيحي حيث وجدت تعاليم عيسى المتسامحة. «أَدر خدك الأَيمن لمن صفع خدك الأَيسر».

– أنا يهودي حيث وجد ناموس موسى رافضا ظُلم فرعون هاربا إِلى أَرض السلام بحثا عن السلام زافضا للقتال.

– أَنا مسلم حيث وجدت تعاليم محمد. «لا تقتلوا طفلا وامرأة وشيخا ولا تحرقوا شجرة».

– ماذا يعني في نظرك ميثاق الأُمم المتحدة.

– هو حلم جميل مكتوب بخط أَجمل ينتظر من يجعل منه حقيقة تتجسد على أرض الواقع لأَنه حُلم يستحق أَن يجد طريقه إِلى الحياة.

كنت آخر من سلم استمارته. بعدها رافقني الجندي إِلى قاعة أُخرى يتوسطها مكتب يجلس عليه رجل صارم الملامح يتطاير الشرر من عينيه، كان يجلس بجانبه رجل عرفت فيما بعد أَنه مترجم يتدخل ليشرح لِي أَحيانا ما عجزت عن فهمه من المحقق الذي يحاول بكل ما أُوتي من قوة تعجيزي واصطيادي، لم يكن يُخفي ذلك بل استهل تحقيقه معي مؤكدا أَنه يُؤمن أَن الإِرهابيين أَمثالنا لا يستحقون أن يُعاملوا طبقا للميثاق العالمي وأنه مُجبر على ذلك لأَن

هنا في هذه البناية من لايزال يعتقد بإنسانية هذه الحثالة من البشر وأنهم يستحقون أن يُعاملوا وفق ذلك، لم أُجبه بتاتا حتى عندما سألني عن وجهة نظري أجبته بأنني أحترم رأيه.

استشاط غضبا بعد سماعه لجوابي، كانت الأسئلة في البداية. العمر إلى غير ذلك. ليقطع عليَّ أجوبتي فجأة وتظهر على الشاشة صورتي أنا والعربي وزيدان والطيبي ونحن خارجون من مسجد اللخمي بصفاقس طالبا تعليقي

- أنا مسلم وأصلّي لا أُخفي ذلك، كنت أُصلي في المعسكر ولا أعتبر هذه الصورة بمثابة إدانة لي ولا يمكن ربط الصلاة بالإرهاب.

- من جنّدك؟

- لست مُجندا أنا أعمل هنا في مطبخ المعسكر وفق عقد عمل كما قيل لي عندما وقعت العقد.

- هل شاركت في عملية إرهابية في السابق؟

- أنا لست إرهابيا كنت أعمل في مطبخ معسكر لا أعلم شيئا عن أنشطته وأهدافه.

زلزلت الصورة الثانية مشاعري وأحاسيسي كلما رأيت صورته أو سمعت اسمه تنتابني حالة من الغضب الهستيري تكبر يوما بعد يوم لم أعد قادرا على رؤية وجهه دون أن تتشنج أعصابي. إنه طارق.

- هل تعرف هذا الشخص؟

- لا أعرفه.

- هل سبق وقابلته؟

- لا أذكر.

هنا غضب لم يكن ينتظر هذا الجواب كان يريد أن يُوقع بي لم أُعطه إجابة قطعية ليفاجئني بصورة تجمعنا مع طارق يوم استقبلنا في الفندق. كيف تم تصويرنا؟ لا أعرف.

- ما رأيك في هذا؟

- لم أفهم قصدك سيدي.

- أنت أحمق غبي أو تتذاكى علي تدّعي أنّك لا تعرفه وأنت تملك صورة معه. أُريد تفسيرا.

- أنا لا أعرفه فعلا سيدي، في تلك الليلة دعانا رجل آخر لم أعد أتذكره ولكن إذا رأيت صورته أستطيع التعرف عليه ربما هذا الشخص من معارف مُضيفنا مر بالصدفة والتقطت هذه الصورة أذكر العشاء والفندق أما هذا الشخص أول مرة أراه.

- أين هم أصدقاؤك الان؟

- اثنان ماتا في الغارة والآخر في الخارج مع الجموع.

- أين كنت أنت في ذلك الوقت؟

- في المطبخ سيدي.

استمر التحقيق حوالي أربع ساعات، كان يعيد بعض الأسئلة ربما للمرة الرابعة لينتظر نفس الجواب بعد ذلك اقتادني الجندي لغرفة وجدت فيها الشيف التونسي وبعضا ممن كانوا معنا في قاعة الاستمارة.

تبادلنا في فتور حديثا عن كيفية التحقيق حيث ذكر أغلبيتهم الأشخاص والمكاتب التي كانت وراء تسفيرهم إلى هنا بكل تفاصيلها. كل ما كان يشغل تفكيري وقتها مصير «العربي».

أعدت تحليل كل ما سمعته من المحقق وخصوصا كلمة. «هناك منا في هذه البناية من يعتقد أَننا نستحق أَن نُعامل معاملة إنسانية»، لست أَدرى لماذا استحضرت مباشرة صورة الكولونيل الطويل وعرفت أَنه ربما هو المقصود.

هل يمكن للقلب البشري في تلك الصحراء وذلك القبو أَن ينتصر ولو لبرهة أمام تصلب الآلة البشرية التي يمثلها ويجسدها المحقق الذي لم يكن يبحث عن العدالة في تحقيقه أكثر مما كان يبحث عن أي خيط يستطيع من خلاله أن يجرنا به إلى الموت.

– هل يستطيع من وصفهم المحقق بأَنهم يؤمنون بإنسانيتنا أَن يفتحوا وينيروا لنا دربا صغيرا للخلاص؟

لم يُقدم لنا طعام الغداء ولم نكن نفكر فيه بتاتا، في الليل قبل النوم وزعت علينا سندويتشات في غرفتنا حيث قضينا تلك الليلة. بين النوم واليقظة حيث يستيقظ كل ساعة أَحدنا مذعورا والعرق يتصبب من جبينه وهو يذكر بعض أَصدقائه الذين قضوا في الغارة، لم أتذكر ليلتها الطيبي وزيدان كان تفكيري كلّه مُنصبّا على العربي، كانت أُمنيتي رؤيته وإِن كنا سنموت كنت أَتمنى أَن نموت معا.

في الصباح لم تُقدم لنا وجبة الفطور ولم يقم بزيارتنا أَحد إِلى حدود منتصف النهار تقريبا، دخل جندي الغرفة طالبا مني بلغة لم أَسمعها منذ أَمد بعيد أَن أصحبه، في البداية لم أُجبه لأَنني كنت أَعتقد بأنه ربما يُكلم أَحدا غيري أَو أَن هناك من يحمل نفس اسمي، ليعد بنفس اللغة.

– أين هو السيد..؟

رفعت إصبعي بخوف من يعتقد جازما أنه ليس المقصود وأن هناك خطأ ما.

– من فضلك سيد.. هل تفضلت بمرافقتي؟

هنا انقلب الشك والخوف إلى توجس أَو ربما أنا أتوهم، هل هذا حقيقي؟ أين رقمي؟ لم يتم مناداتي هنا منذ أن وطئت ساقي اللعينة هذا المكان من قبل الجنود إِلا برقمي، تحولت فجأة إِلى رقم، اليوم أُنادى باسمي مقترنا بكلمة سيد أنا لست عبدا لست مجندا سيدٌ أنا وأُدعى بهذا ومن قبل جندي أَجنبي. أتوهم. قمت من مكاني وأنا بين التصديق والتكذيب.

– تفضل سيد.. تفضل.

تبعت الجندي في الرواق الطويل حيث انتهى بي إلى أَخر مكتب على اليمين قائلا.

– تفضل سيد.. حضرة الكولونيل «أريك ملافو» في انتظارك.

دخلت المكتب الذي لا يمكن أَن تصدق بأن مثل هذه الفخامة وهذا المكتب موجود هنا تحت الأَرض، لم تكن فخامة المكتب وحدها التي استوقفتني لحظة للتأمل دون إرادة مني، كان المنظر الذي تشاهده في الخارج عبر الحائط الزجاجي للمكتب، يُسحر الأَلباب هناك حديقة حقيقية وورود من مختلف الأَشكال والألوان تتعانق لتشكل باختلاف ألوانها مجسمات غاية في الروعة، عشب أخضر، ماء يتدفق تسمع خريره عبر النافدة، أَما الأغرب فأَن تشاهد السماء الشمس العصافير هذا لم يخطر على بالي. كيف يستطيع من يخلق ويبتكر هذا الجمال ويزرع الحياة في هذه الأَرض القاحلة بهذا الشكل الذي يعبر عن جمالية وفن غاية في الروعة والإحساس. أَن يكون نفس هذا الشخص آلة للدمار تقتل بكل وحشية من يعترض سبيلها من أبناء جنسها من الإِنسان. أيُّ انفصام يعيش فيه سكان الأرض؟

أيقظني من شرودي ترحيب الكولونيل بي بشكل جعلني أبكي كان مجرد سماع كلمة

- تفضل سيد.. بالجلوس.

كافيا لتنهمر دموعي وتمتزج بنحيب كان وقتها ساعتها شبيها بنحيب النساء وبُكائهن، هناك طريقة غريبة في النطق تختلف تمام الاختلاف عن الطريقة التي قالها بها الجندي الذي أحسست أنه يقولها لينفذ بذلك أمرا ربما هو غير مقتنع به ولكن يجب أن ينفذه، أمّا السيد الكولونيل المحترم الإِنسان فقد قالها بطريقة تُحسسك بأَنه يعنيها بكل حرف فيها.

يومها لم أشعر بتاتا أنني في حضرة رجل عسكري أبدا كنت في حضرة قس كنت أُلامس في كلامه روح عيسى وتعاليمه المُحبة والمتسعة في شموليتها لكل البشر، كلماته تغزو قلبك لتغسله. لم يكتف بذلك اعتذر وتأَسف أنه لم يكن باستطاعته أن يُنقذ الكثير من الناس ليُقدمهم للقضاء باعتباره هو الوحيد الذي يملك السلطة للحكم عليهم وليس الطائرات الحربية، واعتبر قتلهم بتلك الطريقة جريمة في حق الإنسانية ولا تستند لأي تشريع وضعي ولا سماوي حتى وإن كانوا مجرمين.

قال إِنه استقبلني لأَن أجوبتي على الاستمارة أثارت اهتمامه وأَنه يتأسف لوجودي هنا.

قدم لي فنجان قهوة مع كوب من الماء القهوة التي كدت أَن أَنسى نُكهتها ومذاقها، صحيح أَننا كنا نشرب القهوة في المعسكر لكنها كانت بعيدة كل البعد عن التي كانت أَمامي يومها في مكتب الكولونيل، اعتبرني ضيفا يزور مكتبه وليس مجندا تناقشنا بعد ذلك حول رواية الشياطين باعتبارها من أَجمل ما قرأ وباعتبار مؤلفها من

الكتاب المفضلين إِليه.

في الأخير طلب مني ألا أقلق وأنني في مأمن، معتذرا بأَنه لن يستطيع إِخراجي من هنا ولكنه سيعمل جاهدا بأَن أَحظى هذه المرة على الأقل بعقد حقيقي. مستفسرا إِن كان عندي طلب آخر.

- أشكرك سيدي الكريم على كرمك الإنساني الذي شملتني به وأتمنى لو تتكرم وتمكنني من صحبة صديقي الوحيد والذي لم يتبق لي أحد غيره.

طلب مني ذكر اسمه ورقمه وسجله في ورقة مؤكدا لي أَنني سأَجده معي في الغرفة. شريطة أَن يكون غير متورط في أَي عمل مُشين.

خرجت من المكتب لأَجد نفس الجندي بانتظاري ليصحبني إِلى غرفتي وأَنا أُحلل كلمة مُشين، لم يقل عملية إرهابية مما يعني أَن هنا شبه إيمان راسخ بأن الموجودين هنا لم يشتركوا في أي عمل إرهابي وهذه حقيقة، إذن فكلمة عمل مُشين تعني أَن هناك مقاييس جديدة يتم اعتمادها لفرز المجندين الناجين.

تذكرت المهندس، العربي متورط حسب كلمة مُشين لكنه متورط حسب اعترافه لي وهنا لا يؤمنون إِلا بكل ما يرونه مُسجلا عن طريق كاميراتهم التي ربما كانت غير موجودة في جناح المهندس. وصلت إِلى الغرفة التي لم يبق فيها من الذين امْتُحِنُوا غير خمسة أَفراد بما فيهم الشيف رئيسي السابق في المطبخ، أَعطاني وجبة فطوري التي احتفظ بها من أَجلي

- فين هزوهم؟

- مانعرفش قالو لينا باش نبقوا وحدنا اسمك موجود معانا.

بعد الزوال دون وجبة الغداء كما حدث البارحة كنا مع موعد مع التحقيق هذه المرة مع محقق جديد احتفظ بثمانين في المائة من الأسئلة السابقة تتغير الصيغ والسياق فقط، فكلها تصب في نفس المعنى ليضيف أسئلة أخرى من نوع خاص.

- لماذا كنت ترفض مضاجعة فتيات المهجع وتفضل العادة السرية في الكثير من الأحيان.

التزمت الصمت لم أُجاوب أحسست بالإهانة أن تُقتحم خصوصيتك الشخصية هكذا وبهذه الوقاحة شيء مقزز، كان الشق الثاني من السؤال مُهينا إلى درجة كبيرة والأكثر إهانة أنك كنت طوال خمس سنوات ونصف مُراقبا في كل شيء حتى في دخولك إلى المرحاض، لا أعتقد أن هناك إهانة أكبر من ذلك، يتم تصويرك وتتم مواجهتك وتُطلب منك الإجابة عن أشياء تخصك وحدك وليس من حق أحد أن يطلع عليها فضلا أن يسألك عنها بهذه الطريقة.

عاود طرح السؤال مُتلذذا بطرحه كلمة كلمة حرفا حرفا، ليقول في الأخير بصوت حازم يأمرني فيه بالإجابة لأنه هو من يحكم هنا، وأنني لا أعدو أن أكون إرهابيا وغدا حقيرا يتستر برداء من التعفف الكاذب، لم يكتف بذلك بل أتحفني بشريط فيديو صوتا وصورة أظهر فيه تحت الدش مُمسكا قضيبي بيدي وأنا أرتعش قبل أن أقذف بسائلي المنوي مُلطخا به يدي، عيناي مسدودتان كأنني تعرضت لصعقة كهربائية خفيفة.

لم أتحمل منظرا كهذا انهرت تقززت، أن أرى نفسي في صورة كهذه وهناك من يشاركني المشاهدة. مُستهزئا مني وهو يطلب أن أُفسر له ما لا يُفسر كان ذلك فوق طاقتي وتحملي. شعرت بالإهانة بالتقزز. جبيني يتصبب عرقا، فرائصي ترتعد وهو يصيح في وجهي:

أُريد أن أعرف، أي مريض نفسي أنت؟

- لماذا تفضل هذا المنظر البشع على ممارسة الجنس مع فتيات المعسكر؟

- لاأُمارس الجنس مع من لا تشاركني الرغبة فيه لأنني لا اعتبره عملا والفتيات في المعسكر يمارسنه كعمل أُجبرن على القيام به ليس إلّا.

تمنيت أن يُعفيني من السؤال الثاني ليضيف بحزم طالبا مني أن أكمل لأنني لم أُجبه عن كل السؤال.

- أُمارس العادة السرية لأنه يجب أن أتخلص من سائلي المنوي.

- هل تتخيل فتاة معينة وأنت تقوم بذلك؟

- لا

- كاذب ههههه

أربع ساعات أُخرى من التحقيق المتواصل ينتقل بي من موضوع لآخر بشكل مفاجئ طالبا الإجابة بسرعة مستعملا أبشع الشتائم كانت الغاية من كل هذا هو أن يُفقدني السيطرة على أعصابي. هو نوع آخر من العذاب النفسي الذي يُسلط على المسحوقين من أبناء هذا العالم. يومها خرجت أكثر انهيارا وغضبا، استطاع هذا المحقق اللعين أن يتلاعب بمشاعري. تمنيت أن أقول له إن أمثاله يستحقون الموت. أردت أن أقول له إنني أتمنى قتله لم أشعر مرة برغبة في قتل أحد كما شعرت ذلك اليوم، تمنيت لو كنت أستطيع قتله، ذكر كل أُسرتي باستهزاء وصف أُمي بالعاهرة التي لا يمكن أن تُنجب إلا لقطاء وأوغادا أمثالي، وأنها جسد مشاع لمن هب ودب، كان يستعمل في ذلك مصطلحات أكثر من سوقية، لم تكن عنده حدود.

ما عشته وقتها كان كابوسا حقيقيا، في الصباح أتلقى وعودا بالخلاص جعلتني أُجزم أن وجودي هنا مسألة وقت ليس إلّا، وبعدها أُهان بهذه الطريقة، في الصباح أنا سيد وقُدمت لي القهوة، والآن هذا الحقير يُجردني من ثياب الإنسانية والمروءة أمامه بهذا الشكل المقزز، يناقش معي تفاصيل أعضائي التناسلية ويُجبرني على تقديم إيضاحات.

– لماذا تمارس العادة السرية؟

تحتجزونني قسرا أكثر من خمس سنوات في قبو لتسألني بعد ذلك هذا السؤال. أي تحقيق هذا؟ من أية مدارس تخرَّج هؤلاء؟ وأنا في طريقي إلى الغرفة أتبع الجندي بخطوات مُتثاقلة، كنت قد فقدت الأمل في الخروج، في الحياة، في نفسي، احتقرتها عندما رأيت نفسي مجردا من ثيابي أمام المحقق وزميله وهما يتبادلان ضحكات الاستهزاء، استوقف الشريط أكثر من مرة ليتمعن عضوي التناسلي طالبا رأي زميله، وأنا أتصبب عرقا، خجلا، وتقززا من نفسي أولا، ومن وقاحة المحقق الذي تلذذ يومها بعذابي أحسست باليأس تمنيت لو بقيت ليلتها مع الجموع لو لم أرفع إصبعي اللعين، دخلت الغرفة ساخطا نادما على ثقتي بالكولونيل. لأجد العربي أمامي يحتضنني.

– عرفت ماغتنسانيش. عرفت من أول نهار شفتك فيها. خليني نبوسك.

وجود العربي في الغرفة أحيا في نفسي الأمل، جعلني أندم أشد الندم على سوء ظني بالكولونيل، لأخلق له بعد ذلك ألف عذر كي أُبرئه مما حصل معي في مكتب المحقق الوقح. فأنا لست في مزرعته بل في معسكر لصناعة الترهيب العالمي، دخلت إليه بجهلي وغبائي وطمعي نعم ليلتها بعد أن احتقرت نفسي وعِفتُها، أعدت تقييم

وجودي هنا وأسبابه لأُحمِّل نفسي المسؤولية الكبيرة فيما أنا فيه.

أنا أوّل من يتحمل المسؤولية ثم المجتمع والظروف ثانيا، أنا المذنب الأكبر في حق نفسي هذا ما توصلت إليه بعد بحث معمق داخل نفسي بعد استجوابي لها آلاف المرات. سأكتشف لاحقا في مصحة الحقل قسم الأمراض النفسية حيث وجدت الكولونيل صدفة هناك بأن المحقق قد تعمد تعذيبي لحقده وسخطه العميق ورفضه القاطع لاستقبال الكولونيل «ملافو» لي.

أخبرني العربي: ظَللنا ذلك اليوم إلى الساعة الرابعة بعد الزوال في الخلاء دون أكل ماعدا قوارير الماء التي رُميت لنا حيث تسارعنا إلى التقاطها كالكلاب، لتظهر بعد ذلك شاحنة حملت كل النسوة بحضور وبأمر من الرجل الطويل واعتقد جازما أنهن حُملن خارج المعسكر تماما لأنني بخبرتي كمرافق للشاحنة سابقا أعرف الاتجاهات المؤدية خارج المعسكر وتلك الشاحنة سلكت إحداها، تم اقتيادنا إلى قبو حيث طُلب منا الإجابة عن أسئلة استمارة كالتي وُزعت علينا في مكتب صفاقس، ولما كنت عاجزا عن الكتابة، اقتادوني إلى مكتب التحقيق مباشرة حيث أبدى المحقق تعاطفا كبيرا معي عندما علم بخدمتي السابقة للمهندس الذي اتضح أنه كان صديقا له، في الغد تمت إعادة بعض الأشخاص الذين رافقوكم أول مرة لتوزع عليهم الاستمارات من جديد حيث عرفت منهم أنه تمت مناداتك في الصباح باسم السيد، استبشرت كثيرا واعتقدت أننا قطعنا شوطا كبيرا نحو النجاة. أرواحنا على الأقل لم تعد في خطر، صدقني، إنَّني أُحس بذلك وأعرفه.

أسبوع كامل من التحقيقات طلب منا في الأخير نحن الثلاثة أنا والشيف التونسي والعربي في غرفة المحقق الذي حقق معي أول

مرة والذي حقق مع كل المجندين الآخرين بما فيهم العربي والشيف التونسي. ابتدرنا قائلا:

اعتقد أنّكم تملكون هنا محاميا جيدا أحسدكم على ذلك، لكن الذي شفع لكم ومنح لكم الحق في الانتقال إلى الوضع الجديد الذي سيتم ترحيلكم إليه هو نقاء ملفكم من أي عمل مُشين، واحتواء أجوبتكم طوال هذه المدة على نسبة كبيرة من المنطق ورغم ذلك فهذا لا ينفي عنكم الصفة الإجرامية المتمثلة بالانتماء ومساعدة تنظيم إرهابي.

سكت برهة يختبر فيها قوة أعصابنا التي كانت مشدودة. صحيح أن السيد الكولونيل قد وعدنا خيرا. لكن همس الجنود لا زال يَطن في أذاننا حيث أكد أكثر من واحد. أنه غالبا ما يتم ترحيل المتورطين في أعمال إرهابية إلى سجون غير معروفة مثل «غوانتنامو».

سكت المحقق أكثر من اللازم ليضيف أخيرا:

وبناءً على كل ما سبق فقد تقرر وهذه حالة استثنائية يتحمل عواقبها من اتخذ قرار كهذا. سيتم نقلكم للعمل في حقل بأَجر وبعقد محترم، لكنكم ستكونون بحكم المسجونين تَسري عليكم قوانين السجناء وليس الأَحرار هذا ما يُسمى في قاموس قوانين بُلدانا «السراح الشرطي» ستعيشون هناك مع مجموعة من الرجال الأَحرار يتمتعون بحريتهم الكاملة.

أَنتم هناك بسلوككم وبتطبيقكم للقانون وللوائح التي سأَعرض بُنودها عليكم تصنعون حريتكم بأَيديكم، تُثبتون لكل من يشك في حقيقتكم. من أَنتم؟ مجرد مجندين تم التغرير بهم حسب أَقوالكم، أو إرهابيين حقيقين يتسترون في جبة البراءة. نحن من سيُحدد المدة التي ستقضونها هناك لكن كونوا متأكدين في حالة التزامكم بكل ما

طُلب منكم ستعودون أحرارا إِلى بلدانكم.

كانت لائحة البنود طويلة سأَكتفي بذكر أَهم ما كانت تنص عليه. عدم الحق في امتلاك هاتف جوال وعدم الاتصال بأَي شخص من العالم الخارجي وتوخي الحذر في مخالطة الزوار وأَن نلتزم بالعمل وفق المجال الذي سيتم دمجنا فيه في الحقل، أَن لا يتم ذكر أَي شيء مما حصل هنا لأَي شخص مهما كان تلميحا أَو تصريحا، أَن نجتنب الحديث مع أَي صحافي قد يزور الحقل أَو مع أَي بعثة. وأَن هم من يُقرر المدة التي سنقضيها هناك ليتم بعدها تسريحنا بشكل نهائي إِلى أَوطاننا، شريطة أَن نُثبت لهم خلال هذه المدة حسن السيرة والسلوك. وبأَن ما قُدم لنا هو امتياز لا يُعطى للكثيرين من أَمثالنا الذين يتم في الغالب نقلهم مباشرة إِلى السجون والتي لا تخطر على بال أَحد وما سجن غوانتنامو منكم ببعيد حيث يُعتبر الوحيد الذي كُشف من بين سجون أُخرى لم تُكشف بعد.

استقبلني السيد «أريك ملافو» طالبا رأْيي فيما عُرض علينا والذي اعتبرناه كلنا بمثابة إِنجاز عظيم يستحق من ساهم فيه كل التقدير والشكر والامتنان. لكن السيد الكولونيل اعتذر باعتبار أَن هذا أَقصى ما استطاع أنّ يحصل عليه لأَجلنا باعتبار ملفاتنا تُؤهلنا حسب رأيه أَن ننال حريتنا مباشرة وأَن ما مُنح دون المستوى المطلوب ولا يجسد روح العدالة التي يراها ويؤمن بها. تمنى لنا حظا طيبا وتمنى لو أنه سنحت فرصة للقاء في مكان آخر غير هذا.

كان الكولونيل يعني ما يقول كان يتمتع بقلب طيب، بإرادة حديدية تجعله يعبر عن كلّ ما يؤمن به دون خوف أَو اعتبار للكاميرات التي تُسجل كل صغيرة وكبيرة بعيون لا تنام، كان يحظى باحترام كبير هناك كل من تحدث إِليه يحس أَنه أَمام رجل يصارع

ضد تيار أَقوى بكثير من طاقته، لم يكن راضيا أبدا كان يحمل في قلبه هَمّ الإِنسان بكل بساطة والمحظوظون فقط من يصادفهم رجل كهذا في موقف كالذي كنا فيه، نعم المحظوظون فقط.

غاب الحظ عنا أَعواما كثيرة ليلتقينا صُدفة هنا في هذا الشخص النبيل الذي حارب لوحده من أجل أن يُنقذ زمرة من البشر يعتبرها العالم كله ورما يجب اجتثاثه. لم يتساءل العالم عن أَسباب الورم لم يتساءل مَنْ صنع الورم لكنه اتجه إِليه مباشرة ليقضي عليه دون أَن يتأكد إن كان ورما أَو مجرد صورة خادعة ثلاثية الأبعاد لإبعاد الشبهات والاتهامات عن الورم الحقيقي الذي يعيش بيننا بل فوقنا بكل حرية ومتمتعا بالسلطة أيضا.

الفصل 13

الحقول
مُدن أفلاطون الغربية

«في زمن الخِداع يكون قول الحقيقة عملا ثوريا»

جورج اورويل

حملتنا مروحية إِلى عالم آخر، إِلى حيث يتفنن الغرب في صُنع الجمال والحياة في أَماكن قاحلة، وإِلى حيث يتفنن أَيضا في سرقة الشعوب المُستضعفة وسط هذا الجمال، هذه المرة لم يكن المكان تحت الأَرض لم تكن هناك خدع بصرية كلّ شيء واضح وجَلي وضوح الشمس. كنا في حقل نفط ليبي، لكن لم يكن علم ليبيا هو الذي يُرفرف عاليا هناك كانت الأعلام الغربية وأَعلام شركاتها ترفرف عاليا.

استقبلتنا في مهبط المروحية الأَنيق سيارة إِسعاف صغيرة، حملتنا إِلى مشفى صغير، أَنيق يتوفر على تجهيزات لا تتوفر في أغلب مستشفيات بُلداننا. حيث خضعنا للفحوصات الطبية

والتأهيل النفسي لمدة أُسبوع، كنا في أَمس الحاجة إِليها، كانت رقة التعامل والاهتمام الإنساني أكبر مما تصورنا بكثير، بعدها تم فصل الشيف التونسي عنا، إِذ أُدمج مباشرة للعمل في مطبخ الحقل. كان باستطاعتنا مقابلته في أَوقات الراحة وحتى تبادل الزيارات، كنا نُعامل على أَساس عمال بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لَنَا ما لهم وعلينا ما عليهم، كلّ الحواجز والمجالات التي اعتدنا عليها في المعسكر لم تكن إِلّا في مُخيلتنا نحن فقط من يحمل تعليمات المحقق، حتى أَن العمال الآخرين يستغربون في أَحيان كثيرة عدم امتلاكنا لهواتف ذكية نستطيع من خلالها التواصل مع العالم الخارجي.

خضعت لفترة تدريبية على عملي الجديد لمدة خمسة عشر يوما، المتمثل في استقبال عمال النظافة والبستنة كل يوم الذين تجلبهم شاحنة كبيرة من خارج الحقل، حيث أُوزع الأَعمال المزمع إنجازها ذلك اليوم ومراقبة العمال والعمل.

تم إِدماج العربي ضمن الفريق الذي كنت مسؤولا عنه. كانت غرفتنا التي أَتشاركها أَنا والعربي أكثر من أَنيقة في الطابق الأَول من عمارة صغيرة تتكون من سريرين ودولاب لشخصين، تلفاز مثبت في الحائط 32 بوصة مع لاقط «الريمورك» رهن اشارتك ممر صغير يفضي إلى بيت الراحة والدوش، نتشاركه مع سكان الغرفة المقابلة، كان الحقل جنة على الأَرض القاحلة.

مدينة صغيرة تتوفر فيها كل مُستلزمات الحياة العصرية. مقاه، مطاعم، ملاه، مسابح، ملاعب لجميع أنواع الرياضات، وكذلك بنك حيث باستطاعة أي موظف أو عامل القيام بكل معاملاته المالية من هناك. تم فتح حساب بأسمائنا كما مُنحنا بطاقة بنكية الكترونية، كانت الوصايا تشمل استعمال البطاقة داخل الحقل فقط

بالنسبة إلينا لم يكن مسموحا لنا حسب تعليمات المحقق تحويل أي مبلغ باسم أي شخص آخر مهما كانت الظروف. إضافة إلى المتاجر الصغيرة التي تبيع كل ما يخطر على البال جرائد مجلات ملابس عطور.. تصميم الحقل أكثر من مُدهش. الممرات كلها معبدة، المساحات الخضراء أكثر من أَن تُحصى، تتخللها ورود وأَشجار للزينة. كان كلِ موظفي وعمال الحقل الذين يسكنونه يتمتعون بعطل طويلة الأَمد بعد عمل أكثر من ثلاثة أو ستة أَشهر، تحملهم مروحية صغيرة كالتي جلبتنا إِلى أَقرب مطار.

التزمنا بتعليمات المحقق بكل حذافيرها بل أَضفنا إِليها بُنودا أُخرى لم تكن مطلوبة منا. كنا نتحاشى مشاركة العمال الآخرين سواء في المقهى أَو في المطعم أَي نقاش سياسي مهما كان حيث كانوا يتكلمون بكل أَريحية ينتقدون بشكل واضح المنظومة الرأسمالية المتوحشة والتي يعملون لحسابها متهمين إياها باستغلالهم وأن ما يتقاضونه من أجر لا يتناسب مع حجم العمل والتضحيات الجسام التي يقومون بها مقارنة بالأرباح الخيالية التي يجنيها أَرباب الشركات من حقول كهذه.

إذا كان هؤلاء هنا وهم يتمتعون بهذه الأجور والامتيازات التي أَحيانا مجرد سماع رقم من أَرقامها يُشعرك بالفزع. ماذا يمكن أَن أقول أَنا الذي أَمضيت خمس سنوات من عمري في طنجة أَعمل في شركة أجنبية أَتقاضى فيها راتبا لا يكاد يُغطي احتياجاتي الشخصية، ماذا أقول أنا وملايين الشباب مثلي. إِننا مُستغلون أَظن أَن كلمة استغلال لا تفي بالغرض أبدا. نهب، سرقة، قتل شيء من هذا القبيل. لم نكن نقوى على ذكر المعسكر حتى فيما بيننا عندما نكون لوحدنا لازال رعب الكاميرات التي تسجل كل شيء يشُل تفكيرنا.

لم اشتر من متاجر الحقل طوال إقامتي هناك إلّا ثلاث حاجات، الكتب التي شكلت أفضل رفيق لي طوال الخمس سنوات ونصف التي أَمضيتها هناك، بعض الملابس وعطر «شانيل سمارت» المفضل لدي، طوال الإقامة والعمل هناك كل مقتنياتي لم تخرج عن هذا الثالوث المقدس.

خمس سنوات من العمل في الحقل اعتقدت خلالها أنّني شُفيت لم تعد منذ وقت طويل تغزوني الكوابيس وهي تحمل معها مناظر الجثث والأشلاء المتناثرة، لم أعد أَفزع من كل نداء كما في السابق عندما أُطلب لأمر في الإدارة حيث كنت أَرتعد طوال الطريق، بدأت أُحس بالأمان بل للحظات بدأت أُحس بالسعادة في عالمي الجميل الهادئ بل في سجني.

بعد العام الخامس وقبل عطلة عيد الميلاد المقدسة هنا في الحقل حيث يتسابق كل الموظفين من أَجل الظفر بعطلة بغُية قضائها في بلدانهم ومع أسرهم، من لم يُسعفهم الحظ يحتفلون هنا بشكل جنوني يجعل من تلك الأيام عيدا حقيقيا تُوزع فيه جميع أنواع المشروبات الكحولية وتُعلق على الأشجار الهدايا، تكون المرطبات على اختلاف أشكالها وأَنواعها متاحة للعموم، فضلا عن الموسيقى والغرف الليلية الثلاث التي لا تنام.

قبل عطلة عيد الميلاد بأسبوع طُلب منا أنا والعربي والشيف أَن نلتحق بالإدارة لأَمر طارئ. لم يستقبلنا موظف الحسابات كالمعتاد ليخبرنا عن عدد الساعات الإضافية والعطل التي لم نتمتع بها والتي ستضاف على شكل مال إِلى حساباتنا، لم يستقبلني موظف الموارد البشرية ليحتج على طريقة عملي وعلى إِغفالي لعدة أَماكن كان يجب أَن تكون في صورة أَفضل مما وُجدت عليه.

كان في المكتب واحد من المحققين الذين حققوا معنا في أسبوع المجزرة. كانت رؤيته وحدها كافية لتبعث الهلع في النفوس. وخصوصا ذاك المحقق الذي جردني من ملابسي، جعلني أتقزز من صوري وأَنا أُمارس العادة السرية، رؤيته فقط أَعادت إِلي كل الذكريات التي ظننت أَو توهمت أَنني نسيتها، عادت كمن تقيأ أَكله كُلّه دُفعة واحدة دون سابق إنذار. استقبلنا بمودة ظاهرة محاولا أَن يُبدد مخاوفنا ما استطاع، طلب منا الجلوس بكل لطف وهو ينادينا بأسمائنا وليس بالأرقام.

استهل حديثه: بأَن العالم الآن تغير إلى الأَفضل حسب رأيه وأَن التطور شمل مجموعة من القوانين أَيضا لم تعد تفرض الحظر وتحد من حريات من كانت إِلى عهد قريب تراه إرهابيا وأَن الإِنسان بمجرد أَن يستكمل عقوبته أَو يتم العفو عنه فإنه يصبح مواطنا عاديا يتمتع بكل حقوقه المَدنية، وباعتبارنا أبلينا حسنا وكنا مثال الالتزام والأَمانة فقد تقرر منحنا حريتنا لنتصرف كما نحب.

استخرج جوازي سفر من درج مكتبه مصحوبين بورقة تخول لصاحبها المرور وركوب أَي طائرة رغم انتهاء صلاحية جواز السفر. «دعه يمر» لكنّه لم يُسَلم لي جواز سفري، تجاهلني عن عمد وهو يتمنى لكل من العربي والشيف سفرا طيبا حيث أمامهما أسبوع هنا يستطيعان توديع أَصدقائهما ويشتريان ما يناسبهما من مقتنيات للذكرى مذكرا إياهم أَنه قد تم صرف تعويض مادي محترم لهما يستطيعان صرفه متى يشاءان من جميع بنوك العالم بواسطة البطاقة البنكية التي مُنحت لنا سابقا عند دخولنا الحقل.

استبقاني معه في المكتب دون أن يقول شيئا جعل بصمته المتعمد ونظراته التي يشوبها الأسف، الهلع يتسرب إلى قلبي ليسكنه من

جديد. أوصالي ترتعد لم تعد ركبتاي قادرتين على حملي أنقذني من هواجسي التي حملتني بسرعة الضوء إلى عالم من الظنون والهواجس، جعلتني أشك فيها في نفسي لرُبما اقترفت شيئا دون وعي مني جعلهم غاضبين عليّ بهذا الشكل وما ينتظرني شيء فظيع.

انضم إلينا بعد خمس دقائق التي فُتح فيها باب الجنون بالنسبة لمداركي العقلية. مدير الموارد البشرية الذي اعتذر بأنني لا أستطيع مرافقة العربي في الوقت الحالي لاحتياجه لي في العمل هنا لأن أغلب الموظفين في عطلة.

كان العذر مقبولا لوكنت في وضع آخر غير ما كنت عليه لتقبلته بشكل عادي، لكن ما حصل يومها في المكتب بل في تلك الدقائق الخمس أيقظ كل هواجسي دُفعة واحدة، كأنها بركان خامد انفجر فجأة، رغم أن مدير الموارد البشرية حاول التخفيف عني بشتى الوسائل، أخبرني بأن إدارة الحقل تعتبرني موظفا دائما هنا وأنه سيمكنني بعطلة لمدة عام مع إمكانية الرجوع للحقل والعمل وفق عقد جديد يلبي جل تطلعاتي.

أعطاني المحقق في الأخير كلّ أغراضي، هاتفي الجوال، الثلاث مائة يورو التي افتكها مني السائق في صفاقس وهو يبتسم ابتسامة خبيثة من يعرف ما يوجد بداخل الهاتف. أضاف ليوضح ولكي يجعلني أتأكد بأنه اطلع على كل محتوياته ليكون بذلك قد اقتحم كل عالمي الخاص أصبحت عاريا أمامه من كل الزوايا:

- سيد.. محتويات هاتفك الجميلة لازلت كما هي لم تتغير ههه.

قال لي إنني أصبحت حرا ومن حقي أن أتصل مع من أُريد دون قيد أو شرط، وأن الورقة التي تخول لي ركوب الطائرة لم تعد من اختصاصه هي وجواز سفري ستُسلمهما لي إدارة الموارد البشرية

عندما تُقرر منحي عطلة أو تسريحي. هنا طرحت السؤال الذي كنت دوما أهرب خوفا منه لأعيش لحظتي لأعيش نجاتي من الموت لأختبئ داخل وهم النجاة.

- ما علاقة الحقل بالمعسكر؟

المعسكر والحقل أية علاقة، آلة لإنتاج الدمار بكل أنواعه البشري والتقني لتحمي بها الحقل. كل شيء في ليبيا يغلي لا استقرار لا أمن، لكن الحقل أو الحقول هي وحدها المُدن الآمنة الجميلة منظر متساكني الحقل ينقلك إلى المدينة الأفلاطونية التي تتجسد هنا بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

حقل على شكل مدينة صغيرة كل سكانها سُعداء. عند الأَصيل من كل يوم في وسط الصحراء في طقس قد تتجاوز حرارته الأربعين درجة تُشاهد المِرشات المائية تدور بشكل متناسق مشكلة مناظر وأشكال مائية تسحر الألباب وهي تسقي المساحات الخضراء الجميلة.

تشاهد مجموعة من الموظفين هنا وهناك يمارسون هواياتهم المختلفة بعد العمل. سباحة، كرة قدم، كرة مضرب، إلى غير ذلك حتى العمال الأقل شأنًا كان مسموحا لهم بالتمتع شأنهم في ذلك شأن الموظفين الآخرين. تُنظم دوريات لكرة القدم، لكرة السلة.. يكون الفريق متكونا من لاعبين مختلفين براعتك في اللعبة هي التي تُحدد مكانك في الملعب وليس مركزك الوظيفي. قد تُشاهد مدير مصلحة يلعب جنبا إلى جنب مع عامل أقل شأنا منه بكثير، المقاهي الصغيرة تنبعث منها أصوات الموسيقى الراقية.

نعم حقل صغير الكل يعمل فيه بنشاط وحيوية منقطعة النظير ليتمتع بعد ذلك، حيث تسود العدالة الاجتماعية إلى أبعد ما تتصور.

هنا لا قنابل ولا انفجارات ولا إرهابيين أبدا لا يمكن لأي أحد أن يُهدد أمن الحقل المحمي بأمر..

في الخارج على بعد مئات الكيلومترات فقط، توجد مدن الملح لعبد الرحمان منيف، مُدُنُنا حيث الفقر والجهل، حيث يوجد التهميش، توجد القنابل، يوجد الإرهابيون، توجد المومسات.. هنا تتأكد أن المعسكر هو من يحمي الحقل حيث توجد الحقول والمناجم والذهب توجد المعسكرات هي من تمدها بالحياة، هي من تشغل الناس خارجا تجعلهم في خوف دائم على حياتهم تُقايضهم الأمن أو الحقل حياتكم أو حقولكم ليعيش الحقل آمنا سعيدا جميلا يجب أن يكون هناك معسكر.

لم أُصدق كل ما قاله المحقق تسرب إِلي الرعب والخوف من جديد، كان العربي فرحا بحريته هو والشيف إلى أَبعد الحدود وأعتقد أن هذا المحقق الذي تبادلنا أنا وهو العداء من أول نظرة، أراد أن يعذبني أن يتركني وحيدا لينفرد بي.

في الليل اتصل العربي بحياة سمعت زغاريدها كان الزمن قد سرق منها أجمل أيام حياتها كانت تعرف عن طريق المهندس أن زوجها حي. المهندس الذي كان كريما معها كرم العربي مع مؤخرته، لم يتوقف عن مساعدتها حتى بعد تسريحه من المعسكر آمنا مطمئنا بطلا. لم تصل إليه آلة التحقيق لتمتهن كرامته لتواجهه بصوره المقززة، لم يُتهم بأنه كان يصنع آلات الدمار، كل المسؤولين عن المعسكر تبخروا قبل أن تصل المروحيات كأنهم لم يكونوا، لم نكن نعرف أحدا منهم لكننا رأيناهم أكثر من مرة لامسنا جلودهم أَطباؤهم هم من فحصونا..، لماذا لم يُحقق معهم؟

منعني الرعب الذي ركبني فجأة من استعمال هاتفي لم أتصل

بأحد، لا أريد إفساد فرحة العربي بحريته التي لم اعتبرها وقتها كذلك، صرت متأكدا بأنهم لن يُحرروه وتمت المناداة عليه فقط كما في السابق، صار هذا الإحساس هو المسيطر على كل حواسي أحاول تخيل العملية التي سيطلبون منه المشاركة فيها وتنفيذها ليتم بعد ذلك قتله.

في مهبط المروحية ودعت العربي والشيف التونسي لاستقبل غربة من نوع آخر عمّقت من آلامي وساعدت على نمو هواجسي بشكل أسرع مما توقعت.

كان وجود العربي في حياتي في غرفتنا المشتركة أكثر من ضروري وجوده مستلقيا على سريره صامتا، باكيا، ضاحكا.. كان يبعث على الأمل، على الثقة كنا نتشارك الكثير من الأشياء كان يستطيع فهمي من النظر إلى ملامح وجهي أبثّ له كل مخاوفي، الآن أنا وحدي هنا في هذا السجن، نعم لم أعد أعتبر وجودي في هذا الحقل اللعين انتصار على الموت، لم أعد اعتبره نجاة. أصبح بعد رؤية المحقق من جديد ورحيل العربي سجنا بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

كل يوم يتعمق خوفي عادت الهواجس والكوابيس ومنظر الذين تتم المناداة عليهم في المعسكر وهم فرحين مستبشرين بالحرية الأبدية أَتخيل العربي أشلاء، أتخيل رأسه مُلطخا بالدماء كرأس الطيبي وزيدان ليلة المجزرة، أتخيل نُواح حياة وعويلها، أتخيل نفسي ألقى نفس مصيره ذات يوم استيقظ مرتعبا عندما أَسمع أسمي وأن هناك، من يناديني، شهر كامل وحالتي تسوء يوما بعد يوم، لم أَعد أتذوق واستطعم أي شيء لم امتلك الجرأة للاتصال بالعربي كنت أريد أن احتفظ ببعض الأمل أو هكذا توهمت بأنني سأنجو وأنه لم تتم المناداة عليه، كان باستطاعتي التخلص من كل هواجسي أو

الاصطدام بها عن طريق الاتصال بالعربي، لكنني لم أقدر كنت مكبلا فاقدا للإرادة.

في تلك الليلة عُدت إلى غرفتي. لم أُشاهد التلفاز منذ رحيل العربي والشيف لست أَدري أي شيطان وسوس لي بمشاهدتها وفي ذلك الوقت بالذات. لم أكن أشاهد القنوات المغربية أبدا حتى عندما كان العربي معي، كان يغتنم عدم تواجدي في الغرفة ليقوم بذلك، لأن مشاهدتها كانت تؤلمني تحمل إليَ كل الاشواق والحنين للمغرب.

أرى في وجه كل نساء المغرب، وجه أمي، في وجه كل الرجال، وجه أبي وإخوتي، أتفادى ما استطعت مشاهدة القنوات المغربية. تلك الليلة وعلى القناة الفرنسية الإخبارية. كان ليلتها هو ضيف شرف نشرتها الإخبارية بشحمه ولحمه. طارق. قدّمته المذيعة باسم لحسن اهنوش الزرقاوي. رئيس حزب المشروع المغاربي المعاصر. لحظتئذ اعتقدت بأنني أُهلوس قُمت برش الماء على وجهي، تأكدت أنه هو من يتحدث مع المذيعة التي سألته عن برنامجه الانتخابي. قال طارق أو أينْ كان اسمه: أنه يهدف من خلال برنامجه، نشر مزيد الاستقرار والرخاء في المغرب، باعتباره رجلا ديمقراطيا يُجسد مُثل وقيم الانسان النبيلة تجعله يمتلك برنامج و خطة قوية كفيلة بالقضاء على الإرهاب والإرهابين، وبأن حزبه الذي يترأسه والذي يملك حسب آخر استطلاعات الرأي فرصة كبيرة في الفوز وتشكيل حكومة برئاسته، سيعمل على تطبيق القانون بحزم على كل من يثبت تورطه في أي نشاط إرهابي مهما كان صغيرا.

هذه الآفة التي يُمثلها أناس متطرفون في هذا العالم لم تَعُد مرغوبا فيها من قِبَل العالم المتحضر، سيحاربها بالتعاون مع كل أحرار العالم

والذين يحملون برامج تهدف إلى خدمة الإنسان وحمايته من هذه الوحوش البشرية. سيقومون باجتثاث هذه الآفة من منابعها ومحاربة كل المدارس الدينية التي تعتبر وكرا حاميا لهذه الآفة. كما سيتم منع رخص بناء المساجد، مع إعادة هيكلة كل المساجد الأخرى وتأهيلها عن طريق تعيين أئمة أكفاء يتبنون ويزرعون قيم الدين المتسامح.

استعرض تجربة رائدة في هذا المجال تتمثل في استقبال بعض المساجد للمصليين يوم الجمعة فقط بعد الغروب حيث يتم إِحياء حفل ديني مختلط بين الرجال والنساء، غاية في الرُّقى والتسامح يُمثل قِيم الإِنسان الحديث جاء هذا القرار الشجاع بعد دراسة اقتصادية أثبتت أن فتح المساجد خمس مرات في اليوم يُعطل الإنتاج ومسيرة تنمية بُلداننا.

لم يكن الصياح وحده كافيا ليشفي غليلي، لم يكن تكسير التلفاز كافيا.. تخيلت أنني مُطارد من كل الجهات، وأن هناك من سيقتحم غرفتي وقتها لقتلي، قمت باختراق النافذة الزجاجية لأجد نفسي مغطى بالدماء ومحاط بمجموعة من عمال الحقل.

استيقظت اليوم الموالي في المشفى الصغير للحقل، قسم أمراض نفسية كانت يدي ملفوفة بضمادات نتيجة تحطيمي لزجاج النافذة. كان الطبيب التونسي الفرنسي ينظر إليَّ بابتسامة لا تفارق مُحياه، هنأني على سلامتي حيث كنت حسب تفسيره صريع نوبة هستيرية حادة نتيجة الهلع الشديد، طالبا مني أن أخبره عن سبب خوفي المُريع الذي تسبب في هذه النوبة التي لولا ألطاف الله ووجود العمال لأَودت بحياتي حيث مزق الزجاج إحدى شرايين يدي.

اختلطت عليَّ كل الصور، صورته لا تزال أمامي لم أستطع التخلص منها تفرض نفسها بكل قوة تسيطر على مخيلتي لم أَعد

أرى إلا هو، أراه برشاشه وهو يقتل الطيبي وزيدان. لحظتها صرت أعيش شبه اقتناع تام بأن العربي لم يتم تحريره بل تمت المناداة عليه فقط، صرت أتخيله يحمل قنبلته في يديه ليلقي بها في شارع في محطة في مدرسة.. أتخيل أشلاء الناس متناثرة ومن بينها أشلاء العربي نفسه، لم يكن وكل من تمت المناداة عليهم إلا واحد من الذين رماهم بقنبلته.

- أخبرت الطبيب أنني أخاف من الموت.

- هل ترى في الليل أو في اليقظة أحلام مزعجة؟

- نعم دكتور.

- هل تستطيع أن تتذكر وتخبرني إحداها؟

- هي ليست كوابيس هو كابوس واحد أراه في كل مكان أراه وأنا نائم، مستيقظ أراه الآن أستطيع أن أُخبرك به إن شئت دكتور.

- نعم تفضل.

أرى يا دكتور أنني كنت أعيش في قرية جميلة بسهولها ووديانها وأهلها الطيبين. لكن بجانب القرية كان هناك كهف، تسكنه وحوش منظرها مخيف ومُقزز، رائحتهم كريهة، أنيابهم طويلة، أيديهم متسخة، بطونهم بارزة. فرضوا بالقوة والترهيب على سكان القرية الصغيرة أن يُعطوهم كل سنة نصف محاصيلهم وأجمل بناتهم.

لم يكن من بُد أمام سكان القرية المسالمين إلا الإدغان لطلب الوحوش مخافة أن يُهاجموهم ويقتلوهم. كل عام وعند اكتمال البدر كان سكان القرية يحملون نصف محاصيلهم وأجمل بناتهم في جو مَهيب، حزين يقدمونها للوحوش الذين يكونون في انتظارهم خارج الكهف، بالرغم من ذلك كانت الوحوش غير سعيدة بكهفها ومنظرها المقزز وتمنت لو تخلصت منه وأصبحت في صورة أجمل كالتي خُلق عليها الانسان.

كانت تعرف بأن ذلك مستحيل تماما لأن النبوءة تشترط كي يتحقق الأمر. عليهم أن يشربوا كمية كبيرة من دِماء سكان القرية تُعطى لهم قرابين وعن طواعية ورضى تام.

لم يفكروا في ذلك فهذا مستحيل، اعتبروا النبوءة تعجيزية وبأنها مجرد انتقام من الآلهة نتيجة تسلطهم وجشعهم، فَهُم يستطيعون أن يحصلوا على كل دماء أهل القرية بالقوة إن أرادوا، أمّا أن يحصلوا عليها طواعية وبرضا تام فهذا مستحيل.

وحش صغير يافع، كان منظره أقل تقززا من البقية اهتدى إلى الحل واشترط على بقية الوحوش أن يُنصبوه ملكا عليهم إذا مكنهم من دماء سكان القرية طواعية وعن رضا تام.

في العام المُقبل لم يكن كل الوحوش في انتظار أهل القرية، كان الوحش الصغير وحده. قبل أن يأخذ منهم محاصيلهم قام خطيبا فيهم. قائلا لهم: بأنه سيتم إعفاؤهم من هذا الشرط وهذه الضريبة التي تُثقل كاهلهم وتفقدهم بناتهم، وأنه ابتداء من العام المقبل لن يكونوا مُضطرين أبدا ليحملوا إلى هنا محاصيلهم ولن يُرضيه أبدا أن يأكل الوحوش الآخرين من شقائهم وتعبهم.

لكن في المقابل طلب منهم طلبا صغيرا، أن يقوم كل رجل بالغ وامرأة بالغة في القرية بوخز إصبعه بإبرة وخزا صغيرة ويضعون قطرات الدم تلك في صندوق زجاجي كصناديق الاقتراع، اشترط عليهم أن تُوضع كل القطرات بل الكثير منها في هذه الصناديق وتُحمل إلى الكهف في العام المقبل عِوض المحاصيل، وسيقوم بمنح كل متطوع رغيف خبز وقطعة لحم شهية مع مبلغ مالي.

فرح سكان القرية أقاموا الأفراح والمهرجانات ذلك العام لم يستمعوا إلى صراخ الفتيات السبايا، لم يستمعوا إلى أنين بطون الأبناء

الجائعين، تلك السنة اعتبروا ذاك العام آخر أعوام الحزن والفقر، غدا ستشرق شمس جديدة. فرحوا، غنوا، رقصوا هتفوا بحياة الوحش الصغير.

في العام المقبل قاموا بحملة كبيرة شاملة حيث تبرع كل سكان القرية عن طواعية وهم يرقصون ويغنون بقطرات من دمهم. قدموها في الليل قبل اكتمال القمر إلى الوحش الصغير الذي أعطى لكل واحد منهم رغيف خبز وقطعة لحم صغيرة وورقة نقدية زرقاء اللون طالبا منهم الانتظار خارج الكهف وألّا يبرحوه حتى الصباح.

في الصباح خرج الوحوش كلهم. كانت مناظرهم أجمل بكثير من مناظر كل القرويين، كانت تفوح منهم رائحة عطرة، طلبوا من كل سكان القرية أن يتجندوا لخدمتهم، يبنون لهم منازل من ذهب على ضفاف الوديان، يزرعون لهم حدائق.. في حين ظلوا هم يسكنون بيوتا من طين.

ذلك اليوم تحولت القرية إلى ضيعة للوحوش، مزرعة لهم وتحول السكان إلى خدم في الضيعة مُقابل رغيف من الخبز ليس إلّا، لم يكتف الوحوش بنصف محاصيل القرية وبعض بناتها الجميلات استولوا على كل المحاصيل وكل النساء الجميلات.

- هل انتهيت؟ سألني الطبيب

- نعم سيدي.

- هل كنت تسكن تلك القرية؟

- نعم ولا زلت.

- هل ترى ذلك الوحش الصغير في شخص تعرفه وهل رأيته تلك الليلة في التلفاز التي حطمتها؟

أجبت كذبا. لا

لم أستطع أن أتخلص من صورة المحقق التي في ذهني كنت أتخيل الطبيب واحدا منهم لم ينفع طمأنته لي طوال الوقت إنني في عيادة طبيب وأن لا خوف بعد الآن. لم أستطع.

- قاطع الطبيب شرودي متسائلا.

- هل تراني أحيانا وحشا أو ما شابه ذلك. بصراحة أرجوك؟

لم أجرؤ على قولها صراحة أومأت برأسي علامة الإيجاب.

سجل إجابتي كما سجل جزءا من قصتي أو كابوسي لينتقل إلى موضوع آخر.

- لماذا لم تتصل إلى الآن بذويك؟

كان مجرد ذكرهم في هذا الوقت وتلك الساعة كافيا ليجعل دموعي تنهمر وحدها. أجبت باكيا:

- أخاف أن يكون أحدهم قد فارق الحياة لن أقوى على تحمل ذلك.

- هل تستطيع أن تكتب لي في ورقة أسماء من تخاف موته؟

أعطاني ورقة وقلم وخرج واعدا إياي بأنه سيعود ومعه مفاجأة ستُسرني كثيرا.

وجدت نفسي أكتب على الورقة دون شعور مني اسم العربي في الأول باعتبار حياتي أصبحت مرتبطة بحياته في موته موتي وفي حياته حياتي كان خوفي أن يكون قد تمت المناداة عليه مسيطرا على كل حواسي بل جعلني ذلك أعيش في رعب حقيقي، صرت أخاف أن يُقال لي أنت حر تستطيع أن تُغادر متى شئت.

بعد ذلك كتبت اسم أبي وأمي وكل إخوتي وبعض أسماء أعمامي وخالاتي ممن كنت أحبهم.

في الأخير كتبت اسم دنيا متبوعا بعلامة استفهام.

دخل الطبيب أولا استلم مني الورقة نظر إليها طواها بكل عناية ووضعها في جيب ميدعته. ليطلب مِمَّن في الباب الدخول.

لم أتخيل يوما ولا في الأحلام بأنني سأراه مُجددًا، أحيانا يزورني طيفه وسط كوابيسي ليُبددها ليقول لي لا تخف لازال قلب الإنسان قادرا على بعث شرارة الحب والاطمئنان، لا تخف قد تشتعل هذه الشرارات يوما لتُشكل شعلة كبيرة من الحب نطوف بها أرجاء العالم كالشعلة الأولمبية نُوقد بها الحب والحياة، لا تخف. كان الكولونيل «إريك ملافو» بشحمه ولحمه لم أُصدق. نسيت خوفي، نسيت وهني، نسيت رعبي، قمت إليه مرحبا ومتسائلا.

– حضرة الكولونيل ما هذه المفاجأة السارة.

احتضنني بحرارة وهو يجيبني بأنه نزيل مثلي هنا ولم يعد كولونيلا.

طلب منا الدكتور قبل أن يخرج أن نمضي وقتا ممتعا واعدا إياي بالاتصال بكل معارفي المدونة أسماؤهم في الورقة التي معه.

لم تكن مفاجأة، كانت رؤيته دواء، بلسما سحريا يُشفي الجروح ويُنسي الأوجاع، أخبرني الكولونيل: أنه لم يعد يقوَ تحمل صراخ الأبرياء وأنينهم، لم يعد يتحمل مناظر أشلاء الجثث التي تلاحقه في صحوه ومنامه.

حاول أن يضع حدا لحياته ليجد نفسه هنا، قال لي: بأنه عمل في هذه الآلة المتوحشة هو ومجموعة من أمثاله ليس ليكونوا آلة

للدمار للقتل، لكنه في الأخير أكتشف ووجد نفسه أنه لا يعدو أن يكون مُجندا مثلنا مع فرق بسيط. أنتم مجدون ذوي استعمال واحد «utilisation jetable» ونحن ذوو استعمال متعدد ودائم «utilisation durable» إنه كان يعرف مسبقا بأنهم لا يستطيعون إيقاف هذه الآلة، لكنهم مع ذلك كانوا يأملون في التخفيف من سرعتها الحد من وحشيتها.

هذه الآلة التي لا تجسد مبادئ الانسان الغربي وقيمه لا تجسد تعاليم عيسى وناموس موسى ولن تجسد الانسان الغربي أبدا لأنه كان أول من اكتوى بنارها، كانت دماؤه أول دماء تغذت عليها هذه الآلة الصماء التي ظهرت في بلاد الغرب ولكنها ليست منهم. الرجل الغربي والمرأة الغربية محبون للحياة أينما وجدوها وهذه الآلة هي عدو للحياة وللإنسان أين وجد. قتلت في السابق ملايين الأبرياء الغربين. عسكريين ومدنيين رجالا ونساء وأطفالا لم تكن تفرق، ملئت بطنها القذر من دمائهم وأشلاء أجسامهم المتناثرة، والآن هي ومن يقودها في رحلة يائسة فاشلة. اقتنع البعض منا بأن هذه الآلة التي قتلت الكثير من الأبناء والاباء والأمهات، ستعوضهم عن كل مآسيهم، عن عذابهم، عن كل من مات ظلما من أحبابهم وأجدادهم، ستعوضهم عبر قتل المزيد من الناس في كل بقاع العالم، هذه الآلة التي تتقوى جذورها كل يوم، تحتاج إلى إرادة من كل من يحمل في قلبه ذرة إنسان، ذرة إنسان فقط لتتوقف، الحب فقط هو الوحيد الكفيل بقتلها والناس يحبون بعضهم دون أن نشعر بذلك. هذا الحب نلمسه في مظاهر عدة. الرجل الغربي يحب المرأة في كل بقاع العالم لا يهمه عرقها ديانتها من هي وكذلك الرجل الشرقي كل الرجال في العالم وإلا بماذا تفسر هذا التلاحم بين الشعوب الذي يتجسد في صور عِدة.الزواج، الفن، الطبخ ،الرقص.. كل الشعوب

تتواصل ترقص في أحيان كثيرة على نغمات كل الأمم، تأكل كل الوجبات التي تطبخها نساء هذا العالم بكل حب، نسافر بحثا عن الحب، عن المغامرة..، نحن نحب بعضنا نستطيع أن نتقاسم ثروات الأرض ونعيش بسلام دون حروب دون قتل، لكن هذه الآلة ومن يقودها من الأنانيين والوحوش الشيطانية في صورة بشر فقط هم من يزرع كل يوم بذور الكراهية في كل الطرقات والمطارات يزرعونها أحيانا باسم الدين، باسم العرق، باسم الذهب.. بأسماء متعددة. لنزرع نحن بذور الحب إذن باعتبارنا أناسا ومن أجل الانسان فقط بغض النظر عن انتمائه وديانته ولون بشرته.

أحيا كلامه في قلبي الأمل، طمأنني بأن العربي وصل وأنه استغرب في الأول عدم وجودي هنا باعتبار هذه الأماكن هي الملجأ الحقيقي لمن يحمل بذرة إنسان في قلبه والتي لم تعد مطلوبة في الخارج. قال لي: بأنه يعرف الوحش الذي أخافني، كان يعرفه منذ البداية عندما تقابلنا، وأنه فعلا لا يعدو أن يكون وحشا صغيرا بالمقارنة مع وحوش أكبر وأضخم منه بكثير، هذه الوحوش التي خرجت من كهوفها في كل قُرى العالم ومُدنه تتغذى على الجهل والفقر ودماء الإِنسان أينما وُجد.

وأن الإنسان لطيبة في قلبه لازال يُصدق الوحوش ويعتبرها مُحبة، ولازال كل عام أو عامين يخز أصابعه ليعطها مزيدا من الدم عن طواعية ليضمن بذلك استمراريتها وعدم عودتها إلى حالتها الطبيعية، ولازال يرقص مُنتشيا بوعود التحرر والغنى لازال.. لازال.. لازال..

عاد الدكتور التونسي الفرنسي وهو يحمل في يديه لوحة رقمية.

- مايسالش يتعرف حضرة الكولونيل على العائلة سيد..؟

- هذا كلام دكتور.

توسطنا الدكتور أنا والكولونيل ليمكنني من مشاهدة كل صور عائلتي التي غابت عني كل هذه السنين، بكيت بكى لبكائي الطبيب والكولونيل. كانوا كلهم أحياء رأيت عبر الجدار الأزرق الخاص بأخي. كل صورهم، أفراحهم رأيت كيف مِت في عيونهم بعد ثماني سنوات من الغياب كيف تم نَعْي، رأيت صورة أُمي، أبي، إخوتي وهم يبكونني، رأيت ما كُتب على حائط أخي الأزرق «الفايسبوك»، رأيت تعليقات الأصدقاء والأحباب تترحم على روحي رأيت قبري الرمز في قريتنا مكتوب عليه اسمي دون ذكر تاريخ الوفاة، كانوا كلهم أحياء أنا الميت في عيونهم، رأيت صورة العربي في منزله بين أولاده وزوجته يضحكون، يلعبون يعوضهم عن سنوات الحرمان والتيه.

بعد ذلك طلب مني الدكتور أن اتصل بأخي الكبير لأنه على علم الآن بوجودي حي.

خرج الكولونيل والدكتور تاركا اللوحة.

بيدين مرتعشتين وقلب يخفق وعيون دامعة وجبين يتصبب عرقا اتصلت بأخي، بعائلتي بعد أكثر من اثني عشر عاما من الغياب القسري تقريبا.

- ألو خويا

لم تتركه أمي يجيب كانت على الخط دموعها، نحيبها، فرحتها تسبقها

- ولديـــــي ولديـــــي

لم تُصدق، نذرت بأن تذبح عجلا إذا تحقق ما أخبره بها قلبها،

أخبرتني أن قلب الأم لا يكذب وأنه كان دوما يهمس لها أنني حي، أخبرتني وهي تبكي أن الله يُحبها إذ أطال في عمرها ليُكحل عينيها برؤيتي، كان هذا هو دعاؤها في صلواتها وخلواتها. غسلتني دموع اللقاء كان مؤثرا جدا أن أرى وأسمع دموع أمي ونحيبها، لكنني لم أتحمل رؤية دموع أبي، لم أتحمل أبدا. كان تحمّل بكائه يفوق طاقة تحملي.

– ولدي ولدي حمد الله على السلامة ولدي. وهو يبكي

كانت رؤية دموع أبي صادمة إحساس آخر يختلف تماما عن رؤية دموع الأم، بدا نحيبي يرتفع بشكل تدريجي مصحوبا بشهيق مكتوم كمن يحتضر كانت بوادر نوبة جديدة قريبة ووشيكة لولا تدخل الطبيب بسرعة برفقة الممرضة طالبا من عائلتي أن يعودوا لمكالمتي في وقت آخر بعد أن أهدأ.

تذكرت بعدها فقط وخز إبرة الحقنة لأدخل في نوم عميق، هذه المرة اختلطت أحلام اليقظة بالأمل رأيت نفسي أُقبل يد أُمي أقبل رأس أبي احتضن إخوتي أحتضن أبناءهم. كانت دنيا تنظر إِلي من بعيد مترددة خائفة من الاقتراب، أمُد لها يدي في يأس علها تمسك بها لكنها لم تستطع.

استيقظت على هذا الحلم حوالي منتصف الليل، وجدت اللوحة الذكية بجانبي كما هي، استيقظت أكثر قوة وانتعاشا، استيقظت مُقررا اقتحام عالمي القديم مُواجهته، ربط جسور التواصل معه، معرفة إجابة عن كل الأسئلة القديمة التي لم أتلق إجابة عنها وقتها، أُريد أن أعرف.

لماذا لم تجبني عندما أعلمتها بفشل الرحلة؟

دخلت صفحتي «الفايسبوك» كنت أعتقد بأنها اندثرت بفعل السنين والغياب. وجدتها حية كأنني لم أغب عنها طويلا، كأنني نضجت، حيث أقوم بتحديثها بشكل دوري بشكل لا يرقى إلى مستوى الإدمان كما كانت في السابق.

هي الوحيدة التي كانت تعرف الرقم السري لصفحتي، لم تفارق صفحتي جعلتها حية بحيث تظهر كل محتوياتها الجديدة التي تتشاركها معي فقط لا يمكن أن يطلع عليها أحد. فقط من يعرف الرقم السري يمكنه مشاهدة الجديد فيها، كانت كل منشورات صفحتي في بداية غيابي عبارة عن رسائل من دنيا تخبرني فيها بالجديد في حياتها منتظرة عودتي كما كانت تأمل إلى أن فقدت الأمل في الأخير واعتبرتني ميتا كالآخرين، وجدت أنني في المرحلة الألفين في لعبة «كاندي كراش» حيث تركتها آخر مرة في المرحلة الألف وستمائة، كانت آخر رسالة وأطولها التي كتبتها بعد أن تم إعلان موتي بموجب الغياب الطويل. استلقيت لأقرأ.

الفصل 14

دُنيا

«الحب يتحمل الموت والبعد أكثر مما يتحمل الشك والخيانة»

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولا يسهر الليل إلا من به ألم ... ولا تحرق النار إلا رجل واطيها

يزيد بن معاوية

حبيبي. قالوا: إنك مُت. فلتمت ولتسعد الأرض باحتضانك، فلتمت في عيون كل الناس وقلوبهم لكنك داخل قلبي ستظل حيا حتى ألقاك، قالوا: إنك مُت. لم يكتفوا بذلك أعلنوها صراحة واستخرجوا لك شهادة وفاة، أُقيم لك عزاء وحُفر لك قبر، شاركت في تشييع صندوقك الفارغ في قريتك حيث يُسمح للنساء توديع أحبابهم جنبا إلى جنب مع الرجل، فوق قبرك احتضنتني أُمك باكية، شممت في رائحتها رائحتك تنفست على صدرها عبير حبك.

– قالت لي: أأنت دنيا التي لم يكن يرى من النساء غيرها. تعالي أُقبلك تعالي تعالي، احتضنتني بكينا معا كم أحسست بالراحة وأنا

أُبكيك في صدر أُمك، هذا الصدر الذي تشاركنا أنا وهي احتضانك فيه، أخوك أشاح عني بوجهه، عذرته لم أحقد عليه، أمّا أبوك فقد قبّل جبيني، نعم قَبّل جبيني ليقتلني ليذبحني ليجعلني أتشارك مع أخيك احتقار نفسي، يومها أحسست أنني منكم، أنتمي إليكم واحدة منكم، مكاني الحقيقي بينكم.

يومها لم يكن باستطاعة أحد أن يمنعني من توديع صندوق جثتك الرمز، كم تمنيت أن أُودعك وأنا أُقبل جبينك البارد، أُقبله بنفس الحرارة التي كنت أُقبله بها دائما، كم تمنيت أن أقول لجثتك فلتنهض فلتقم فإنني لم أجد قلبا كهذا القلب ليُحبني، أنت لم تكن تحبني فقط، أنت كنت تفهم رموش عيني لم أكن في حاجة للكلام عندما أكون معك. عزائي فيك أنني محظوظة بحبك، القليل من الناس في هذه الحياة من يعيشون الحب، من يعرفونه على حقيقته كما هو بل جزء ممّا هو.

محظوظة أنا في هذه الحياة لأنني تشاركت مع رجل مثلك أجمل لحظات حياتي، عشتها معك وأنا متأكدة أنك تعشقني تتنفسني، أتمنى أن أكون قد استطعت طوال تلك السنين السبع التي قضيناها معا، أن أجعلك تحس نفس الإحساس، تُحس بأنني أحببتك أكثر من أي شيء آخر، أتمنى أن أكون قد وُفقت في أن أُوصل إليك هذه الإحساس كما وُفقت أنت في ذلك بامتياز جعلتني أعيش الحب وأسعد به.

أنت الآن حيث أنت، حيث يقولون إنك ميت، لكنك بداخلي حي لم تمت، أحيانا أتصور نفسي بين ذراعيك تعاتبني لماذا لم أُجاوبك، كنت دائما أتصور أن هذا هو سيناريو لقائنا الأول بعد الغياب، أعددت الكثير من الإجابات حاولت خلق الكثير من

الاعذار لكنها كلها لم تقنعني. فكيف ستقنعك أنت؟ بعد ذلك فقدت الأمل في اللقاء ورغم ذلك إن لم تستطع أجسادنا المنهكة أن تلتقي أن تنعم باللقاء فوق الأرض المُسيجة، فأنا على يقين تام بأنّ أرواحنا ستستطيع ذلك يوما ما، ستُحلّق غدا متعانقة دون حواجز ولا فوارق حيث يجب أن يلتقي كل العشاق.

لروحك الطاهرة المحبة ورغبة في لقائها أكتب إليك حبيبي اعترافي وأنا متجردة من كل المساحيق التي يمكن أن تتدثر بها امرأة لتداري بها ضُعفها، استسلامها، انهزامها، انبهارها ببريق البهرج الخداع، لم أكن إلا واحدة من أولئك النسوة، حاولت وقتها ربما لتلبية رغبة دفينة داخل نفسي أن أقنعها أنني كنت مغلوبة على أمري، في الأخير بعد اصطدامي أدركت أن ذلك لم يكن إلا كذبا وقحا حاولت إقناع نفسي به وتبرير قبولي لما فُرض عليّ، نعم قبلت واستسلمت ربما متأثرة بالبريق وبإغراء الآخرين.

ليلتها عندما تلقيت رسالتك كنت بُصحبة أُمي وأختي المتزوجة في البيت، أنظر إلى الهاتف بين الفينة والاخرى متلهفة، مترقبة سماع الخبر الذي أستطيع من خلاله أن أواجه عائلتي به، عندما جاءت إشارة الرسالة وظهرت صورتك اعتقدت في الأول أنك نجحت فرحت لاصطدم بالحقيقة المُرة التي لم أتقبلها.

- أنا آسف فشلت الرحلة.

فهمت كل معانيها، فهمت معنى كلمة آسف ومعنى فشلت الرحلة، كانت تحمل اعترافا لم أكن أتصور يوما أنني سأسمعه هكذا عاريا ومنك أنت. آه ثم آه حبيبي لو تعلم لو أستطيع أن أضمك الساعة إلى صدري لأشتكي لك جملتك التي حطمت دفاعاتي، جعلتني أهرع كالمجنونة إلى غرفتي، كرهت صراحتك، كرهت

صدق كلامك، تمنيت لو فرشت لي ورودا وبنيت لي قصرا من الكذب، قاس أنت حبيبي بصراحتك، بنقائك، بحبك الطاهر الذي لا يعرف الكذب أبدا، أنت أنت يامن أفْسَدَتْ طهارته حياتي، أنت يا من جعلني أكره الخيانة، أكره الكذب، أكره.. وأكره..كما علمتني الحب علمتني الكره، نعم أنت من علمني ذلك.

بعدها كالمجنونة صرت أنتف شعري وأندب خدودي ندما، عذرتك بل لُمت نفسي بأنني حمّلتك أكثر من طاقتك وأكثر مما تستطيع ولا زلت ألومها وأحتقرها لحد الساعة. لهذا فقط عذرت أخاك عندما أشاح عني بوجهه لأنه يعتبرني السبب فيما آلَ إليه مصيرك، كنت أَنا السبب في اختفائك وفي موتك، الآن أنت حيث أنت سأكتب على هذه الصفحة التي شهدت لسنوات رسائل حبنا، سأكتب الحقيقة لأتخلص من عذاب الضمير من اللعنة التي تلاحقني منذ اختفائك، امتزج فيها الإحساس بالذنب والحب والاشتياق تمنيتك بجانبي كما أنت تمنيت لو امتلكت القوة الكافية لأتزوجك لأتحدى أبي وأمي، نعم نحن معشر الشباب نتحدى ذوينا في الكثير من الأشياء الخاطئة، لكننا نقف عاجزين عن تحديهم أمام المواقف الصحيحة، تمنيت لو فعلت ذلك تمنيت.

ليلتها بعد قراءتي للرسالة دخلت غرفتي باكية منتحبة، تفطنت أمي لما أنا فيه بينما اعتبرتها أختي التي لم تحبك يوما، فرصة لأستفيق. بل لم تتوان عن كيل الشتائم لك، بأنك فاشل أين حللت وارتحلت، لم أتحمل كلامها أُصبت بنوبة هستيرية أصيح وأنا أُبعثر شعري لم أكتف بذلك بدأت بقصه أمامها.

دخل أبي فجأة على غير المعتاد ليجدني على ما أنا عليه، استفسر لتعطيه أُختي تفاصيل كل ما كان غائبا عنه، كل الأشياء التي لم يكن

يعرفها، كل زيارتي لك إلى طنجة، تواصلي الافتراضي معك كل ليلة لم تترك شيئا تعرفه إلا وأخبرته به، صفعني، ضربني، أهانني، وأنا أحثه على المزيد طالبة منه أن يرحمني أن يقتلني لأنني لا أريد العيش لا أريد الحياة أفضل الموت.

سجنني في غرفتي، حرمني من كلّ وسائل الاتصال، منع عني كل ما يمكن أن يتسبب في إيذائي مخافة أن انتحر، اعتبرني مسحورة لم يجد تفسيرا لارتباطي بك وإصراري على هذا الارتباط إلا كوني مسحورة من قبل عراف كبير.

نعم أنا كنت ولا زلت مسحورة بحبك ولا أتنفس إلا حبك وذكرياتك فيها أعيش منتظرة أن ألقاك. لأسبوع كامل والبخور التي نصح بها العراف الذي جلبه أبي ليفك سحري تملأ المنزل وكل ما من شأنه أن يعيدني إلى رُشدي.

بعد عشرة أيام من العزلة كانت فيها أُمي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. حمّلها أبي مسؤولية كل ما حدث. دخل علي غرفة الاعتصام طالبا ألا يدخل علينا أحد، خاطبني هذه المرة بأسلوب آخر، قال: أنه يحبني وأنه تألم كثيرا لضربي بتلك الطريقة حيث تمنى لو شُلت يداه.. بعد أن تأكد تماما من استسلامي له وأنا أبكي مقبلة يديه متمنية له الصحة وطول العمر ومتأسفة لأنني جعلته يتمنى لنفسه ما لا أرضاه له أبدا.

قال لي: أن في الحياة أشياء أهم من الحب وأنه يريد أن يراني في بيت محترم وليس في كوخ مع رجل يقدرني يستطيع أن يلبي كل احتياجاتي وأنه لم يكن يعترض عليك كشخص بل كوضع حيث كان سيقبل بك لو عبرت إلى هناك بل كان سيساعدك عن طريق عائلته الموجودة بكثرة في أوروبا. لكنك لم تعبر.

اعتبر أبي أن هذه آخر نصيحة سيُسديها لي وأنّني حرة في أي قرار اتّخذه بعد ذلك وفي حالة اتخاذي لقرار ضد قناعاته وما يطلبه مني وإصراري على الارتباط بك فإنّه سيعتبر نفسه لم ينجب فتاة اسمها دُنيا، قال ذلك وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو يحتضنني.

أربك مشاعري أربك كل حساباتي. أعطاني هاتفي وعالمي وقال إنه سينتظر ردي في مهلة لا تتجاوز الأسبوع وعليّ أن اختار بين أن أكون ابنته وبين أن أكون زوجتك.

- حبيبي أيُوجد اختيار أصعب من هذا؟

تمنيت لو تمسّك أبي بأسلوبه القديم العنيف معي، كان بذلك يمنحني مزيدا من القوة والصلابة للتشبث بك. ومع ذلك فأنا لا أريد أن أتذرع بأنك لم تكن موجودا وقتها، لا أريد أن أتذرع قائلة: إنني انتظرتك لم أفعل لم أفعل استسلمت نعم استسلمت.

أُعيد لي هاتفي ليومين كاملين لم أتجرأ على فتحه، كنت قد اتخذت قراري وكنت خائفة أن أضعف أمامك. لكنني لم أستطع ضعفت منيت النفس والقلب بأن أكلمك لآخر مرة، أن أسمع صوتك، أن أقول لك: آسفة أنا أحبك ولكنني سأكون لرجل آخر، سأقول ما تقوله كل الفتيات.

لكنك لم تعطيني الفرصة كنت قد رحلت وتركت رسالتك التي عذبتني أنك في طريق النجاح وإنك كنت تُمني النفس بوداعي قبل سفرك الذي نجح هذه المرة. اتصلت بك بل كنت أتصل كل ساعة أكثر من مرة، صفحتك الزرقاء على حالها كنت أدخل إليها مستعملة رقمك السري الذي أعرفه لم تكن هناك.

لا أنكر أن ذلك منحني في البداية بعض الارتياح، لا بعبارة أدق أنقذني من الإحراج لم يكن عندي ما أستطيع مواجهتك به

وإقناعك. قَبّل أبي جبيني عندما أعلمته إنني رهن إشارته. لن أنكر أنني كنت أسيرة البهرج الذي عشته وقتها نظرات الحسد والغيرة في عيون الكل بما فيهم أختي التي لم تستطع إخفاء غيرتها باعتبار عريسي أغنى من زوجها، السيارة، تحضير الشقة ذات الجدران الزرقاء في حي المحيط بالرباط. التسوق كلّ يوم من أسواق المدينة القديمة، تحديد مواعيد قاعة الأفراح، اختيار فساتين الفرح..، كل ذلك جعلني أسعد بما أنا فيه بل لحظتئذ اعتقدت وأمنت بأنّ الكبار ربما يملكون من الحكمة والتبصر أكثر ممّا نملكه نحن الصغار.

كل هذا لم يكن يمنعني من أن أُلقي نظرة كل مساء على جديد صفحتك ليس لأنني كنت أشعر بالندم سأكذب إن قلت وقتها بأنني شعرت بالندم. كنت أريد أن أعرف أخبارك ليس إلا، بل لحظتها امتلكت من القوة والإيمان بالمشروع الذي أنا مقدمة عليه ما يجعلني أُخبرك بذلك دون إحساس بالذنب تخلصت من تحرجي أيضا.

لكنك لم تكن موجودا اتّصلت بحنان والطيبي أخبروني قلق عائلتك عليك واتصالهم المتكرر بك دون جدوى، كما أخبرني الطيبي بأنك أرسلت حوالة مالية محترمة قبل اختفائك كنت تريد أن تشتري بها خاتما لخطوبتنا. عندما علمت بذلك أحسست أن شيئا بداخلي تمزق قاومت دموعي ونجحت أقنعت نفسي أن ما أحسسته وقتها مجرد سحابة عابرة.

تزوجت كما أراد أبي وأمي وعريسي. كان شابا وسيما، موظفا محترما، يملك سيارة، شقة ينحدر من أسرة ميسورة الحال. كان لطيفا معي قبل الزواج بل لم يتجرأ علي لمسي وتقبيلي، سألني إن كنت مغرمة قبل لقائه، طبقت كل وصايا أُمي وأُختي الإنكار ثم الإنكار

هذا ما يحبه أغلب الرجال في بلداننا وإن امتلكوا دلائل تُثبت عكس ذلك، أنكري دائما وأدعي أنه أول رجل في حياتك، كل الرجال يصدقون ذلك أو على الأقل يتظاهرون بتصديقه.

كان هو أول رجل في حياتي حسب العرف المتعامل به، لم أسأله إن كنت أول امرأة في حياته، لا يحق للمرأة أن تسأل هذا السؤال وإن سألت وأجابها الرجل بكل افتخار يثبت فحولته بأنه كان فارس زمانه وأنه غزا في حروبه الطويلة فروجا وأوطانا كثيرة، فهذا لا يُعد انتقاصا منه بل هو دليل قاطع على رجولة كاملة ومكتملة تبشر بفحولة منقطعة النظير.

دخلت مرحلة إدراك ما أنا فيه يوم الدخلة في فندق «أطلس ايسني» في مراكش حيث شهر العسل «المزفت» كما كنت تقول. أنا في غرفتي أرتعش مستحضرة وصايا كل النساء عن كيفية التعامل مع هذا اليوم المشهود.

لم يكن هذا سبب توتري، كنت أنت تنظر إليّ بكل اشمئزاز، لم أستطع التخلص من صورتك في مخيلتي فرضت نفسها، أفرزها ضميري ليعذبني ليسرق مني فرحة ليلتي.

لم يكن ذلك فقط بل زوجي ساعد ذاكرتي ومخيلتي على أن تُبقى صورتك وطيفك معنا ليلتها، بل كل الليالي التي بعدها. بينما كنت أُصارع طيفك بكل قوة لأطرده كان زوجي يساعده ليستبقيه ليزيل الغبار عن مكانه في القلب والجسد، نعم كان زوجي من فعل ذلك. دخل عليّ غرفتي وأنا لازلت بكامل ملابسي لم أتجرد منها. كان نصف مخمور.

– مازال ماحيدتيش حوايجك حاشمة بركة من التمثيل بالزربة راهم صحاب الحسنات عاودو لي عليك بزاف وعارف القصة ديال

حبيب القلب الفاشل.

أيقظ كلامه كل حواسي أقبر آخر رغبة في جسدي كنت أتصارع لأمنحها له، لم يكتف بذلك سألني بوقاحة باعتباره رجلا واضح ويحب الوضوح من أول يوم وأنه شديد المراس ولم تُخلق بعد الفتاة التي تستطيع أن تخدعه.

- أنا عندي «من نهار الأول يموت المش»

هو مثل مغربي يرمز إلى قوة الرجل التي يجب أن يُظهرها للمرأة التي هي رمز الغواية من اليوم الأول والغريب في الأمر أن هذه الدروس تلقنها النسوة لأبنائهنّ وليس الرجال.

- باغي نعرف أنت عزباء ولا لا، راكي ماتقدريش دوزيها عليّ. قولي لي دابة باش نعرف.

- علاش ما قالوش ليك صحاب الحسنات؟

رغبتي ابتعدت هربت مسافة أكبر مما كنت أتوقع، لكن هذه المرة حل محلها شيء آخر، التقزز نعم كانت أول مرة أراه فيها هكذا أو على طبيعته كان يعرف ممن سردوا له قصتي، ممن جعلوها فيلما يُروى أنه ليس الأول في حياتي، تظاهر كل هذه الفترة بأنه لا يعرف بل كان يجعلني أحس بأنّه يصدق كلّ كلامي. عندما أصبحت زوجة له واجهني بما يعرفه عن ماضي وبهذه الطريقة وفي يوم الدخلة، لماذا؟ كي يُهينني بما عرفه عن ماضيّ، كي يعتبره نقطة ضعف يستطيع من خلالها التحكم بي، كي يعتبر قبوله بي زوجة مِنّة منه وأنني بماضي المتسخ حسب رأيه أصلح لأن أكون جارية تحت قدميه، يجب أن تُكافئه على مسامحته بالسمع والطاعة والعرفان بالجميل.

لم اكتشف تغطرسه واعتزازه بنفسه من قبل بل كنت مذهولة،

مسحورة ببريق البهرج اعتقدت أن الرجال الذين يملكون صفات الغطرسة والتكبر والتي كانت بوادرها تظهر لي بين الفينة والأخرى لا يمارسونها على زوجاتهم ناسية أن أول من يكتوي بها كن هن.

- علاش كتسول دابة علاش ماشي شحال هادي وعلاش بالأسلوب هذا أنا بنت ناس ماشي خدامة عندك.

ارتبك لم يكن يتوقع أن أُكلمه هكذا. اعتذر. لحظتئذٍ كنت سأقبل اعتذاره كنت أرغب في ذلك، لا أريد أن أفشل من أول يوم، كنت أتمنى بناء حياة جديدة. بيت، زوج أريد أطفالا، لازالت نبوءة الطيبي تقُض مضجعي في أن يكون أحدنا عاقرا كنت أعتقد أنني عاقر. امتزجت في داخلي كل الأحاسيس المتناقضة، الكراهية، الحب، الرغبة، وأنت، وهو، كلكم كنتم حاضرين داخل مخيلتي تنهشون قلبي بوحشية.

أخبرته أنني عزباء. كان ذلك كافيا أن تكون أنت بيننا حاضرا عاريا مُمسكا قضيبك تحكه على مهبلي وأنا أتضرع وأتوسل إليك أن تفتض بكارتي، وأنت ترفض لم تكن تعتبرها مكسبا وشيئا تفتخر به، كنت تراني أنا روح إحساس قبل أن تراني جسدا، كيف لا تكون معنا وهو يسألني أسئلة كهذه. ليلتها أحببتك من جديد اكتشفت كم كُنتَ شهما معي، فارسا نبيلا، وكم هو حقير، هل تستطيع السعادة أن تُعشش حبيبي داخل قلب يحمل هذه المقارنات المتضادة؟ هل تستطيع أية فتاة عاشت ما عشته ألا تتذكر شخصا كان يعاملها كأميرة وهي عارية أمامه كما ولدتها أمها. وآخر يعاملها كجارية إشتراها يريد منها بكل جلافة أن تمنحه بضاعته التي دفع مقابلها مالا.

أزال الغبار عن مكانك في قلبي ليتسرب النّدم شلالا من أول

يوم، أردت عبثا أن أُسامحه، أن أخلق له ألف عذر، سلمت له نفسي، جسدي، مغمضة العينين وهو يطلب مني دون قبلات دون كلمة أُحبك أن أفتح ساقي أكثر ليتمكن من إيلاج قضيبه بوضوح ويرى القطرة العجيبة.

أحسست ليلتها أنه كان يتمنى ألا يجدني عذراء لأنه يريد أن يُعذبني، يريد أن يمتلك ضدي دليلا قاطعا عن كل ما سمعه عني من أصحاب الحسنات حسب تعبيره ليهينني به، لكنك أنت رحمتني من هذا وليس هو.

لم يكن يُمارس الجنس، كان يذبح نعجة أدخل قضيبه بكل ما أوتي من قوة كأنه يقتحم حصنا وليس جسد امرأة غضّا، لم أتمتع كنت أتألم أخرج قضيبه بنفس السرعة طالبا مني الابتعاد لتبدأ رحلة البحث عن القطرة العجيبة. كانت واضحة وضوح الشمس تحت الضوء الكاشف الأبيض الذي أصر على بقائه كيلا يتعرض للخداع، طالبا مني أيضا أن أُبقي يدي فوق رأسي.

لم يكتف زوجي بمنظر القطرة على ماهي عليه ليقتنع بعذريتي بل قام بجلب مجهر كان معه وهو يفسر لي. أن أحد أصدقائه الأطباء المحترمين قد علمه كيف يُميز بين القطرة الحقيقية والمزيفة باعتبار عمليات رتق الغشاء قبل الزواج أصبحت ظاهرة منتشرة بين الكثير من الفتيات المستهترات. تخيل حبيبي أن تخوض امرأة حوارا كهذا في أول يوم من زواجها، تخيل حبيبي ذلك تخيل. كان هذا كافيا لتُفتح هوة كبيرة مليئة بالقيح المقزز من أول يوم.

فحص قطرته التي تنازلت له عنها بطيب خاطر نادر. ليؤكد في الأخير بأنها حقيقية لم يعتذر كما يفعل الناس المتحضرون بل طلب مني رأيي في تفطنه وذكائه الخارق.

– اشنو رأيك راجلك سبع ميدوزها عليه حتى واحد قومي نمشيو نتعشاو برة دابة.

ليلتها لم أكن عروسا، لم أكن امرأة، كنت شيئا يجره مخلوق ذكر وراءه، لم يسألني، ماذا أحب؟ ماهي أكلتي المفضلة؟ إن كنت أحب منظر المسبح لم يسألني، إن كنت أريد أن أمارس الجنس ولا أُريد الخروج؟ ونحن في السيارة هاتف أُمه.

– كيما قلتي لي وصيتني آ الواليدة تربية يديك. الأمور ناضية ماتخافيش علي ولدك سبع.

– ياك ومزيان.

كان هذا كله ما تناهى إلى سمعي.

أُمي كانت خائفة لم تكن تملك اليقين التام على عذريتي أكثر من مرة قبل مراسم الزواج اقترحت أن ترافقني إلى الطبيب لمزيد التأكد وهي تستحضر كل الفرضيات

– يمكن نهار ابنتي من غير ماتحسو وقعت شي حاجة.

– أمي بركة راكي كتعذبيني هكا راني قلت ليك ما وقع والو صافي.

تلقيت مكالمتها. لم أجبها لأنها ستقرأ نبرة الحزن في صوتي وتحملها الظنون بعيدا وستعتقد بصدق شكها، أعطيته الهاتف كان فرحا يريد أن يخبر الجميع الخبر السار أخبر أُمي دون أي إحساس بالخجل.

– بنتك اخالتي ذهب معير تبارك الله على تربيتك.

هذه المرة سمعت زغاريد أُمي وهي تطلب مني أن أكلمها، لم أقل شيئا بكيت فقط كان ذلك كافيا لتفهم ما أنا فيه، لم ترد كأنها

أرادت أن تسترد زغاريدها بصمتها وأغلقت الخط.

لم يتغير زوجي بل ظل على طبيعته التي يتفنن في إضافة بهارات جديدة إليها كل يوم. يعود من عمله يسألني مباشرة ماذا طبختُ له، وهل التزمت بالتعليمات التي نصحتني بها أُمه ليكتشف دائما أحد العيوب الخطيرة بمجهره الذي ظل يحمله دائما معه ليس بشكله الحقيقي الأول لكنه ظل يبحث عن السلبي في كل شيء قبل الإيجابي ولا يتغاضى عن أدق التفاصيل التي يعتبرها سلبية، والأكثر من ذلك ينقل كل ما يدور في شقتنا مهما كان تافها إلى أمه عبر الهاتف وأمامي بكل تفاصيله المحرجة في أحيان كثيرة.

- الغدا اليوم. طيبت دُنيا مرقة ماجاتش معسلة كيما كطيبها أنت الوليدة.

- ياك وريتها كيفاش دير مالها هادي راسها تقيل.

- اش غديري الواليدة الصبر وصافي دابة نجي نهار السبت وطيبي لي أنت الشهيوات ديالي.

- واخة ولدي واخة.

هنا تفرض أنت نفسك، تظهر كل ملامحك أمامي واضحة وضوح الشمس أتذكر وأنا أتحسر والعبرات تخنقني كما تخنقني الآن وأنا أكتب هذه الرسالة. كيف كنا نطبخ معا في ذلك المطبخ الضيق الذي لم يكن يتسع لِكِلَيْنا. كيف كنا نتحدى بعضنا. طبق من سيكون الألذ؟ كيف نتوقف فجأة لنغوص في قبلة جنونية، كيف احترق ذات مرة طبق الغذاء، خرجنا نبحث عن أقرب مطعم لنأكل. لم يكن يهم ماذا سنأكل، كان وجودنا مع بعض هو اللذة، هو الحياة، كل الأشياء مهما كانت بسيطة تبدو لذيذة عندما أكون معك. أي حياة صرت أعيشها الآن. لا روح، لا حب فيها.

شريكي في السكن والذي هو زوجي، لا يراعي مشاعري بتاتا، بل بالعكس كان يتفنن في ابراز مكامن النقص والضعف في شخصيتي والبحث عنها. في الليل يكون غالبا مخمورا، لم أتمكن من معرفة رائحته الحقيقية. يطلب مني أن اتخذ وضعا من الأوضاع التي تعجبه، كل يوم تتحفني مخيلته بوضع جديد. لا تستمر العملية أكثر من ثلاث دقائق على أبعد تقدير يقذف سائله وينتهي كلّ شيء، لم يفكر بأن هناك تحته طرف آخر من دم ولحم ربما يريد منه شيئا آخر والأدهى أنه يعتبر نفسه فحلا ويطلب رأيي في ذلك.

- راجلك سبع آه اش قولك.

- يمكن.

في البداية كانت دوما تلك إجابتي عند سماع كلمة «سبع» مع مرور الوقت أصبحت تستفزني الكلمة إلى أبعد الحدود وأصبح تكرارها يفرض عليّ إجابات أخرى ستكون أكثر حدة فيما بعد.

كانت أمه حاضرة معنا في كل تفاصيل حياتنا الصغيرة والكبيرة منها. كان استقلالنا شكليا فقط، هي من يُجدد معالم حياتنا. العطل، مكان إقامتنا، ما سنأكله.. مع مرور الأيام وكثرة الضغط وعدم وجود متنفس آخر عدت إلى عالمك أعيش فيه، أتنفس فيه.

مُنعت من أن يكون لي حساب على الصفحة الزرقاء لأتخذ صفحتك ملجأ لي أنشر فيها كل ماكنت أعتقد أنه سيعجبك، بعد ذلك أصبحت الصفحة هي أنت، أصبحت شخصا بالنسبة لي أكتب عليها كل همومي رسائلي الكثيرة لك والتي لم تقرأها، نشرت تعليقاتي تحت صورنا كل هذا جعلته محجوبا عن الآخرين لا يمكن أن يراه إلا أنا وأنت. لكنك لم تظهر ولم يتغير زوجي، لم يمنحني فرصة واحدة أستطيع أن أُحارب بها طيفك الذي استسلمت له وصرت

أنا من يطلب استحضاره، بل لم أعد أجد المتعة إلّا في الحديث عنك. أتذكر كيف كنت تعاملني، كيف تستقبلني، كيف تحبني، كيف تملك مفاتيح جسدي.

لم تظهر بوادر الحمل رغم مرور عام على زواجي لتفرض نبوءة الطبيب نفسها لكنني هذه المرة كنت مرتاحة لما أنا فيه، بينما لم يعجب ذلك حماتي التي تريد لابنها ولدا ذكرا يرث أمجاد العائلة.

في عيادة الطبيب وبعد التحاليل والأشعة أكد فيها الطبيب سلامة كل منا وأننا نستطيع أن ننجب وما علينا إلّا الانتظار. لم يكن يُغريني بتاتا أن أصبح أمّا لأولاده، أصبحت اعتبر ذلك جريمة بل هي جريمة أن ننجب أبناء دون توفر ولو نسبة ضئيلة من الحب لا بل من الاحترام والتراضي هي جريمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى أن نجلب إلى هذا العالم أبناء نتيجة حركات ميكانيكية لجسدين متنافرين لا يجمع بينهما الحب أو القليل منه.

جاء الحمل في العام الثاني كل الصور تشير إلى قدوم فتاة لم يعجب ذلك حماتي اتّهمتني بأنني صاحبة فأل سيئ على الأسرة وأن النساء الحرائر ينجبن ذكورا وليس إناثا، أجبتها أنّني ربما أخطأت في الخلطة بينما كنت أقوم بصنع الجنين داخل رحمي، لم يعجبها ذلك اعتبرتها وقاحة لكنها كانت بداية الوقاحة فقد اكتسبت سلاطة في اللسان لم أكن أتخيل يوما أنها يمكن أن تخرج مني، أجبته يوما عندما قال لي راجلك سبع.

- أنا ماشفت والو كدير كي الفروج.

لم يعجبه ذلك احمرت وجنتاه من الخجل طعنته في المكان القاتل، أصبح يتفادى ممارسة الجنس معي، أراحني من العذاب الذي كان يسببه ذبحه لي يتركني في بداية الطريق وينسحب، لم يكتمل الحمل

لأن لا أحد منا كان يُريد له أن يكتمل قاموا بإجهاضي في المستشفى خوفا على حياتي إثر نزيف حاد تعرضت له.

بعد الإجهاض أصبح يبتعد كثيرا وأصبحت أنا أكثر تسلطا. وصلتني أخبار خيانته لي، لم يغضبني منه ذلك واجهته باكتشافي متهكمة بأن ذلك يليق به لأنه يمارس الجنس كالديك والديكة تحتاج لأكثر من دجاجة بينما السبع يحتاج لبؤة واحدة فقط.

في العام الذي مات فيه أبي تحررت بشكل كامل من تردُدي وخوفي. انحدرت إلى التشوه صرت إنسانة مشوهة لا أعرف نفسي لا أعرف ماذا أريد؟ أعيش في عالمين منفصلين. زرت طبيبا نفسيًّا كشف تشخيصه لحالتي أشياء داخل نفسي كنت أجهلها، جعلني اكتشافها واقتناعي التام بكلام الطبيب أُعِيد تقييم حياتي وترتيبها من جديد، أخبرني أشياء غريبة عن نفسي اخبرني: أن الانسان بصفة عامة في مجتمعاتنا يحاول دائما أن يُحمل الآخرين مسؤولية فشله، لأنه ببساطة كان ينتظر منهم أن يصنعوا نجاحه، قال لي: إنني كنت عاشقة سلبية وأنني لم أقم بأي شيء لإنجاح حبي الذي أتحسر عليه الآن متهمة أبي في إفشاله، في حين لم يكن هو السبب لم تكن عندي الإرادة الكافي.ة كان مطلوبا منك أنت أن تفعل كل شيء، كان عليك أنت أن تعبر بينما ظللت أنا في مكاني أنتظر ما ستقدمه لي، قال لي: أن أبي هو أكثر شخص فهم احتياجاتي، لأنه بحث عن من يستطيع أن يقدم لي ما يرى هو أنني في حاجة إليه وما علمني هو أن أحتاجه، في حين كنت أنا قد تعلمت أن أحتاج أشياء أخرى في مدرسة أخرى هي أنت، أخبرني الطبيب أنني كنت سأنظر إلى ما طلبه مني زوجي برضا تام لو لم أُجرب الحب معك أو لو لم أعرف معنى آخر للحب الذي صار هو مقياسي الذي أقيس به، أخبرني الطبيب :أنه كان علي أن أتحرر من جبني ومن احتياجي للآخر،

أنني لم أتخلص من كوني امرأة شرقية تعتاش من فرجها، رغم أنني أحاول أن أُظهر عكس ذلك.

أخبرني الطبيب: أنه من المؤسف أن يعيش المرء يوما من حياته فقط وهو يحاول أن يظهر أمام الناس كلهم بأنه سعيد بينما هو يتمزق من الألم، يوم واحد فما بالك بعمر كامل وللأسف الكثير ممّن نراهم نحن أُمراء ويحاولون أن يظهروا كذلك يرون أنفسهم في مراياهم عبيدا، أخبرني الطبيب: أنّ الحياة نعيشها مرة وهي تستحق أن نعيشها ونحن صادقون مع أنفسنا نستطيع أن نستطعم المعنى الحقيقي للأشياء للألم الذي يأتي مع السعادة نعم في لحظة ألم حقيقية قد تعيش أجمل إحساس من التضامن من شخص يحبك قد يعانقك عناقا لم تتخيله تحس فيه بنبضات قلبه تتلاحم مع نبضاتك تحس بذلك تشعر به تسعد به وأنت في قمة الألم، يخفف عنك ما أنت فيه. يجعل منك ملاكا تطير. إنه الحب، قد يقول لك كلاما شافيا المهم أن نكون صادقين في كل شيء عندما نغضب، عندما نحب، عندما نتألم، عندما نضحك، عندما نبكي..، كفى تصنعا، كفى تصنعا، كفى عذابا.

الآن أنا مطلقة أعيش مع أمي تحررت من احتياجي للآخرين لم أعد اعتمد على أحد، أكسب رزقي بنفسي أتمتع بحياتي صار لها معنى، أصبحت أنا وحنان نعيش على الذكريات هي لم تتخلص من حبها للطبيب رغم أنه تخلى عنها لكنها قالت: الإحساس بالحب في حد ذاته شيء جميل والعيش من أجله أجمل، أتمنى أن تسامحني، لست أدرى لماذا أطلب ذلك وأنا أبكي كلما تذكرت خيانتي لك أبكي، صرت أسميها خيانة. أحبك وسأظل أحبك ستكون هذه آخر رسالة أكتبها على صفحتك لأنني لم أعد أخجل من حبك صارت لي صفحتي الخاصة وأنا أكتب فيها كل ما يدور في خلدي عن حبي لك عن

رأيي. سيجد فيها كل من يزورها صورنا حتى بعض أحاديثنا دونتها لم تعد محجوبة عن الآخرين باستطاعة كل الناس قراءتها لم أرتكب جرما كي أخجل منه، أنا أحببت وهذا حق من حقوقي الكثيرة في هذه الحياة أكتب على صفحتك هذه الرسالة رغم علمي المسبق أنك لن تقرأها لن أتزوج وليست لدي الرغبة في ذلك، سعيدة أنا بحياتي كما هي سعيدة بذكرياتي معك وسعيدة بحبي لك، اقرأ كل ما قرأته سابقا قصصا وروايات والكتب التي حدثتني عنها أقرأها لأعيش حياتك لأتذوق ما كنت تتذوق لأنك أنت الحب في كل شيء حيا أو ميتا، فلتهنأ في قبرك الأبدي لترافقك دعواتي في صلواتي وخلواتي. أنت زوجي منحتك نفسي برضا تام ولم ولن أتزوج أحدا غيرك.

- الو دنيا
- .. لاااااا
- مالك دنيا ماعقلتيش على صوتي.
- انااااااااااا اناااااااننننا كنحلم.

لم تستطع أن تتكلم خنقتها العبارات ضلت تشهق لنصف ساعة كاملة. لم أبك معها كما بكيت مع أمي رغم اشتياقي لها، حبي لها لم أستطع البكاء رغم مغفرتي لها التقطت أنفاسها لتجيب.

- فيـــــنك دابة نجيك دابة دابة
- لا لا دنيـــــا مازال ما دخلتش.
- ..انت انت لاباس عليك فين كنت.
- تحت الأرض دنـــــا
- لاااا ماتخلعنيش الله يخليك خليني نتأكد راك كتهدر معايا ماكنحلمش ماما ماما ماما سمعت صوت أمها أمي سمعي سمعي

صوتو هو كيهدر ياك؟

التقطت أمها الهاتف في هلع ظاهر وهي تحوقل وتبسمل مستعيذة من الشيطان الرجيم طالبة من ابنتها الهدوء.

– اسم الله عليك بنتي اسم الله عليك الو الو شكون معايا شكون انت آولدي بسم الله الرحمان الرحيم.

– كيديرة خالتي زهرة لاباس.

سمعت صوت دنيا: هو أُمي هو ماكنحلمش ياك ماكنحلمش دوزيه ليا آري التلفون.

– الو.. فينك انا مكنحلمش انت كتهدر معايا ياك.

– أيه ادنيا أنا كنهدر معاك. حي ماشي ميت مازال كيهدرت مع أمي وبا دابة وخوتي كاملين الا متيقتيش هدري معاهم.

– فينك فينك فينك باغة نشوفك دابة دابة دابة.

– حلي الكام دنيا.

– أيه نسيت عندي الكام.

رأيتها ورأيت الدموع في عينيها سامحتها من كل قلبي عذرتها سلمت على أمها أرادت هي أن أُريها جسمي لتطمئن علي. وبكيت بكيت معها، بكينا سنوات عمرنا الضائعة، بكينا حبنا الذي لم يجد لا التربة ولا الماء كي ينمو ويزهر، بكيت فقري، عجزي، جهلي بكيت وطني، بكيت سجني..

– وريني سنانك لاباس.

– دنيا أنا لاباس الحمد لله.

– لا أنت دابة في السبيطار منظر ديال السبيطار هداك وراك.

– ايه أنا في السبيطار.

– اش عندك؟ لاباس لاباس. قولي ماتخبيش علي الله يخليك قولي.فين كنت بالصح؟ فين كنت؟

لم تترك لي الفرصة لأجيب عن استفساراتها، كانت هي من تتكلم تستفسر عن كل شيء السؤال تلو الآخر، بعد أن هدأت من هول الصدمة والمفاجأة. ليلتها لم نستطع النوم كأننا افترقنا البارحة، كأننا كنا في حلم، تأكدت إنني أُحبها أكثر من السابق، تأكدت أنها هي الحب بالنسبة لي، أنني أعيش من أجلها، قاومت من أجلها، جَبُنت أحيانا من أجلها، أدركت أن طيفها هو من خفف عني آلام السنين الماضية.

الفصل 15

نهاية وبداية

«حين سكت أهل الحق عن الباطل

توهم أهل الباطل أنهم على حق»

علي بن ابي طالب

دامت إقامتي في مشفى الحقل ستة أشهر. أصرّ فيها الطبيب على أن أخضع لعلاج مكثف من التأهيل النفسي يجعلني قادرا على الاندماج والاختلاط بشكل طبيعي في الحياة التي تنتظرني في الخارج. ستة أشهر لم أفارق فيها الكولونيل «ملافو» لم أخرج بصحبة العربي كما كنت أتمنى لأنه قد قُدر لي أن أخرج من ذلك العالم من تلك الغابة بصحبة ملاك من ملائكة الأرض قل وجودهم في هذه الحياة، رغم أن وجود أمثالهم هو وحده ما يبعث الأمل والحب فيتوقف تصحر الأرض ويتوقف جفاف الأنهار والوديان هو وأمثاله من يبعث الأمل لأن تعود الحياة خضراء جميلة إلى هذا الكوكب الجميل الذي نتشارك العيش فيه.

خرجت من المعتقل، من المعسكر، من الحقل، حيث كنت أعتبر نفسي مسجونا، خرجت من المعسكر حيث كنت تعتبرني أنت إرهابيا خرجت من حيث كنت أُهيأ لأكون آلة للدمار، خرجت سنة 2025 على الساعة الخامسة والعشرين، خرجت لأجد العالم العربي ممزّقا إمارات ودويلات صغيرة، خرجت لأجد أن أبا جهل قد عاد من جديد ونُصّب حاكما على أُم القرى، شيد صنما كبيرا بجانب صنم هُبل، شيده بشعر أسود طويل أسماه هيفاء ، سرعان ما أُدرج في قائمة التراث العالمي وأصبح محمية دولية، كل العرب تحج هناك كل يوم، لم يعد الحج أشهر معلومات، أصبح الحج متاحا على مدار السنة، يحجون بطقوس جديدة غريبة يتمايلون مع الصنم يمينا وشمالا وهم حفاة عراة رجالا ونساء. وجدت أن بنو طلال قد استحوذوا على السقاية والرفادة في أم القرى، يسقون الأغنياء النبيذ الأبيض ويطعمونهم الكافيار بينما يسقون الفقراء النبيذ الأحمر الممزوج بدمائهم ويطعمونهم خبز الشعير.

وجدت عبد الله بن أُبي بن سلول قد نُصّب مَلِكا على يثرب، تتحكم فيه قبيلتا بنو قريضه وبنو قَينُقاع، يوجهونه حيث يشاؤون، لم يكن هناك إلا القليل من الأوس والخزرج، يشتغلون في حقول وبساتين ومصانع بني قريضة وبني قينقاع. وجدت حصن خيبر شاهقا عاليا مُحاطا بأسلاك شائكة لا تستطيع الاقتراب منه، تساءلت: ألم يفتحه علي بن أبي طالب؟ وجدت أن لا أحد يعرف عليا. سألت عن محمد العربي النبي، وجدت أن لا أحد يعرف محمدا، سألت عن عمر، عن عثمان، عن أبي بكر وجدت أن لا أحد يعرفهم، سألت عن هيفاء وهُبل. تمايل الجمع يمينا ويسارا في حركة تُنم عن تقديس وإجلال هذين الشخصين المقدسين اللذين يُجسدان بخلود تماثيلهما تحرر الإنسان من تعاليمه وقيمه الإنسانية.

وجدت أُمراء العرب وحكامهم يدفعون الجزية للفرس والروم والأتراك، وجدت بني عبس لم يكن فيهم عنترة أبدا ولم يعش بين ظهرانيهم، وجدت أن حرب البسوس لازالت قائمة بين العرب على الناقة الشاردة ودخلت عامها الأربعة آلاف.

وجدت أنّ الخمارات والمقاهي هي دور العبادة في بلاد العرب، هناك يتعبد العرب أمام أصنام صغيرة لكل من هيفاء وهُبل وهم يتمايلون ويتصايحون حفاة عراة ويشربون الخمر والنبيذ.

سألت القس إن كان المسيحيون لايزالون يُعطون خدهم الأيمن في تسامح منقطع النظير ليصفعه من صفع الخد الأيسر..

سألت الحاخام إن كانت تعاليم موسى لازلت حية في قلوب اليهود أجابني أنّ موسى غاب مرة أخرى وظهر سامري جديد شيد لبني إسرائيل عجلا آخر من ذهب ليعبدوه لم يستمعوا لصياح هارون كما لم يستمعوا له من قبل.

عدت خائبا أبحث عن نفسي في هذا العالم الذي تشوّه فيه كل شيء، نظرت إلى المرآة لعليّ أجد ذاتي لكنني وجدت وحشيا متربعا داخلها يحمل رمحه المسموم ليقتل حمزة من جديد، يقتله في كل الأماكن، يقذف رمحه مُحملا بكل قنابل الحضارة الغربية. يقتله في الأسواق، في المطارات، في المدارس يقتله طفلا، امرأة، شيخا، مسلما، مسيحيا، يهوديا، كافرا يقتل فيه بذرة الانسان كي لا تكبر وتنمو.

عزيـز شـراج

عزيز بن عبد الخالق شراج، كاتب وباحث مغربي، من مواليد مدينة تيفلت سنة 1975، شكّل التاريخ وعلم الاجتماع البحر الذي كان ولا يزال يحلو له الغوص والبحث فيه، بالإضافة إلى التفاعل مع كل ما يدور في الساحة السياسية والعربية من تقلبات وغليان، وقد ألقى في هذا الإطار العديد من المحاضرات. كما شارك في مجموعة من الملتقيات والمنتديات. وله عديد الأنشطة الثقافية مع جمعيات مختلفة.

هاجر إلى تونس في الحادي عشر من سبتمر 2001 ليستقرّ فيها. لم يُثنه اشتغاله بالتجارة والأعمال الحرة عن متابعة كل ما يدور في الساحة الأدبية حيث قدم عديد الاصدارات لكتاب تونسيين ومغاربة، وكان يتفاعل مع ذلك بالعديد من المداخلات عبر الإذاعات التونسية.

ظلّ قارئا نَهما ووفيا لكل المدارس الأدبية على اختلاف أنواعها، ابتداء من المنفلوطي وجُرجي زيدان، جبران خليل جبران، مرورا بنجيب محفوظ، يوسف السباعي، احسان عبد القدوس، طه حسين، العقاد... تأثر كثيرا بكل من عبد الرحمان منيف، جبرا إبراهيم جبرا، دوستو يفسكي، جرجيو قسطنطين، غابريا غارسيا ماركيز، نيكوس كازنتزاكي، والصافي سعيد..

جاءت كتاباته ومؤلفاته لتُجسّد الرواية الإجتماعية التاريخية، أضافت الإقامة في تونس إلى كتابته روحا جديدة جعلت منها كتابة هجينة حول التراث المغاربي لتُجسّده في صور عدّة. تنقلك في رحلة مزدوجة لتغوص في عالمين مختلفين، تنقلك تارة لتشاهد عن كثب حياة الأزقة والمجتمع المغربي، وتارة لتُعاين عن كثب ما يدور في الأنهج التونسية. تمتزج الأحداث لتشكل لوحة مغاربية غنية وجميلة.

من مؤلفاته

- رحلة بجواز سفر داغشي، منشورات سوتيميديا - تونس، جانفي 2018.
- العراف والكنز المطمور، منشورات سوتيميديا - تونس، جانفي 2018.

له ثلاث أعمال بصدد الإنجاز، ستصدر قريبا عن دار سوتيميديا للنشر والتوزيع تونس.